أسبوع في الأندلس

ENDÜLÜS'TE BIR HAFTA

العمر 11 سنة وما فوق

رانا ديميريز

RANA DEMIRIZ

رواية

مكتبة الطفل

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

أسبوع
في الأندلس
ENDÜLÜS'TE BIR HAFTA

مكتبة الطفل

t.me/book4kid

إحدى قنوات

مكتبة

أسبوع في الأندلس

ENDÜLÜS'TE BIR HAFTA

رانا ديميريز

RANA DEMIRIZ

رواية

ترجمة

سُهيل السَّراج

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

THAQAFA ثقافة

للنشر والتوزيع ذ.م.م.

Publishing & Distribution L.L.C.

U.A.E.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي

ENDÜLÜS'TE BIR HAFTA

تأليف **Rana Demiriz**

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من الناشر

Akdem Copyright and Translation Agency c/o TİMAŞ Publishing
Copyright © Timaş, 2019 via Akdem Translation and Copyright Agency
All rights reserved
Arabic Copyright © 2019 by Thaqafa Publishing and Distribution-UAE
No part of this book may be reporduced, in any form without written permission from the publisher

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع

Translation is sponsored by TEDA
Milli Kütüphane Binasi,
"TEDA" Şubesi,
Emek Mahallesi Wilhelm Thomsen Caddesi No: 4
Çankaya 06490 Ankara, Turkey
email: teda@ktb.gov.tr Web: teda.ktb.gov.tr

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2022 م - 1443 هـ

ردمك 978-9948-04-039-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

ثقافة THAQAFA للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص. ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

مقدمة الطبعة العربية

قرائي الأعزاء

إن ترجمة كتابي إلى اللغة العربية تعني الكثير لي، وهناك ما أريد مشاركته بشكل خاص حول النسخة العربية من هذا الكتاب. ولكن لا بدّ من القول أولًا إن هذا الكتاب اتخذ شكله، منذ خطّ قلمي كلماته لتصل إليكم، بجهد العديد من الأشخاص؛ في البداية أشكر محررتي التي كانت تنتظر بحماسٍ انتهائي من كل فصل من فصول الكتاب، كما أشكر جميع من عمل وأسهم في ترجمة ونشر النسخة العربية.

لطالما سحرتني حضارة الأندلس، وجذبتني دومًا إلى جوها الغامض، حيث أعتقد أن هناك الكثير من الألغاز تنتظر من يكتشفها. فلا شك أن الحضارة الأندلسية هي تراث مشترك للإنسانية وأنها أنجزت العديد من الاكتشافات العلمية والحركات الفنية والأفكار الدينية والتطورات الثقافية والتي يستمر تأثيرها حتى اليوم في شتى المجالات.

عند زيارتي الأولى إلى الأندلس كنت طالبةً غضّةً في فرع تاريخ الفنون، واليوم ما زلتُ أتذكر مدى إعجابي بقصر الحمراء، بدءًا من محاولتي الاستماع إلى همسات القصر في تلك الحدائق الرائعة حيث تتفتح أزهار البرتقال الجميلة وكأنها البارحة.

وإن كان القصر يبدو جميلًا جدًّا حتى الآن، مع ندوب القرن الحادي والعشرين وتعب السنين، فمن يدري كيف كان يبدو عندما تم بناؤه وخلال سنوات مجده؟ كانت هذه الفكرة نقطة البداية والإلهام لهذا الكتاب، إذ أردت لبطلة حكايتنا مانوليا أن ترى قصر الحمراء كما هو الآن وكما كان من قبل.

من أجل تصور الحالة القديمة للقصر وجميع المدن والآثار المذكورة في الكتاب، قضيتُ شهورًا من القراءة والبحث عن كل موضوع تطرقت إليه في الكتاب، سواء أشرت إليه باختصار في سطر واحد أو وصفته في صفحات. وبالطبع هناك الصورة الكبرى؛ إنها جغرافية متوسطية ضخمة، وكل مدينة فيها متصلة مع المدن الأخرى بطريقة ما، وقد أردت أن أصطحب مانوليا وماثيو إلى قلب العصور الوسطى، لذا أكملت الأجزاء المفقودة قبل أن أكتب الكتاب.

لكنني أقول على الدوام إن هدفي من كتبي ليس تدريس التاريخ، بل إن الغرض الرئيسي من هذه الأبحاث ومن أعمال خيالي، التي دعمتُها بالبحوث والمعلومات الأكاديمية لجعلها أكثر دقة وصدقًا، هو أن تشعر بما أشعر به. فأثناء زيارتي لهذه المدن، وملامسة تلك الآثار، ومحاولة إقامة حوار مع بعض المقتنيات في المتاحف، أركز دائمًا على المشاعر التي في ذهني، ثم تأتي المعلومات لاحقًا.

الإثارة، والغموض، واكتشاف المجهول، وامتياز القدرة على مشاهدة آثار الماضي في الوقت الحالي... أريد أن ندرك نمط التاريخ الذي نحن جزء منه، وما تحمله القطع الأثرية التي نمرُّ بها كل يوم، على

وجه الخصوص خلال سنوات دراستنا. لذا أعتقد أن علينا، بادئ ذي بدء، اكتساب هذا الوعي، لا أن نعرف المعلومات التاريخية.

ولذلك، فإن كتاب "أسبوع في الأندلس" هو كتابي الذي كتبته في أقصر وقت، بسبب إلهامي المعزّز بما رأيته، وبسبب حقيقة أنني تأثرت بشكل كبير بأبحاثي. وأستطيع القول إنه أحد أكثر كتبي إثارة لأنه كان ينقلني من عاطفة إلى عاطفة أثناء الكتابة. فخلال كتابتي عن مغامرات مانوليا، مرت لحظات كثيرة أردت فيها أن أكون مكانها. وأتمنى أن تشعر أنت أيضًا بمشاعر مماثلة أثناء قراءة هذا الكتاب، وأن تكتشف ألغاز الأندلس وأنت تنتقل من مغامرة إلى مغامرة مع مانوليا وأصدقائها. على أمل اللقاء في مغامرة أخرى.

مكتبة الطفل

t.me/book4kid

إحدى قنوات

مكتبة

مقدمة

الجمعة 27 تموز/ يوليو 2018م

عندما استيقظتُ ذلك الصَّباح لم تكن مقابلة مومياء عمرها سبعمائة عامٍ في قائمة الاحتمالات التي فكرتُ بها، ولا حتى آخر مادةٍ في تلك القائمة.

وعلى الرُّغم من أنَّ القائمة تضمُّ بنودًا مثل وقوع مذنَّبٍ على رأسي، واختطافي من قبل الفضائيين، وعثوري على أحد أعمال المعمار سنان غير المكتشفة، إلَّا أنَّني لم أكن على علمٍ بوجود مثل تلك القائمة في عقلي الباطن. وفي حين أنَّ هذا الأمر كفيلٌ بإظهار كيف يعمل عقلي بشكلٍ سريالي، يبقى ما عشتُه ذلك اليوم كأنَّه ضربٌ من ضروب الخيال.

أعيش كلَّ ثانيةٍ من الأحداث كلما أعدت التفكير فيها؛ أنا من قمتُ بالذهاب بعيدًا عن موطني إلى مكان مختلفٍ تمامًا وقمتُ باكتشافٍ منتظرٍ منذ مئات السنين، وربما وبنسبةٍ كبيرةٍ لم يكن أحدٌ على علمٍ بوجوده أصلًا.

المكان الذي وطأه البشر من جميع القارات بأقدامهم، وفتحوه، وعاشوا فيه، وحكموه، وحولوه إلى متحف، وتناقله مؤرخو الفن... ها أنا ذا أقف هنا، أنا.

هذا هو شعور القيام باكتشاف إذًا؛ إنَّه الوقوف عند تلك اللحظة، والعيش وسط تلك الإثارة، فقط أنا وهذا الذي يُرى لأول مرة منذ مئات السنين...

من نسمات المضيق الصيفية المنعشة إلى حرارة صحراء غرناطة... أنا وموميائي في قصر الحمراء.

موميائي!

أخذ قلبي ينبض بالإثارة، فنظرتُ إلى شريكي وعشت تلك الثواني المعدودة مستمتعةً بها، متعة كون هذا الاكتشاف لنا وحدنا... لأننا سنخرج إلى ضوء النهار بعد قليل عائدين من المتاهة التي أتينا منها، ثم نأتي بالعمال إلى هنا ونترك الأمر لخبرائه.

بدا صديق دربي صاحب خبرة أكبر، ولكن أنا... في النهاية ما زلتُ طالبةً؛ متحمسةً وشغوفة إلَّا أنني لا أستطيع الذهاب بعيدًا.

سيكون طريقي طويلًا وملتفًا كما المتاهة التي أوصلتنا إلى هنا، ولكنَّني آمل أن يُفضي إلى مسارات مثيرةٍ مثل هذا الاكتشاف، فتلك اللحظة كفيلةٌ بحبس أنفاسي.

كان للبرد القارس في الداخل دورٌ بالطبع، لذا بدأت أسناني تصطك. وقد أعادني هذا الصوت إلى الواقع، فنظرت إلى رفيق دربي، ووجدتُ بشرته آخذةً بالتحول إلى اللون الأزرق.

في البداية، لم نقترب مما اكتشفناه بسبب البرد وبسبب خوفنا قليلًا، ثم شرعنا نمضي قُدمًا في هذه الغرفة التي تشبه الثلاجة، على الأرجح تحت تأثير الأدرينالين الذي أخذ يضخ في عروقنا.

بدأت أشعر بخدرٍ في أقدامي بسبب الصندل الذي انتعلته بما يناسب حرارة الجو البالغة نحو 50 درجة في الخارج، والذي امتص الآن برودة الأرضية.

ترددت أصوات أقدامنا مع كل خطوةٍ صغيرةٍ حذرة كنا نخطوها، محدثةً أصداءً مخيفةً في الصمت المطبق.

لطالما تخيلت اللحظة العظيمة التي يعثر فيها علماء الآثار على مومياء؛ حيث تُصَفُّ أجزاء التابوت الذهبي، ويكشف علماء الآثار عن المومياء بكل فخر. أما لحظتي فكانت في الحقيقة فيلم رعبٍ بكل معنى الكلمة. كانت المومياء صغيرة للغاية، ولم تكن موضوعةً في تابوت. وأظن أنها لو كانت موضوعةً في تابوت لما صمد الخشب أمام البرد على الأغلب.

بدت المومياء من بعيد كشرنقة فراشة بنية مستلقية من دون حول ولا قوة فوق منصة رخامية.

كنت قد رأيت مومياءات في المتاحف مراتٍ عديدة، واعتبرتُ عرضها للناس نوعًا من قلة الاحترام، لذا كنتُ أمر بسرعةٍ من أمامها بشيءٍ من الارتعاش، وها أنا أحمل نفس الأحاسيس تجاه مومياءي الصغيرة.

عندما رأيتُ وجه المومياء أحسستُ بشعر رقبتي يقف؛ كانت لطفلٍ! بدا رفيق دربي مدهوشًا مثلي، ولكن فوق ذلك خيّم عليه حزنٌ لم يكن بحاجة للكلام عنه حتى أعرف وجوده.

ترك الخوف مكانه للتأسف، ثم للفضول... الفضول خَطِر، لأن هذا الشعور المسمى فضولًا يقمع كل شعورٍ من المفترض أن يكون هو

الطاغي كالخوف والقلق والحذر، ويعطينا الجرأة للتركيز على التفاصيل العلمية؛ أي أساليب تحنيط المومياء وخصائصها الفيزيائية ولباسها.

تلك الجرأة هي التي جعلتنا نمد أيدينا نحو المومياء!

لفتت انتباهنا قطعة ورقة بين يديها الصغيرتين المضمومتين على بطنها؛ هل كُتبت فيها يا ترى هوية مومياءنا؟ سنُشبع فضولنا إن استطعنا أن نأخذها.

صوتٌ واحدٌ ملأ رأسي عندما ضغطَت الأصابع الصغيرة على الورق، كان صراخي.

الفصل الأول

يوم الخميس 17 أيار/ مايو 2018م

اشتدَّ المطرُ.

شددت الكتب البالغ عمرها مئات السنين محاولةً حجب المطر عنها بذراعي. وعلى الرغم من محاولاتي تثبيت المظلة بيدي الحرة، إلا أنَّ العاصفة جعلت المطر أقوى والمشي أصعب.

نظرت بغضبٍ إلى الغيوم حالكة السواد التي زارت مدينتنا والصيف على الأبواب. المهم فقط ألا أقع في الطريق الذي مشيت نحوه بخطىً حثيثة منذ مغادرتي المكتبة، وألا أتزحلق بماء المطر المتدفق كالسيل على المنحدر الذي تحول لونه إلى البني بفعل أوساخ الشارع، أو عدم تعثري بحجر الطريق المُتعب من مرور آلاف الناس عليه، والذي فصل نفسه عن البقية متخذًا شكلًا غريبًا. حاولت تكرار القائمة التي أعطاها الأستاذ لي محاولةً ترك التفكير في هذه الاحتمالات الثلاثة الرهيبة، والتي ستكون عواقبها وخيمة بالنسبة إليّ. كل تلك الترجمات، والأسماء الطويلة... خطأ واحد كفيلٌ بإرسالي في نفس الطريق مرة أخرى.

دراسة فرع التاريخ في جامعة "بوازاتشي" هي حلمي منذ الصغر، فالتاريخ كان مثيرًا بالنسبة إليّ على الدوام. وكنت قد عاهدت نفسي

ألا أتوقف حتى أصبح أكاديميةً تنقل بمقالاتها إثارات الماضي للمستقبل.

انقطعت أنفاسي كعادتي عند تسلق المنحدر... لم يخبرني أحد أن منحدرات "بيبيك" شديدة الانحدار لهذه الدرجة وأن من لا يواظبون على التمارين لا يمكنهم البقاء على قيد الحياة على الإطلاق. كان يجب عليَّ أن أكون أكثر اعتيادًا بعد أربع سنوات ولكن هذا شيء لم يُفلح فيه أحدٌ تقريبًا.

"اعتقدتُ أنك انجرفتِ مع التيار واختلطتِ بمياه المضيق الباردة".

جاهدتُ بابتسامة بينما وضعت الكتب بسلام على طرف الطاولة. بماذا كان يفكر يا تُرى وهو يرسلني إلى المكتبة في هذا الجو العاصف الماطر؟ ويصرُّ فوق ذلك على اصطحاب مظلته التي كنت أتصارع معها أثناء تسلقي المنحدر معي وكأنها ستحميني.

سحبت كرسيي الصغير وجلست بجوار المشعاع لأتدفأ، ثم أخذت أتفحص الجزء المرئي لي منه؛ كان الأستاذ ألتاي، ونتيجة ثقل السنوات التي تتجاوز الثمانين من عمره يحني رأسه كغصن زيتون معمرٍ غارقًا بين الكتب يقرأ مقالة باللغة البرتغالية، كانت أوراقها قد علقت في الطابعة البارحة وأذاقتني المر لإخراجها. وقد أنهى شاي الياسمين الذي اعتاد أن يشربه وقت الغروب، بينما ازداد ارتفاع جبل المقالات المقروءة أثناء عودتي من المكتبة.

"هل وجدتَ ما كنت تبحث عنه يا أستاذي؟".

دلني تقطيب حاجبيه أن صوتي أجفله، فهو ينسى نفسه فورًا عندما يقرأ، والحقيقة أنني لم أرَ من قبلُ أحدًا يندمج مع الكلمات ويقطع اتصاله مع العالم الخارجي بسرعته.

نظر من فوق نظارته، فرأيتُ تجاعيد عميقة خلّفها ثقل سنين من القراءة والكتابة تُحيط بعينيه الزرقاوَين، وقد بدا متعبًا للغاية ببشرته الشاحبة وشعره الأبيض. أدهشني التباين الذي أحدثته الحيوية إثر ابتسامته.

"عزيزتي مانوليا، في البحث لا يوجد شيء يسمى *إيجاد ما كنت تبحث عنه*. إذا كنت تبحث عن شيء محدد، فهذا يدل على أنك متحيّز أو لديك توقعات".

سعلَ بشكلٍ طفيف ثم أكمل كلامه: "إذا كنت لا تعرف ما الذي تبحث عنه أثناء البحث، فإن كل ما تصادفه قد يفاجئك ويساعدك على إلقاء الضوء على التاريخ".

يمكنني القول بكل طمأنينة إن حظي الأكبر في الحياة هو عملي كمساعدة للأستاذ ألتاي؛ فكل دقيقة يمكنني التحدث فيها مع الأستاذ ألتاي كانت بمثابة كنز بالنسبة لي في اللحظات المتبقية من الوقت الذي كنت أتنقل فيه بين غرفة النسخ والمكتبة. لم يكن يُسهب كثيرًا في الكلام، بل كان أغلب وقته يقرأ ويدون ملاحظات. لذلك كنت أفكر لو أن لدينا جهاز تسجيل لأسجل عباراته النادرة وأنقلها إلى الأجيال القادمة.

عاود النظر إلى المقالة متفكرًا وقال: "لم تكن هذه مصدر إلهام كبير؛ من الواضح أن المؤلف استخدم لغة متحيّزة، ما يتطلب مني قراءة المستندات التي حصل عليها من الأرشيف مباشرة".

يقول الشيء ذاته عن كل المقالات تقريبًا.

علَّقتُ محاولةً إبقاء نبرة صوتي لطيفةً قدر الإمكان: "أنتم تقرؤون المستندات الأصلية في كل الأحوال".

كان هذا طبعًا آخر من طباعه؛ يجعلني أبحث عن كل الدراسات المتعلقة بإحدى الوثائق ثم أحضرها له دون انتقاء ليقرأها، ولكن في النهاية عندما يقرأ الوثيقة الأصلية يشعر بالرضا ويدون بضع جمل.

أخرجت ورقة قمت بحشرها بين الكتب التي أحضرتها من المكتبة، وقلت: "لهذا السبب أحضرت لك صورة عن الأصل أيضًا".

نظرًا لمعرفتي بطبعه فإنني أجد صورة ملونة لكل الوثائق المتعلقة بالمقالات التي يقرأها أو يبحث فيها، أو غالبًا ما أصورها من الأرشيف وأضعها بين الكتب.

نظر بطرف عينه إلى الورقة ثم رمى المقالة التي في يده فوق "*جبل المقروءات*". أشار بيده إلى الطرف الآخر. يُخبرني أن أضع الورقة والكتب مع "*للقراءة*"... سيطلع عليها لاحقًا إذن!

ذهبت نحو الطرف المقابل للطاولة عابرةً بصعوبةٍ جبال الكتب والورق البالغ طولها طول إنسان. وبعد أن وضعتُ فنجان الشاي على رف النافذة الرخامي، لأنه السنتيمتر الوحيد الفارغ في الغرفة، رصصتُ الكتب التي أحضرتُها اليوم في الحيّز الضيّق المتاح على الطاولة.

"هل من أمرٍ آخر تريدينني أن أقوم به؟".

هزّ رأسه ناحية اليمين واليسار؛ لا بدّ من أن عقله عاد للتفكير حيث إنّه لم يتفوّه بأي كلمة. سحبتُ كرسيي الصغير نحو طاولتي التي

بالكاد تتسع لحاسوبي، إذ يبدو أن الشيء الوحيد الذي ينتظره مني هو إنهاء ترجماتي.

بانتظار إقلاع الحاسوب، نظرتُ خارج النافذة، إلى السحب السوداء الهائمة فوق المضيق. في الواقع كانت الشمس ساطعةً صباحًا، ولم أفهم كيف تحول الطقس هكذا بعد المساء، كأنه كان ينتظر خروجي ليسوء.

قال من دون أن ينظر إلي: "دائمًا ما تكون هذه الأيام من السنة محيرةً، لا نعرف ما الذي يخبئه لنا الزمن القادم".

توقفت للحظات عند كلماته، ولكنها لم تحمل أي معنى في ذلك الوقت، لهذا لم أُجب بشيء كي لا أقاطع عمله، بل التفتُّ إلى الورق أمامي.

دُهشت تمامًا عندما قال: "الترجمة التي قمتِ بها ذلك اليوم، أفادتني من أجل المقالة".

كانت هذه التفاتةً عظيمة طبقًا لمعاييره، فهو لم يكن يمدح كثيرًا، ولكنه في نفس الوقت لا يشتكي كثيرًا.

أكبر مهامي هي الترجمة له من الإسبانية... بالطبع، تعلم الأستاذ ألتاي اللغة الإسبانية بمستوى جيد فعلًا منذ خمسين عامًا، ولم يكن بحاجة إليّ لفهم ما كان يقرأه، ولكن في بعض الأحيان يطلب مني ترجمة فقرات إلى التركية أو الإنكليزية ليسهل عمله، وكانت تلك فرصةً لتقوية لغتي الإسبانية التي كنت أتعلمها لسنوات.

أثارني قوله منذ قليل أنها ستُستخدم من أجل المقالة، فقد كانت تلك هي المرة الأولى.

"تطورك ملحوظٌ كما يبدو من خلال ترجمتك. ما حال لغتك العربية؟".

كانت اللغة العربية موضوعًا يُصرُّ عليه منذ البداية. إن كنت أريد أن أصبح رائدةً في دراسات الأندلس فلزام عليَّ تعلم اللغة العربية بالإضافة إلى اللغة الإسبانية. كنت بالطبع أتقدم ببطء، لأنها لغةٌ صعبةٌ، وخاصة أن الأمر يتعلّق بنصوص العصور العربية الوسطى.

"أنا الآن في المستوى الثالث منذ أسبوع يا أستاذي، وأغلب الظن أنني سأنتهي من نصف المستوى مع نهاية الصيف".

كان هذا ظنًا متفائلًا جدًّا، ولكنني قلته آملةً أن يساعد قوله بصوتٍ عالٍ في تحقيقه.

هزّ رأسه... هل كانت هذه إيماءة موافقة؟ أم التسليم بعدم رضاه عن تقدمي البطيء؟ احترت في ذلك. ولكن عدم اليقين خلق لحظة ممتازة لتغيير الموضوع، فقلت: "أرسلت للمتحف من أجل الصور التي تنوي إضافتها على المقالة. أفترض أن الرد سيأتي خلال الأسبوع القادم".

أخذ نفسًا عميقًا وقال: "لم يكن الأمر متشعبًا لهذه الدرجة من قبل، ولكن كل شيء أصبح أكثر صعوبة مع الرقمنة"، ثم ربّت على لحيته وأضاف: "أنا أفتقد آلتي الكاتبة".

وضع القلم فوق المقالة التي كان يقرأها، أنزل نظارته متيحًا لها أن تتأرجح بخيطها فوق قميصه. هذا يعني أنه لن يقرأ لفترة، لذا تركت أيضًا قلمي وملاحظاتي على الفور، وتابعته بانتباه متحريةً ما سيقوله.

"كنت في مثل سنك عندما بدأتُ البحث".

عندما نظرتُ إليه متسائلةً أخذ يشرح ما يتعارض مع سيرته الذاتية التي أعرفها عن ظهر قلبٍ تقريبًا: "لا أتحدث عن الأندلس، فذلك كان اهتمامًا ظهر لاحقًا، إلا أن الأسئلة التي سألتِها قادتني إلى الأندلس".

قطع شرحَه اهتزازُ صدره بنوبةٍ من السعال، فملأتُ على الفور الكأس الزجاجية الموجودة على الطاولة بالماء من القنينة البلاستيكية الصغيرة الموضوعة على الأرض وأعطيته إياها. وبعد رشفتين من الماء خفّ سعاله قليلًا.

"كنتُ أقصد شغف البحث؛ السؤال والتمحيص في كل ما نقرأه ويثير اهتمامنا. كما قلتُ لك سابقًا، المهم هو طرح الأسئلة دومًا، وليس البحث عن أجوبة".

أومأت برأسي قائلة: "لأنه لا يمكننا إعادة بناء التاريخ برمته وتفسيره. من المؤكد أن هناك ما أغفلناه".

ابتسم قائلًا: "تمامًا... ولهذا فإن الصبر والانتباه مطلوبان. تذكري هذا يا مانوليا؛ التاريخ فترة زمنية مستمرة التدفق. انظري، أعطيتني كأسًا من الماء منذ قليل وأصبح ذلك تاريخًا، واختلط مع الزمن المتدفق".

انتظرت انتهاء كلامه متسائلةً عن علاقة ذلك بموضوعنا.

"قد يبدو ذلك فعلًا غير ذي أهمية، ولكن لو أنني كنت أختنق منذ قليل وأنك أنقذتِ حياتي، لربما تحول ذلك إلى فعل مهمٍ يستحق تدوينه في التاريخ".

أومأت برأسي، فما قاله منطقيٌّ للغاية.

"ولكن الكأس التي أعطيتني إياها كانت أول كأس ماء أشربها اليوم، وكان ذلك مفيدًا لقلبي على المدى البعيد، أي أن ذلك كان مهمًا أيضًا".

فهمت ما يقصده، وقلت: "لا نستطيع الحكم على الأفعال أيّها مهمٌ وأيّها أقل أهميةً. الأشياء التي قد تبدو لنا غير مهمةٍ قد تكون في الواقع ذات تأثيرٍ".

لوح بإصبعه متابعًا: "لذلك واجبنا كمؤرخين طرح الأسئلة ووضع الاحتمالات الممكنة فقط"، ثم استند للوراء وسألني: "ما هي وظيفتنا إذً عبر الزمن؟".

قطبت حاجبي أمام هذه السؤال.

فقال موضحًا سؤاله بأسئلة أخرى: "ماذا يدون المؤرخ؟ أليس ما يكتبه جزءًا من التاريخ؟".

ثم نظر خارج النافذة سارحًا بنظره في السماء، ولكنني لم أجد عندي الشجاعة الكافية للإجابة على أسئلته التي تنطوي على طبقاتٍ كثيرةٍ من المعاني.

"ما هو الزمن؟ أين نحن في هذا الزمن المتدفق، مع القليل من الوقت الذي نحاول نحن كمؤرخين تسليط الضوء عليه؟".

لاحظت حينها أنه يسأل نفسه أكثر من كونه يسألني.

التفتَ إليَّ كأنه استيقظ من حلم، ثم مدَّ جسمه نحو دُرجه وقلَّب فيه قليلًا، وبعد ذلك أشار لي بيده لأقترب.

قال مشيرًا إلى قطعة من الورق بطول عشرين سنتيمترًا وعرض خمسة سنتيمترات: "انظري، هذه من مجموعتي".

ثم رفعها وأراني الورقتين الأخريين تحتها، فأدركت حينها أن الأوراق تتمّم بعضها بعضًا.

"صفحات كتاب مصنوع من جلد الحيوان تعود إلى القرن الخامس عشر".

كانت تلك أول مرة أراه فيها بمثل هذه الحماسة، لذا لم أقاطعه بأي أسئلة، فأكمل الحديث لوحده: "ليس هناك تاريخٌ محددٌ، لأنني لا أعرف عن الكتاب بأكمله. يعود الفضل بحالته الجيدة هذه إلى كتابته على جلد الحيوانات، وليس على الرق".

حسب معلوماتي، فإنه كان أسلوبًا بديلًا عن الرق في ذلك الزمان، وكان أكثر ديمومةً، ولكن لم يسبق لي أن رأيت مثالًا حقيقيًا من قبل.

أنهى كلامه بالقول: "فكرت في أنك قد ترغبين في ترجمته".

ألقيتُ نظرةً سريعةً على النص؛ كانت هناك أشكالٌ غريبةٌ ودوائر متشابكةٌ ومثلثات كبيرةٌ وصغيرةٌ، بدت وكأنها أجزاء آلةٍ. لم يكن الرسم المنظوري معروفًا في ذلك الوقت، لذا رُسمت الأشكال كلها في بُعدٍ واحدٍ، مما جعل تمييزها أصعب.

نظرت إلى النص؛ كان مكتوبًا بأبجديتين مختلفتين. ربما كان القسم العربي صعبًا بسبب القرن الذي كُتب فيه، أما القسم المكتوب بالأحرف اللاتينية فبدا شبيهًا بالإسبانية. كان الأمر غريبًا؛ نصٌ مكتوبٌ بلغتين! ما هذه الأشكال؟

لم أُطق صبرًا لمعرفة ما تعنيه فسألته: "منذ متى وهي عندك؟".

كان ما أفكر به في الحقيقة هو كل الأشياء المشابهة التي احتفظ بها طوال سنين.

تفادى سؤالي بقوله: "منذ وقتٍ طويلٍ جدًّا".

ثم حوّل انتباهه إلى الكتب التي وضعتُها منذ قليل على الطاولة وكأنَّ شيئًا لم يحدث.

إن كانت موجودةً لديه كل تلك المدة فمن المؤكد أنه قرأها ويعرف محتواها، ولهذا يجب عليَّ أن أنتبه وأقوم بعمل جيد، فربما يستخدم ترجمتي. والواقع أنه لم يُعطني نصًا قديمًا لهذه الدرجة من قبل.

قلت له: "سألتقط صورةً لها لو سمحت".

أجابني حتى دون أن يرفع رأسه عن الكتب: "لا، لا، خذيها. يمكنك الاحتفاظ بها لحين الانتهاء منها".

لم تسعني الأرض من الفرحة، لأن كلامه دلالةٌ على مدى ثقته بي.

التفت نحوي وأنا أهم بأخذ المستند، وكانت تعابير وجهه تنم عن معرفته أنني سأحرص عليه كل الحرص، وبسرعة طوى الورقة عند المواضع التي بدت عليها علامات الطي السابق، حتى أصبحت في لحظة بحجم الجيب، وكأنها قطعة مهملاتٍ يريدني أن آخذها في أسرع وقت، في حين كنت أفكر بوضعها داخل مظروف لإبقائها بعيدة عن الضوء والغبار.

ثم قال مشيرًا إلى الكتب التي أحضرتُها منذ قليل: "يمكنك أخذ هذه الكتب، لن تفيدني".

"بالحديث عن هذه المقالة...".

سقط رأسه نحو الأمام قبل أن ينهي جملته.

"أستاذي!".

لا يمكن أن يكون غفا بهذه السرعة، أليس كذلك؟

انتابني الرعب: "أستاذي! هل أنت بخير؟".

تلمّست يده الموضوعة على الطاولة، وهتفت: "هل تسمعني؟".

لم يُبدِ أي رد فعل.

ما تبع ذلك كان ضبابيًا، إذ خرجتُ راكضةً إلى الممر، وأنا أصرخ: "ساعدوني! ساعدوني!".

الأساتذة في الغرف المجاورة، وجميع الذين كانوا يمرون من هناك أصبحوا عندنا خلال لحظات، وسرعان ما جرى الاتصال بالفرق الطبية.

لم يأتِ الأستاذ بأي حركة بعد، في حين ضجّت الممرات بالناس. أما أنا فكنت أنتظر ما سيحدث بخوف، وعندما أخذوا الأستاذ ألتاي على النقالة فكرتُ كيف أن الوقت مضى بسرعةٍ شديدةٍ، وكيف أنه تجمّد في الآن ذاته.

خرجتُ لأنني لم أرغب بالردِّ على أحد... كان المطر قد توقف، ولكن بدا أنه سيعاود الهطول، فمشيت إلى الساحل لحين بدء هطوله.

وضعتُ يدي في جيبي أثناء هبوطي المنحدر لأتصل بأمي، ولكنني اكتشفت أنني نسيت هاتفي في الغرفة. جفلتُ حين لامست يدي قطعةً سميكةً من الجلد؛ كانت الورقات التي أعطاني إياها الأستاذ قبل قليل مطويةً ومحزمةً.

الفصل الثاني

الجمعة 18 أيار/ مايو 2018م

ممرات المستشفى مضاءةٌ بأضواء تبهر العيون في وجه كل الألم والمعاناة بالداخل. أما الغيوم العاصفة فتركت اليوم مكانها لجو ربيعي جميل، وتسللت أشعة الشمس ذات البياض الساطع إلى المباني من كل فتحة ممكنة، وهذا ما جعل مزاجي يتحسن ولو قليلًا.

لم أدرِ كيف ذهبتُ إلى المنزل في المساء، حيث حزن جميعُ من في المنزل عندما أخبرتهم بما حدث. لم أستطع تناول الكثير ولا النوم أيضًا، إذ لم تفارق مخيلتي صورة الأستاذ ألتاي ورأسه مائل إلى الأمام، فأخذت أسأل نفسي تُرى هل كان بإمكاني فعل المزيد؟ هل كان من الممكن ملاحظة أنه متعب من قبل؟ لم يكن بإمكاني فعل أي شيءٍ حتمًا.

ذهبتُ إلى الكلية في الصباح رغم عدم وجود محاضرةٍ لعلي أجد أحدهم وأستعلم إن كانت هناك أخبار جديدة. لم أجد أستاذًا أعرفه باعتبار أن يوم الجمعة يكون عادةً أقل ازدحامًا، ولكن في النهاية علمت من أمانة سر الكلية أن الأستاذ ألتاي في حالة جيدة. ولا بدّ أنهم رأوا حزني الشديد فقاموا بإخباري في أي مستشفى هو.

خرجت في طريقي ولم أنسَ اصطحاب الزهور معي. كنت على وشك قرع الباب حين أتت إلي امرأة في الخمسين من عمرها، وكانت شديدة الشبه بالأستاذ ألتاي بشكل لا يصدق.

قالت: "تفضلي؟".

فاجأتني طريقتها في صدي، فتساءلت للحظة إن كنتُ أتيت إلى الغرفة الخطأ.

"أتيت لزيارة الأستاذ ألتاي. أنا مساعدته، مانوليا".

لانت تعابير وجهها وبدت أكثرَ شبابًا. ثم قالت وهي تنظر إلى الزهور: "سيفرح والدي كثيرًا!".

أدهشتني رؤية ابنة الأستاذ كثيرًا لأنه لم يكن يتحدث عن حياته الخاصة. لطالما كنتُ فضوليةً حول عمل ابنته وهل تعمل في المجال الأكاديمي مثله أم لا. ماذا اختارت ابنة أب كهذا عملًا لها؟ هل تملك إخوة؟ أحفاده هم كل ما أعرفه من عائلته؛ فتاتان وصبي وكلهم أكبر مني، كانت توجد صورة لهم في الغرفة السنة الماضية، وهي إحدى الأشياء الشخصية القليلة التي احتفظ بها في الغرفة.

نبهتني بقولها: "ولكن لا تتعبيه كثيرًا إن أمكن".

قلت مترددة: "ما خطبه؟ إن لم يكن هناك مانع من سؤالي".

لم أكن أريد أن أعرف إن كان هناك شيءٌ خطير. صحيحٌ أنه طاعن في السن، ولكنه كان مليئًا بالحياة ودائم العمل، لذا لم أستطع ملاءمة الاحتمالات السيئة عليه.

"لقد تقدم معه مرض ذات الرئة".

لم أعرف ماذا أقول، فاخترت البقاء صامتةً. ذات الرئة مرضٌ خطيرٌ جدًّا لمن هم في مثل عمره، وهذا ما يُفسر سعاله المتزايد مؤخرًا.

قلت محاولةً إبقاء نبرة صوتي إيجابية: "عليه العافية، أتمنى أن يكون بحالٍ أفضل الآن".

اكتفت ابنته بابتسامة. ثم تنبهتُ إلى أنني لم أتعرف إليها ولا حتى عرفت اسمها، ولكن فات الأوان الآن، فقد مرت أمامي وفتحت الباب.

ثم قالت وهي تدخل بلطف: "هناك زائرةٌ يا أبي".

تقدّمت وأنا أنتبه إلى صوت خطواتي كي لا أزعجه.

بدا الأستاذ ألتاي مُتعبًا للغاية؛ أنابيبُ داخل أنفه، وسيرومٌ موصولٌ بذراعه. لم يكن يتمكن من فتح عينيه جيدًا، وكأنه استيقظ من النوم للتو.

قال وهو يحاول الابتسام: "مانوليا".

ابتسمت بدوري: "معافى يا أستاذي".

قال بنبرة رقيقة: "أخفتكِ أنت أكثر من الجميع، أليس كذلك؟".

لم يكن بإمكاني إخباره أنني عشت الموقف مرةً أخرى في منامي أمس، وأن تلك اللحظة لم تكن تفارقني بالطبع، لذلك فضلت جوابًا أكثر لينًا وقلت: "ليتك أخبرتني أنك مريض بذات الرئة، كنت سأحاول مساعدتك أكثر"، كنت لأحضر شاي الأعشاب مثلًا أو أزيد حرارة المدفأة أو أغلق النافذة التي تركناها نصف مفتوحة... كنت لأفعل شيئًا ما بالتأكيد.

"تُصيب الإنسان الكثير من الأمراض حين يصبح في السادسة والثمانين من عمره، ولكن عليهُ نسيان كل ذلك والتركيز على العمل".

ضحكتُ قائلةً: "ما زلتَ تفكر بالعمل يا أستاذي! أُخلد للراحة، وأنا سأهتم بعملك".

اهتزَّ صدره بنوبة من السعال. أملتُ أن يكون كلامه صحيحًا حين قال: "لحسن الحظ سأعود يوم الاثنين".

إلا أنه لم يستطع القدوم إلى الكلية يوم الاثنين، وبدلًا من ذلك طلب مني الحضور إليه. فذهبتُ إلى المستشفى في المساء بعد أن انتهيت من محاضراتي وأنا أفكر بما قمتُ به خلال عطلة نهاية الأسبوع؛ اقتربت الامتحانات النهائية، لذا ركزت على مراجعة دروسي، وقمت بأعمال الأستاذ ألتاي المستعجلة فقط، وعلى رأسها إيجاد مكان للملفات الجديدة من خلال ترتيب القديمة.

بدأ كلامه قائلًا: "اعذريني لأنني أتعبتك بإحضارك إلى هنا".

هل يبدو أكثر شحوبًا اليوم؟

"الأطباء لا يتركونني بحالٍ من الأحوال".

أومأت برأسي وقلت: "بقاؤك هنا لحين تحسن صحتك هو الأفضل. ماذا يمكنني أن أفعل لك؟ هل أحضر لك كتابًا؟".

نظر إلى المقعد بجانبه فالتفت إليه؛ كان قد بنى جبلًا بالفعل. لم أستطع منع نفسي عن التفكير في مكتبته المنزلية.

"أريد شيئًا آخر منكِ".

تابع كلامه بأكثر نبرةٍ جديةٍ سمعتها منه: "كنت سأذهب إلى ندوة في غرناطة في شهر تموز كما تعرفين، ولكن الأطباء أخبروني بعدم

إمكانية سفري. وحتى لو تمكنت من السفر فإن الجو الحار والجاف هناك سيجعل حالتي أسوأ".

حزنت جدًّا لسماعي هذا الخبر، ولم أستطع حتى تخيل مقدار خيبة أمله؛ كان يتطلّع بشدة لعرض مقالته الجديدة عن قيود محاكم مسلمي الأندلس، حيث كرس العام الفائت لذلك، فقام بترجماته بعناية شديدة، ودرس الموضوع من خلال مقارنته بالعديد من السجلات. أعرف كم اجتهد في مقالته، والتي لم يشاركها معي بالتأكيد ولكنني عرفت من خلال المراجع التي طلب مني العثور عليها وإحضارها.

"يمكنني أن أُرسل المقالة لهم إذا رغبت، وأُخطرهم أنك لن تستطيع المشاركة، وأقوم بالإلغاءات اللازمة".

على الأقل سوف تُضَم المقالة إلى كتاب الندوة. أعرف الحماسة التي ينتظر بها الجميع هناك الأستاذ ألتاي، فقد سألوه إلقاء الكلمة الافتتاحية.

"أودُّك أن تقدمي المقالة".

وزنت الجملة مرتين في ذهني لأرى ما إذا كنت فهمتها بشكل صحيح. حاولت السيطرة على نفسي لأنني أعلم أنه من الوقاحة إبقاء فمي مفتوحًا من المفاجأة، ثم تجهزتُ للاعتراض.

"لا تتعبي نفسك سدىً؛ أعلمُ أنه بمقدورك فعل ذلك، إضافةً إلى أنه ليس لدي طالب دكتوراة، وحتى لو كان لدي كنت لاخترتك، لأن لغتك جيدة".

هذا يعني أنني سأذهب إلى غرناطة وأعرض مقالة الأستاذ ألتاي التي عمل عليها بحرص بوصفي طالبة تاريخ عادية في السنة الأخيرة!

"هناك نسخة مختصرة عن المقالة معدةٌ للندوة على حاسوبي. تحتاجين أن تجهّزي الصور فقط، وهناك عليكِ أن تقرأي النص وحسب، فهم لن يوجهوا أسئلةً لك أصلًا".

في الحقيقة يمكنني فعل ذلك، إذ بدا الأمر أسهل عملٍ في العالم بعدما صاغه بهذه الطريقة.

"هل ذهبتِ إلى غرناطة من قبل؟".

هززت رأسي نافيةً، فما زلت لا أستطيع الكلام بعد أن باغتتني تصريحاته المتتالية.

"وفي نفس الوقت تشاهدين المكان، ما دُمتِ تريدين الاستمرار في الدراسات الأندلسية. ستستمر الندوة ثلاثة أيام، وأعتقد أن المقالات الأخرى ستثير اهتمامك أيضًا".

فكرت في أن هذا أصبح أمرًا واقعًا.

"هل لديك تأشيرة سفر؟".

تجعّدت جبهتي، وأجبت:

"نعم، أعتقد ذلك ولكن عليَّ التأكد. لقد ذهبت إلى أثينا في العطلة السنوية، ولا أعلم إن كانت التأشيرة ما تزال ساريةً".

كنت أحاول اغتنام كل فرصةٍ ممكنةٍ للسفر خارجًا بتذاكر أحجزها مسبقًا على الدرجة الاقتصادية. ودائمًا ما شجعني أهلي على السفر، إذ أرادوني أن أرى العالم، وكانوا ما يزالون يحكون لي عن البلاد التي

زاروها قبل ولادتي. لا شك أنهم سيكونون أكثر من يفرح بعرض الأستاذ ألتاي.

"سأتحدث مع صديقٍ لي هناك ليُطلعك على المكان".

قُطع كلامه بنوبة من السعال، فأعطيته كأس الماء الموجودة قرب رأسه على الفور. بدا أفضل قليلًا بعد أن شرب الماء، واستراح قليلًا ليستعيد قوته. وكيلا أتعبه أكثر قمت بوداعه، فنظر إلي بابتسامة ضعيفة وأنا أغادر الغرفة.

"تأكدي أن هذا الأسبوع سيكون..."، توقف كأنه يريد أن يجد الكلمة المناسبة: "ملهمًا لمستقبلك".

لم يكن لدي أي شكٍ في ذلك.

الفصل الثالث

يوم الأربعاء 25 تموز/ يوليو 2018م

كانت ساقاي ترتجفان.

تمنيت في طريقي من الكرسي إلى المنصة أن أعود إلى ذلك اليوم في غرفة المستشفى لأقول لا للأستاذ ألتاي. بماذا كنتُ أُفكر عندما قبلت؟ استوعبت جدية الأمر عندما وصلت، إذ لم أكن حتى بنصف سن الأكاديميين الذين سيعرضون مقالاتهم هنا. دعك من العرض؛ لا أعتقد أنّ هناك أحدًا في مثل عمري بين الحضور!

شعرتُ بالحمل يزيد على كتفي مع كل خطوة. والواقع أن وقتي من شهر أيار حتى منتصف حزيران مضى بالدراسة وتقديم الامتحانات، فلم تحن لي فرصة قراءة المقال ودراسته إلَّا بعد تلك الفترة. استمع والداي إليَّ في المنزل العديد من المرات، وقمت بتجربة أداء مترافقة مع عرض الصور على الحاسوب. عملت باهتمام خاص على النطق نظرًا لأن العرض سيكون باللغة الإنكليزية، وكنت سأفعل كل شيء لئلا أخذل الأستاذ ألتاي، ولكن مع ذلك فإن لي حدودًا، فأنا في النهاية دون مقام هذا المكان، ولم يُعدِّني أي درس لهذه المنصة.

تنحنحت... تحول النص الذي طبعته بأحرفٍ كبيرة كي أراه

بوضوح إلى غباش... رمشتُ بعينيَّ عدة مرات، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وقلت لنفسي: "من أجل الأستاذ ألتاي الذي آمن بقدراتي".

وبدأت القراءة.

بين الحين والآخر كنت ألتفت إلى الصور التي تظهر على الشاشة العملاقة خلفي، مشيرة إلى بعض النقاط من المخطوطات الأصلية المعروضة بواسطة مؤشر ليزر في يدي كان على وشك الانزلاق بسبب العرق. بدا ارتعاش يدي جليًا من خلال النقطة الحمراء التي تلوح يمينًا ويسارًا بشكل مجنون. ولكنني لم أكن لأسمح لارتباكي، ولا لمشهد امتلاء القاعة كما رأيته من المنصة بالإضعاف من معنوياتي. ولحسن الحظ فإن كلمة الافتتاح التي كان سيلقيها الأستاذ ألتاي أُوكلت لأحدٍ آخر.

شعرت بدقائق العرض العشرين وكأنها عشرون عامًا، وكنت متأكدةً من ظهور الشيب في رأسي مع آخر جملة، لذا رفعت رأسي عن الورقة خائفةً.

ساد القاعة صمتٌ مطبقٌ، ثم دوت أصوات التصفيق، فتنفّست الصعداء. لم تكن مقالتي، ولكنني فرحت وكأنه نجاحي. ورغم شعوري بالذنب إلا أنني استمتعتُ قليلًا وأنا آمل أن يصفقوا لي بهذه الطريقة على إنجازاتي الخاصة في يوم من الأيام.

تحدث مدير الندوة: "نشكر مانوليا طالبة الأستاذ ألتاي تشيليك كالي، الذي لم يستطع الحضور، على عرضها لمقالته. وفي هذه الحالة سنتخطى فقرة الأسئلة...".

"لديّ سؤال!" صدح صوت شابٍ من آخر القاعة، لم أتمكن من رؤيته بوضوح بسبب تسليط الأضواء على المنصة ولكن رأيت ظله النحيل. ولم أستطع تمييز وجهه من بعيد، إلا أن شعره المجعد المحيط برأسه كان يُرى من كل مكان. كان الطالب الوحيد في القاعة على الأغلب!

لم يعرف مدير الندوة ماذا يقول، فالسؤال ربما يضعني في موقف صعب، نظرًا لأنني غير كفؤة للإجابة عن الأسئلة المتعلقة بمقالة الأستاذ ألتاي.

قال المدير أخيرًا بتمكّن: "سنحاول بالطبع الإجابة قدر المستطاع".

"سؤال لمانوليا؛ ركزت أبحاث البروفيسور تشيليك كالي بالكامل على سجلات المحاكم، واستنبط منها آثارًا اجتماعية واسعة للأندلسيين الذين هاجروا واستقروا في الإمبراطورية العثمانية. هل هذا منهجٌ صحيح؟".

هذا سؤال خطير مليء بالمصائد! خمّنت من لغته الإنكليزية الركيكة ولهجته الإسبانية أنه إما طالب وإما أكاديميٌ يافع، فدفعني هذا لأكون أكثرَ حذرًا، إذ لا يمكنني إحراج نفسي أمام قاعة مليئة بأكاديميين أرغب أن أكون بينهم يومًا.

غضبت فجأة وقلت أول جواب خطر في بالي دون الالتزام باللباقة وحتى دون سؤاله عن اسمه: "كما تعلم، لا يمكن إجراء الاستدلالات القاطعة في الدراسات التاريخية إلا عندما تكون مدعمة بأدلة قاطعة،

الأمر الذي يتطلب توافق العديد من الأدلة التاريخية المتعددة بعضها مع بعض. الأستاذ دقيق للغاية في عمله؛ ويفحص جميع المصادر والأدلة المتاحة قبل استخلاص النتائج حول أي موضوع".

ابتسمتُ وأكملت: "ليس لدينا أي مصدر مكتوب بخلاف سجلات المحاكم حول الأندلسيين في تلك الفترة، وهو ما يكفي لعمل العديد من الاستنتاجات المحتملة. إن مقال الأستاذ مبني على فترة محددة في حيٍّ واحد، ولكن هناك الكثير من المقالات التي تتحدث عن الأندلسيين، والإطار الزمني واسعٌ جدًّا".

وكي لا أُفسح مجالًا للاعتراض أنهيت جملتي بسرعة: "ومع ذلك، ومثل كل المواضيع في التاريخ، فإن هذه الدراسة مفتوحة للنقاش والتفسير وإثبات العكس".

آهٍ، لو أمكنني رؤية وجهه! أعلمُ أنني تصرفت بعاطفة زائدة وربما لم أكن احترافية كفاية، ولكن لم أستطع منع نفسي.

اهتجت مرةً أخرى عندما عاود الكلام: "توجد العديد من النقاط للنقاش في المقالة. على سبيل المثال، مناقشة الأستاذ بنية العائلة الأندلسية من خلال حالة طلاق".

قلت أول جواب خطر ببالي: "بما أن هذه دراسة قصيرة فقد استشهد الأستاذ بحالة واحدة كمثال. ولكن، وكما تعلم فإن الوصول إلى أحكامٍ عامة من خلال حالات منفردة أسلوبٌ غير صحيح".

وهو أسلوبٌ لم يُستخدم من قبل موكلي، أتممتُ كلامي داخل عقلي، وشعرتُ كما لو أنني محامية الأستاذ ألتاي.

لم تكفِ أجوبتي السيد مجعد الشعر، فقال: "لديَّ سؤال آخر".

تنفّست الصعداء عندما تدخل المدير قائلًا: "يمكننا استخدام وقتنا بكفاءة إذا واصلنا مناقشة وجهات نظرنا الموسعة حول المقالة أثناء استراحة القهوة، فنحن متأخرون عن البرنامج".

ثم قال اسم الأستاذ القادم وعنوان دراسته، فاسترخيت حينها وتركت المنصة. كنت أريد الذهاب إلى المنزل والدخول تحت لحافي وعدم الخروج لأيام.

قالت أستاذة أخرى تجلس بجانبي: "أحسنتِ، لقد تعاملتِ مع الأمر بشكلٍ جيد"، كانت في منتصف العمر ولم يكن شعرها أبيض. فكرتُ عندما ابتسمَت لي أن ذلك نابع من تضامن النساء بعضهن مع بعض.

لم أستطع التركيز مع المتحدثين من بعدي... وفي حين أنني لم أتمكن من التركيز على الخطابات الأخرى وتدوين الملاحظات بسبب التوتر منذ الصباح وحتى هذه الساعة، فإنني لم أستطع التركيز على الخطاب التالي نتيجة الشعور بعدم الارتياح والخجل الذي تغلب عليّ. ورغم أنني خطّطت وأنا آتيةٌ إلى هنا للاستماع وتدوين الملاحظات حول كل دراسة وإنشاء مواضيع بحث جديدة خاصة بي، إلا أنني كنت أرغب الآن أن يحل المساء لأخرج من هنا.

سأكرر ما عشته منذ قليل في رأسي وأنا أتنقّل في غرفتي في الفندق بعد أن ألتقي الطالب الذي سأله الأستاذ ألتاي أن يريني المدينة. كيف سأشرح للأستاذ ما حدث؟

حين أثقل الهم كاهلي واجتاحتني رغبة في الصراخ أُعلن عن انتهاء جلسة الندوة لليوم، وكانت ساعة معصمي تُشير إلى الثالثة بعد الظهر.

وما إن رميت نفسي خارجًا حتى ملأت أنفي رائحة قهوة عبقة، فأخذت قهوتي وقطعة بسكويت مثل الجميع ولجأت إلى إحدى الزوايا.

كانوا يتحدثون بالطبع عن مقالات اليوم ويتبادلون الأفكار، أما أنا فذهبت إلى أبعد زاوية وأدرت ظهري للحشد؛ أردت أن أنهي قهوتي وأنا أنظر إلى الحائط ثم أغادر في أسرع وقت. لم أكن لأتحمّل قدوم أحدهم وتحدثه معي.

"أهنّئُك، جواب جميل".

آه، الصوت نفسه! شعرتُ وكأن مياهًا مغليةً سُكبت على رأسي. التفت محمومةً لأردَّ عليه، ولكنني فوجئت بتعابير وجهه التي تشير إلى أنه كان يعني ما قاله ولم يكن يسخر مني، فأثار ذلك دهشتي.

قلتُ دون إطالة: "شكرًا".

كانت ملامحه تدل على أنه يافعٌ جدًّا، وبدا شخصًا لطيفًا لدرجة أنه لو لم يضغط علي بشدة أمام الناس منذ قليل، فربما كنا لنغدو أصدقاء.

مدّ يده وقال: "أنا ماثيو، تشرفت بمعرفتك".

صافحت يده دون اهتمام وعدت إلى قهوتي... كلا، لن نكون أصدقاء قطعًا!

"المخرَج من هنا"، رفعت رأسي وضيَّقتُ عينيَّ عندما قال ذلك.

"عفوًا، لم أفهم".

"أنا من سآخذك في جولة".

أخفيت دهشتي خلف ابتسامةٍ مصطنعةٍ: "حدث سوء فهم على الأرجح، لقد أرسل الأستاذ أحدهم بالفعل".

تبسّم حتى لمع كل سن من أسنانه بشكل يثير الأعصاب: "هذا أنا".

"أنت أصغر من أن تكون صديق الأستاذ!".

حتى أنا أدهشتني وقاحتي.

ولكنه قال دون انزعاج: "هل حسبتِ أنَّ أحدًا منهم سيأخذكِ في جولة؟" مشيرًا إلى الجماعات خلفه. "أتيتُ بطلبٍ من صديق... أضيفي إلى ذلك أن لا أحد يعرف قصر الحمراء مثلي".

آه... الحمراء... كان حلمي دائمًا زيارة قصر الحمراء! رأيته البارحة عندما وصلت إلى غرناطة يُطل بكل عظمته من فوق التل، وتمكّنت من متابعة رؤيته وأنا أتقدم في المدينة لفترة بفضل الإضاءة المسلطة عليه. أما حين أتيتُ هذه الصباح لحضور الندوة فلم ألمح منه شيئًا... كانت الصالة المُعدة للندوة حديثةً للغاية، وكأننا لم نكن قُرب قصر الحمراء منذ الصباح.

فكرتُ عندما نظرت إلى ماثيو بأنه يمكنني التجوال فيه بمفردي، ولكن هذا ما سأفعله غدًا. كنت لا أزال مرتبطةً بفكرة عودتي إلى غرفتي مع الشخص الذي أرسله الأستاذ ألتاي والجلوس للرثاء هناك. علاوة على ذلك، لن أستطيع تقبُّل فكرة أن يأخذني في جولة إلى قصر الحمراء الذي يعرفه بعد ما فعله اليوم.

أجفلني قوله: "أنا ابن الحمراء".

انفجرت بالضحك، فقد فهمتُ على الفور الاقتباس الذي أخذه من كتاب حكايات الحمراء المنشور عام 1832م لمؤلفه الكاتب والدبلوماسي واشنطن إيرفينغ.

جاء إيرفينغ إلى غرناطة بدعوة رسمية، وبقي في الحمراء لمدة طويلة، حيث رافقه شاب يعيش في القصر اسمه ماثيو كانت عائلته تعيش حياةً فقيرة ولكن سعيدة في القرية الصغيرة خلف القصر. كانت الجملة التي قالها لي منذ قليل هي نفسها التي أخبر بها ماثيو إيرفينغ في الكتاب.

أجبته: "سأرفض إن لم ترني مكان الذهب المغربي".

كانت هذه الأسطورة هي الأكثر ذكرًا في الكتاب: عند فتح الأندلس قام المغاربة المسيحيون الذين عاشوا هناك بدفن ذهبهم في القصر وما حوله.

ضحك، فتابعتُ قائلةً: "آملُ أنك ابن الحمراء فعلًا وإلا فأنا أفضل التجوّل مع دليلي الرقمي".

"لقد نشأت في غرناطة، وأعمل في الحمراء منذ تخرّجت السنة الماضية"، توقف قليلًا وأضاف: "بالطبع ليس كابن الخادم، ولكن كمؤرخ"، مذكرًا بماثيو كتاب إيرفينغ.

وضعت قهوتي على الطاولة المجاورة لي وقلت: "إذا كان الأمر كذلك فأنا محظوظة... لحسن الحظ أن المتاحف بدأت تعمل بالتوقيت الصيفي وتبقى مفتوحةً لوقتٍ طويل".

توقفتُ فجأةً وكبحت جماح نفسي، وقد تغير مزاجي بسرعةٍ مدهشةٍ حتى بالنسبة إليه، وقلت: "ما دمت ستكون دليلي لمَ طرحت عليَّ الأسئلة في الداخل؟ تعلمُ أنه لم يكن يجب عليك فعل ذلك".

غطَّت وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ وقال: "وأنت لم يكن يجب عليكِ الإجابة عن مقالةٍ ليست لكِ. ولكن عاطفتكِ غلبتكِ".

شعرتُ بالدم يندفع إلى وجنتي، فأنزلت ناظري إلى الأرض خجلًا، وبينما كنتُ أُفكر بإجابةٍ أكمل قائلًا: "طلب الأستاذ مني طرح الأسئلة".

من حسن الحظ أنني وضعت القهوة على الطاولة وإلا لوقعت على الأرض.

"لمَ يطلب الأستاذ منك طرح الأسئلة حول مقالته؟".

بهتت ابتسامته وضاقت عيناه بشكلٍ غامضٍ، وأجاب: "لا أعلم، يمكنكِ سؤاله عندما تعودين. أنا فعلتُ فقط ما طلبه مني".

لم تمضِ على وصولي أربع وعشرون ساعةً بعد، ومع ذلك بدأ الوضع يأخذ شكلًا عجيبًا. لمَ فعل الأستاذ شيئًا كهذا؟ أكان يختبرني، أم يختبر ماثيو؟ والسؤال الأهم؛ هل أجبت بما كان ينتظر سماعه مني وأرضيته؟ أم هل كان عليَّ التعامل بهدوءٍ أكثر؟

تبعته وأنا غارقة في الأفكار، فعبرنا ممرًا أفضى بنا إلى الباب الخلفي للقصر، ونُقلت في لحظةٍ إلى عالمٍ آخر. وهكذا غادرت الأفكار رأسي الواحدة تلو الأخرى.

دخلنا قصر الحمراء عبر "باب الشريعة" المهيب المطل على المدينة، وكان أول ما لفت نظري نقش المفتاح الذي يرمز إلى النصر والفتح ونقش اليد الذي يرمز إلى العناية الإلهية. أتاح لنا إظهار ماثيو بطاقته لحارس الأمن تخطّي صف السياح الطويل.

بدأت الجولة من القصبة الواقعة في آخر التلة التي يقوم عليها القصر، وهي إحدى أقدم أجزاء القصر، حيث يعود أول تأريخ عن وجود قصبة غرناطة إلى القرن التاسع. تُشير أبراجه العالية وجُدُرُه إلى أنه قلعةٌ حصينة، بينما لا تزال أساسات الأبنية المتداخلة التي أُنشئت لأغراض عسكرية والتي تشبه قرية صغيرة مرئية للعيان.

"تم هدم كل جزء من القصر وتوسيعه العديد من المرات، ولكن يمكن القول إن هذا الجزء هو الوحيد الباقي من القرن الحادي عشر".

بدلًا من النظر إلى المدينة من هنا تفحصتُ التلة التي بُني عليها القصر. نعم، كان يشبه قصر توب كابي بباحاته المتداخلة والعديد من أقسامه، ولكن هذا كان مثل مدينة ضخمة بحدائقه المستقلة، والقرية الصغيرة خلفه، والقرية الأخرى العسكرية أمامه. مدينة ما تزال تبدو مهيبةً حتى الآن... من يدري كيف كانت عليه في ذلك الزمان.

"عندما أُسست الدولة الأموية في الأندلس أنشئ المكان كقلعة في البداية، وأُطلق عليها اسم القلعة الحمراء بسبب لونها الأحمر".

ليس صعبًا تخيّل ذلك، فقد بدأت الجُدُر تلتف بلون أحمر روحاني تحت شمس المساء بالفعل.

"رغم كون الإصلاحات الكبيرة في القصر تمت على يد محمد نصر في القرن الثالث عشر، إلا أن هذا المكان اكتسب أهميته عندما أعلنه يوسف الأول عاصمةً وانتقل إلى القصر عام 1333م. وبعد أن احتله الكاثوليك سنة 1492م اتخذته العائلة الملكية مقرًا لها، وأضافت إليه وفق أنماطها".

التفتنا بأنظارنا نحو المدينة؛ تبدو صغيرةً جدًّا بالنسبة إلى شخصٍ قادمٍ من إسطنبول. يمر نهر دارو تحت التلة التي يقع عليها القصر مباشرةً ثم تبدأ المدينة، حيث ترتفع أبنية بيضاء وصفراء اللون من الحواري الضيقة وتختلط مع الشوارع الإسفلتية الحديثة.

كان حي البيازين أقدم أحياء المدينة، والذي لم يصبه ضرر، يلتمع قبالتنا باللون الأبيض تحت شمس تموز الحادة.

"حكم الأمويون هذا المكان من عام 756م إلى عام 1031م دون انقطاع. ثم حلّت فترة الطوائف إلى عام 1090م، فقُسمت المدينة حينها إلى دويلات. وحكمها المرابطون ذوو الأصل الأمازيغي إلى عام 1147م. ثم حل محلهم الموحدون الذي ينتمون إلى أصول مشابهة حتى عام 1248م".

كانت هذه المعلومات والتواريخ الأساسية هي التي يدرِّسها الأستاذ ألتاي عن الأندلس، ومع ذلك لم أُرد أن أقاطع ماثيو، فهذا كان عالمه، لذا استمعتُ باحترام.

"حل صراعٌ في ما بينهم على الحكم، وخسروا قرطبة المدينة الرئيسية للأمويين سنة 1236م، وبعدها مباشرةً احتل الكاثوليك إشبيلية سنة 1248م".

آه على قرطبة وإشبيلية وكل مدن الأندلس العظيمة...

"استولى أبو عبد الله محمد الأول المعروف بابن الأحمر على غرناطة عام 1232م. في تلك الأثناء تزوجت إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة من فرناندو الثاني ملك أرغون، ما أسفر عن تكوين مملكة إسبانيا.

استمرت دولة بني نصر أو كما تعرف بمملكة غرناطة إلى أن احتلها الكاثوليك مرةً أخرى عام 1492م".

شققنا طريقنا من أكبر رموز هذا الاحتلال وسط كل الروعة المحيطة بنا نحو قصر النهضة الضخم الذي بناه تشارلز الخامس.

قلت بحزن: "سأطل من الباب ليس إلَّا".

كان الجزء الداخلي من هذا القصر المستطيل، الذي لا يتطابق مع الهندسة المعمارية العامة للقصر ويبدو كما لو أنه أتى من إيطاليا، مستديرًا ومكونًا من طابقين ويبدو مثل ميدان عام. صُعقت أمام آلاف الأعمدة التي أرهقت عيني ورميتُ نفسي خارجًا.

"أرني قليلًا من عمارة الأندلس يا ماثيو، فأنا لم آتِ إلى هنا من أجل عصر النهضة".

يشكل هذا القصر المسيحي داخل القصر جزءًا كبيرًا من تاريخ هذا المكان بالطبع، ولكن صفات الحمراء مختلفة. كنت لا أطيق صبرًا للعبور بين القاعات المتداخلة.

بدأت أستشعر قوة المملكة عندما وصلنا إلى المِشوَر، حيث أضيف إلى القاعة التي يلتقي فيها الملك مع مستشاريه سقف من الخشب المزخرف المزين بزخارف مشبكة، وتم تزيين الجزء العلوي من الحائط بأشغال من الجص والتذهيب والرسومات.

خرجنا من هناك إلى أحد أهم أقسام القصر؛ قصر قُمارش. على الرغم من أنه يسمى قصرًا، إلا أنه يبدو نسخة أكبر قليلًا من الأجنحة عندنا. كان برجًا يستضيف غرفة عرش السلطان، وحفلات الاستقبال

الرسمية، وحفلات استقبال الرُسل، وغرف السلطان الشخصية. كانت توجد في الفناء الذي أمامه، المحاط بجدران ذات أعمدة، بركةٌ طويلةٌ وضيقةٌ توفر بعض البرودة. أما أسفل برج قُمارش مباشرةً، فتم تزيين الجزء المستخدم كغرفة عرش السلطان بجص فائق الروعة؛ في كل جزء، كانت المقرنصات البيضاء، التي تشبه أقراص العسل الصغيرة، مزينة بسبع طبقات باتجاه القبة، تستحضر الجنة، بينما حُفرت آيات من القرآن داخل وحول الزخارف النباتية، وكان شعار السلالة "ولا غالبَ إلَّا الله" في كل مكان. لم تكن هناك نقطة يمكن للعين رؤيتها على الجدران والسقوف والأعمدة وحول الباب والنافذة إلا وكانت مزينة بحرفية لا تصدق، تجعل رأس الناظر تدور. كنت في حيرة من أمري أين أنظر!

هناك تباين تامٌ بين مشهد قصر الحمراء الذي يشبه قلعة بدون زخرفة عند النظر إليه من الخارج، وبين هذه الزخرفة التي تطالعنا عند دخولنا، وربما هذا ما يجعل المكان مميزًا.

بعد رؤية الحمامات التي تحتوي على أجزاء باردة وساخنة بنظام الحمامات الرومانية، ذهبنا إلى بهو السباع.

إلى جوار قصر قُمارش، كان هناك جناحٌ خلابٌ آخر يتكون من ساحات وقاعات متشابكة. بنى محمد الخامس في أواخر القرن الرابع عشر الجزء الأكثر روعة من قصر الحمراء، وكان جليًّا سبب اعتباره ذروة الفن الأندلسي.

في وسط الفناء تدفقت المياه من النافورة التي يحملها اثنا عشر أسدًا من الرخام على ظهورهم. وعلى الرغم من أن الأسد حيوان رمزي

تم اختياره لإظهار القوة، إلا أن ما لفت انتباهي حقًّا هو أن النظام تم بناؤه في ذلك الوقت بطريقة تتيح تدفّق المياه من أفواه التماثيل والدوران عبر النافورة المستديرة.

تم تقسيم الفناء إلى أربعة أقسام بواسطة مجارٍ مائية ترمز إلى أنهار الجنة الأربعة، وكانت الأعمدة الخارجية والجُدُر مزينة أيضًا بمقرنصات رائعة، ما أدى إلى اتحاد بين القاعات الداخلية والفناء.

أما الأكثر إثارة للاهتمام من بين هذه القاعات في رأيي فكانت قاعة بني سراج، حيث تشبه زخارف السقف، التي على شكل قرص عسل عملاق، نجمة مثمنة الأضلاع، ما يشير إلى الكون. وفي الوقت نفسه، تتشابك الظلال تحت ضوء الشمس المنعكس من الفناء.

"هل تعرفين قصة هذه القاعة؟ لقد تحدث عنه إيرفينغ في كتابه... حيث أعدم ملك غرناطة الأخير أبو عبد الله الثاني عشر (الزغابي) ستة عشر فردًا من بني سراج في هذه القاعة، ولهذا تُدعى أيضًا قاعة البواسل".

أخبرني مائيو نقلًا عن كتاب إيرفينغ أن سكان القصر كان بإمكانهم سماع صرير السلاسل قادمًا من هذا الفناء في الليل. اقشعر بدني، وخرجتُ.

بعد اجتياز قاعة الملوك، التي تشبه إلى حد بعيد هذه القاعة ولكنها شهدت تدخلًا مسيحيًا، وصلنا إلى قاعة الأختين. كنت أرغب دائمًا في رؤية هذا المكان، لأن الزخرفة كانت أكثر خصوصية وأكثر ثراءً بسبب إقامة السلطان محمد الخامس هنا مع أسرته.

كان يتألف من عدة غرف متشابكة تؤدي إلى نافورة في المنتصف، وكانت المياه المتدفقة من النافورة تمر عبر قنوات رفيعة على الأرض لتبريد الغرف، وهو تفصيلٌ غاية في الأناقة. ينتهي الخزف الملون عند مستوى العين، ثم تبدأ أعمال الجص. وبالإضافة إلى سُوَر القرآن، نُقشت القصيدة التي كتبها ابن زمرك بمناسبة ختان ابن السلطان محمد الخامس.

"ماثيو، لماذا تُدعى قاعة الأختين؟".

كان أحد أكثر الأسئلة المتداولة على ما يبدو، لذا ابتسم وأجاب: "اكتسبت اسمها بسبب وجود لوحتين حجريتين كبيرتين ومتطابقتين من الرخام على أرضيتها".

توقف قليلًا وأضاف: "ارفعي رأسك وانظري".

أُخذت أنفاسي.

"تُدعى السماء اللامتناهية. هناك ست عشرة نافذة صغيرة حول المقرنصات التي على شكل نجمة ثمانية، ما يعطي إحساسًا باللانهاية مع الضوء الطبيعي، فضوء النهار القادم من زوايا مختلفة على مدار اليوم، يجعل كل مقرنص يبدو مختلفًا، ويتغير باستمرار، وهذا ما يُشعر المرء بالحركة اللانهائية".

كدتُ أذرف الدموع أمام هذا العمل المتقن والفكر المُحكم وراءه، بينما قال وهو يسحبني إلى غرفة صغيرة مجاورة: "انتظري حتى تري هذه القاعة".

كانت نوافذها الكبيرة المحاطة بزخارف جصية من الأعلى وخزف ملون من الأسفل، تطل على حديقة بديعة مليئة بأشجار البرتقال.

"هذه هي الغرفة التي سمح الملك لزوجته المفضّلة بالبقاء فيها، واسمها منظرة دار عائشة. الكثير من الزوار يغادرون دون المرور بها للأسف، في حين أن هناك شعرًا مخطوطًا على جدرانها".

مشهدٌ خلّاب.

غادرنا المكان، ومررنا بممرات مختلفة وقاعات وأفنية خضراء ذات نوافير رخامية وأزهار عطرة، ثم وصلنا إلى حديقة ضخمة، حيث كانت النوافير تضخ الماء في الحوض الطويل الضيق في المنتصف.

عرفت على الفور أين نحن؛ إنها جنة العريف. كان الملوك يستخدمون هذا الجزء من القصر كمنزل صيفي، وقد رأيناه ونحن في طريقنا إلى هنا. كانت هناك أجنحة في الحديقة، مستقلة بعضها عن بعض، تم استخدامها لأغراض مختلفة في أوقات مختلفة.

إذا كان هذا القصر الذي نعرفه والذي تُرك لمصيره فترة طويلة وتغير عدة مرات يبدو خارقًا للعادة الآن، فمن يدري كيف كان من قبل!

استنشقت رائحة الزهور المتفتحة الملونة. بدأت الشمس تفقد تأثيرها، لكن هذا لم يقلّل من بهجة الطيور. ملأتني السكينة، وهزّني الحزن المختبئ تحت عظَمة القصر، فنسيت من أنا ومن أين أتيت.

كسر ماثيو جو السكينة قائلًا: "هناك مكان أخيرٌ أُريد أن أريكِ إياه".

اكتفيتُ بإيماءة من رأسي، لأنني كنتُ متعبة للغاية بسبب المشي لساعات وتفحُّص كل تفصيل ومحاولة عدم تفويت أي شيء.

مررنا بالقرب من الأقسام التي تحولت إلى كنيسة في طريقنا إلى القسم البعيد من القصر. ظننت في البداية أنه سيريني ذلك ولكن يبدو أنها لم تُثر اهتمامه أيضًا إذ لم يقترح عليَّ ذلك.

وعدت نفسي بالعودة إلى القصر بعد جلسة الندوة غدًا، واستكشاف كل جزء منه مرة أخرى. كانت هناك بالتأكيد أماكن فاتتني أو أغفلتها.

قال بلهجته الإسبانية الثقيلة: "برج الأميرات".

كان من الخارج برجًا مسطحًا مبنيًا بنفس الحجارة ذات اللون الأحمر.

"لا يأتي الزوار إلى هنا".

تفهمت عدم مجيء أحد إلى هنا في هذا الوقت نظرًا لأنه بعيد جدًّا، ولأن زيارة القصر في هذه الحرارة تتطلب بالفعل حالة جيدة.

"هيا إلى الداخل، سأريكِ شيئًا".

فوجئت مرةً أخرى بما رأيته في الداخل؛ كانت الزخارف الجصية الرائعة والبلاط الملون يملآن المكان في تباين مع الخارج. وحتى الأسقف الخشبية، التي أُضيفت في القرن التاسع عشر، لم تفسد جوه الغامض. كان يتألف من ثلاثة طوابق، وكل طابق يشع بضوء مختلف.

"هذا آخر برجٍ تمت إضافته إلى القصر، أضافه محمد السابع في أوائل القرن الخامس عشر. هل تذكرين كتاب إيرفينغ؟ بنى السلطان هذا البرج وأحضر إليه بناته الثلاث لإبعادهن عن المُتقدمين المستقبليين لهن، ولهذا توجد ثلاث غرف نوم".

كنت أنتظر منه أن يقول شيئًا بعد التجول في الغرف بالداخل، لكنه كان ينظر إليّ بغرابة. لم أعرف ما الذي يُفكر فيه، ولكن تعبيرات وجهه تغيرت بسرعة.

"نظرًا لأن هذه الأبراج مبنية فوق الأسوار فهناك أنفاق مخفية بالداخل. هل سمعتِ بنظام الأنفاق تحت قصر الحمراء؟".

شعرت بنبضات قلبي تتسارع. كيف لم أسمع؟ تم اكتشاف العديد من الأنفاق التي يصل بعضها إلى المدينة. هناك شبكة لا تُصدق تحت الأرض، ولكنها غير مفتوحة أمام الزوار كونها غير آمنة بسبب قدمها.

"يوجد نفقٌ هنا يُفضي إلى الباب الأمامي".

ذُعرت عندما فكرت في المسافة بيننا وبين باب الشريعة، كانت مسافةً طويلةً جدًّا لعبورها في مساحةٍ ضيقة ومظلمة. لا بدّ أنه عرف ما أفكر فيه لأنه ضحكَ.

"لا تقلقي، الأنفاق واسعةٌ جدًّا، وضوء النهار يصل إلى بعض الأماكن، أما الأماكن التي لا يصلها فيوجد معنا ضوء".

أشعل ضوء هاتفه المحمول وابتسم محاولًا إعطائي الأمان، فبدا كطفلٍ صغيرٍ يسعى وراء المغامرة. ولكنه أثّر فيَّ، وانتابني الفضول. كم مرةً في حياتي ستواتيني فرصة كهذه؟

اعتبرَ صمتي موافقةً، فصعدنا سلمًا ضيقًا في زاوية الغرفة التي في الأسفل إلى الطابق الثاني، ولكنه لم يتوقف وتابع نحو الطابق الثالث.

كان الصعود إلى الطابق العلوي، المغلق أمام الزوار عادة، تجربةً رائعة للغاية بحد ذاته.

تقدمنا نحو الطرف الآخر من الغرفة، ثم دفع النقوش الجصية على الحائط، فانفتح الباب السري نحو الداخل مع صوت نقرة.

كان العرق يسيل على ظهره.

"يمكن الدخول إلى الأنفاق من الطوابق العليا عبر سلمٍ صغير وليس من الطوابق الأرضية. تم التفكير في كل شيء من أجل الأمان والحماية".

هتفتُ قائلةً: "أُعجوبة معمارية".

التفتَ وخطا على الدرجة الأولى.

لستُ شجاعة مثله، لذا ناديته بخوف: "ماثيو".

لم يكن عليَّ فعل ذلك! كنتُ سأنسحب، ولكن فجأةً خطر الأستاذ ألتاي في بالي، لقد أرسلني إلى هنا واختاره ليكون مَن يصحبني في المكان. استمددت الشجاعة من هذه الفكرة، وأغلقت الباب خلفي.

الفصل الرابع

يوم الأربعاء 25 تموز/ يوليو 2018م

خبرٌ جيد، الأنفاق واسعة.

خبرٌ سيئ، الظلمة سائدة.

كان ضوءا هاتفيناهما فقط ما سمح لنا بالتقدم. بدا النفق بعد أن نزلنا إلى الأسفل أشبه بدرج مآذن الجوامع، وكان عريضًا بحيث يمكن لثلاثة أو أربعة أشخاص السير بعضهم بجانب بعض بسهولة، وكان السقف مرتفعًا بشكل كافٍ. وعلى الرغم من حقيقة أننا نمشي في الظلام وتحت الأرض إلا أن ذلك لم يعطِ الإحساس بالضيق.

ليس لديَّ والحمد لله خوفٌ من الأماكن المظلمة، ولكنني مثل الجميع أخاف من الظلام، وبعبارة أدق الخوف من الجهل الذي يخلقه الظلام، فالإنسان منذ نشأته يخاف من المجهول. ولذلك تركتُ ماثيو يتقدمني بخطوة.

قلتُ له: "لو فكرنا بعمر الأنفاق البالغ ألف عام فإنها تبدو بحالة جيدةٍ جدًّا".

ارتدَّ صدى صوتي واختفى في الظلام... رفعتُ الضوء ونظرت نحو السقف قائلةً: "انظر، ليس هناك تشققٌ واحد".

لم يتوقف، بل تابع المسير بخطوات صغيرة وقال: "تمت دراسة أجزاء من الأنفاق، وجرى ترميم بعض المسارات الرئيسية مرات عدة بسبب كثرة استخدامها".

كانت سقوف النفق وجُدُره مبنية من الحجر الأحمر المستخدم في الجُدُر الخارجية لقصر الحمراء، أما الأرضية فتُركت على حالها.

"ماثيو، برأيك لماذا لم يرصفوا الأرضية بالرخام؟".

يُشكل الرخام الأبيض المادة الأساسية في كل أنحاء القصر تقريبًا، هذا ما كنتُ أُفكر فيه منذ دخولي النفق.

عندما طرحت سؤالي بشكلٍ مسموع فكّر هو أيضًا لفترة، ثم قال:

" هدف هذه الأنفاق هو السرية والدفاع، ولكن الرخام سيجعل الطريق واضحًا، لأن الرخام الأبيض يعكس الضوء فيصبح المكان أكثر إضاءة، ويمكن حينها العثور على الطريق بشكل أسرع".

فكّر قليلًا ثم أكمل: "ولكن عندما تكون ترابية، يكون التلاعب بها أسهل بكثير من خلال الصخور أو شيء مثل الماء".

تفسيرٌ منطقي.

تطرَّقتُ إلى الجانب المادي قائلةً: "الرخام مادة باهظة الثمن، ومؤشر قوة حقيقي، فلماذا تُبدد في الأنفاق؟ سيلزم رخامٌ أسفل قصر الحمراء أكثر من المستخدم فيه على الأرجح".

نظرًا لأنه لم يكن متفوقًا عليَّ كثيرًا من حيث الخبرة، فقد استطعت أن أقوم بمثل هذا العصف الذهني بصوتٍ عالٍ.

وصلنا إلى مفترق طرقٍ ثلاثي، فتوقف ماثيو قليلًا.

تساءلتُ قائلةً: "أخبرتني أنك تعرفُ الطريق؟".

"أعرفه بالطبع، لقد استخدمت هذه الأنفاق مراتٍ ومرات".

كان نبرته معاتبة، فحزمت أمري بألّا أضيف شيئًا آخر وأن أثق به. اختار الطريق اليمنى، وبعد قليلٍ من المشي تباطأت خطواته، وقال: "من المفترض أن يكون هناك مفترقُ طرق على اليمين بعد دخول النفق مباشرةً. كنا سنسلك الطريق الذي في المنتصف ولكن هل كان بعيدًا هكذا؟".

كان يسأل نفسه محاولًا التذكر أكثر مما يسألني.

بدأ الجو يصبح أكثرَ برودةً في الداخل.

"ها هو! سنذهب في المفرق الثاني إلى اليسار بعد أن نلتف من هنا. ثم سنمشي في طريق مستقيم نحو الأسفل حتى نصل الباب السفلي".

أظن أن جميع الطرق والمفارق متشابهةٌ ومن المستحيل عليه التمييز بينها، إذ لم يوضع على أي منها رمزٌ أو كتابةٌ أو ما يشير إلى مرور إنسان فيها. ولكن وجب عليَّ التصديق بأنه يملك خبرةً، لأنه مع كل مفترقٍ ومع كل خيارٍ يقوم به يصبح المكان أشبه بمتاهة.

أخذت الحرارة بالانخفاض، فلففت ذراعي حول نفسي.

"هيا الآن، ألم نصل بعد؟".

"يجب أن يكون المخرج إلى سلم باب الشريعة هنا في مكان ما".

"ألم نمشِ أكثر من اللازم برأيك؟ لقد مرت نصف ساعة على ما أعتقد... ليس من المفترض أن يستغرق هذه المدة".

بقاؤه صامتًا أخافني أكثر. لا أدري إن كان الدم قد تجمّد في عروقي بسبب البرد أم بسبب اقتناعه بأننا أصبحنا تائهَين.

"لنتابع قليلًا".

تبعتُ ماثيو وهو يعبر من نفق إلى نفق لمدة عشر دقائق تقريبًا.

"تقبَّل أننا ضائعان، ولنحاول الخروج من هنا".

"لا أعتقد أنه بإمكاننا إيجاد الطريق الذي أتينا منه".

آه! يا للروعة.

أطفأت ضوء الهاتف، وقلت: "سأتفقّد الخريطة".

لم تكن هناك شبكة بالطبع، ما يعني أننا موجودان عميقًا تحت الأرض. كان خوفي يزداد مع كل ثانيةٍ تمر، فقلتُ مشيرةً إلى النفق خلفي: "حسنًا، لنبحث عن حل. أظن أننا أتينا من هنا".

بدت الممرات كلها متماثلةً، فكنا نعود أدراجنا، ندخل ونخرج، نذهب يمنةً ويسرةً، كأننا نلعب الغُمّيضة في الظلام. لقد وقعنا في فخ الشبكة المعقّدة التي أقامها الأندلسيون للحماية منذ سنوات خلت.

"لنتصل بأحدٍ ما. لا أدري، لنصرخ طالبين النجدة. هل يسمع أحدٌ نداءنا؟".

كان التحدث باللغة الإنكليزية يصبح أصعبَ وأصعب، ومع استمرار ذعري أصبح استحضار الكلمات صعبًا. كما توتّر هو أيضًا مثلي، وكانت تُفلت منه أحيانًا كلمات باللغة الإسبانية، إلا أنه كان يتوقف لحظات لتذكرها باللغة الإنكليزية عندما يلاحظ عدم فهمي.

لم أعد أفهم ما يقوله الآن! يتحدث عن الأنفاق والطرق... كان لا يزال يحاول تخمين الطريق الصحيح.

"لنبحث عن حل. هل هناك من يعرف بوجودنا هنا؟ هل سيأتون للبحث عنا؟".

لم تكن إجابته دون تردد على هذه الأسئلة مبشرة بالخير: "لا أعتقد ذلك إطلاقًا".

قلت بصوتٍ أعلى قليلًا: "أليس هناك من سيفتقد وجودنا؟".

"انتهت الندوة وانتهى وقت الدوام، لذا لن يلاحظوا قبل الغد".

أردت الصراخ بكل قوة... وهتفت: "لا أريد قضاء الليلة هنا. لا يمكنني انتظار المساعدة، سنجد المخرج بطريقةٍ ما".

"لقد خدعَتنا الأنفاق، فهذا ما صُمّمت من أجله أصلًا، ولهذا لا تُفتح أمام الزوار. الشيء نفسه في...".

أتممتُ جملته: "أهرامات مصر".

تم تصميم المتاهات والجُدُر الشبيهة بالبوابات داخل الأهرامات لحماية المقابر الملكية والكنوز المجاورة لها من لصوص القبور، وبسبب الظلام الدامس في الداخل فإن جزءًا صغيرًا منها فقط مفتوح أمام الزوار. والحقيقة أنني لم أزرها ولكن قرأت الكثير عنها، أما بعد تجربتي مع النفق فعلى الأغلب لن أزورها أبدًا.

أعربت مرة أخرى عن عتبي: "أنا أتفهم الوضع الحرج لقصر الحمراء والمسلمين في شبه الجزيرة الإسبانية وأنهم مهددون من كل مكان، ولكن هل كانت هناك بالفعل أي حاجة لكل هذا الاحتياط؟".

كان قصر الحمراء مختلفًا تمامًا عن أي قصر رأيته في حياتي؛ كانت جُدُره الطويلة أشبه بحصن، وكانت تحرسه أبراج من عدة طوابق. كانت

هناك قريةٌ للمدنيين داخله، ومنطقة عسكرية عند ما يمكن اعتباره الحلقة الأضعف فيه. وبالتالي، حتى لو سقطت المدينة، كان من الصعب جدًّا أن يسقط قصر الحمراء. في واقع الأمر، سلَّم الملك الأخير المدينة للملكة إيزابيلا دون قتال عام 1492م.

في لحظات الذعر، كان عقلي يغرقني في المعلومات التاريخية كدرع.

سألته: "لا بدّ أنهم حدّدوا نظامًا معيّنًا، أو طريقة سرية. وإلا لضاعوا هنا. لا يمكن أن يكونوا قد استخدموا خريطةً فقط، أليس كذلك؟"... ربما أثرٌ على الحائط؟

عارضني فورًا: "لو كان الأمر كذلك لوجده الباحثون قطعًا".

قلتُ: "أنتَ من أخبرني أن الباحثين لم يدخلوا جميع الأنفاق".

"نعم ولكن ذلك ينطبق على الأنفاق التي لا يمكن الدخول إليها بسبب انجراف التربة أو انهيار السقف".

هززتُ رأسي يمينًا وشمالًا: "المكان معقّدٌ للغاية هنا، لا أعتقد أنهم سيرون كل موضع، خاصة مع هذا البرد".

كادت أسناني تصطك! إذا كانت الحرارة منخفضة هكذا في شهر تموز فلا يمكنني تخيل الأمر في الشتاء. فكرت أن التراب هو مصدر البرودة.

قال: "يوجد بابٌ هنا".

كان الباب في الأمام لذا رآه أولًا.

قلت بحماسٍ: "من المؤكد أنه يفضي إلى مكان ما".

ربما ذهبنا إلى برجٍ آخر، فقد كنا نسير لمدة ساعةٍ تقريبًا وننجرف من مكان إلى مكان. لا ريب أنه يمكننا الخروج إلى السطح، لأننا وصلنا إلى بابٍ يُفضي إلى مكانٍ ما في القصر.

كان البرد يزداد مع اقترابنا من الباب، وكأن الداخل عبارة عن ثلاجة.

قلت بتوقٍ كبير: "كيف يمكن أن يكون الجو باردًا هكذا هنا؟ هيا افتح الباب لنخرج إلى الشمس أخيرًا!".

تقدّم نحو الباب وهو يرتجف من البرد، وعندما وجّهنا الضوء إليه لاحظت أن الباب بكامله من الرخام الأبيض. قلت لنفسي إننا على الأرجح سنخرج عند القسم الخاص بالعائلة المالكة من القصر. ولكن البرد الشديد الذي كنتُ أشعرُ به، ورغبتي بالخروج في أسرع وقت، لم يتركا لدي الطاقة اللازمة للتفكير ولا للدخول معه في نقاش حول الأمر، ولذلك حافظت على صمتي.

كان للباب ثلاثة مزاليق رائعة منحوتة من الحديد ومثبتة بالرخام. تراجع ماثيو عندما لم يستطع فتحه من المحاولة الأولى، وقال بحماسٍ: "هذا الباب مغلقٌ من الداخل لمئات السنين! ربما عثرنا على بابٍ سري. لنرى أين سيخرجنا".

انكب على الباب بقوة، فتحرك القفل الأسفل قليلًا. وبعد بضع دقائق من المحاولة والصراع الذي جعله يلهث، تم فتح المزاليج الثلاثة الكبيرة، وسمعنا صوت نقرة ميكانيكية. دفعنا الباب بكل قوتنا، فانفتح محتكًا مع الأرض ومحدثًا جلبةً كبيرةً.

لفح وجهي هواءٌ متجمد... لم يكن هناك شمس، لم يكن هناك بشر، لم يكن هناك قصر.

غرفةٌ رخاميةٌ بيضاء يقبع في منتصفها شيء بني.

تبادلتُ النظرات مع ماثيو، وتقدمنا خطوةً نحو الداخل. لم تعد ساقاي تحتملان البرد، فأخذت قرارًا بالعودة. لا يمكن لأي جسم بشري تحمل هذا البرد!

أتى صوت "فسسس" فجأةً من الداخل، وانبعث في نفس اللحظة دخان أبيض من زاوية السقف.

أردتُ الصراخ، ولكن بما أني لم أعرف ماهية الغاز فقد رميت نفسي خارجًا حابسةً أنفاسي، وابتعدت بخطوات سريعة، بينما تأرجح ضوء هاتفي أمامي في الظلام.

أخذت أصرخ حين تأكدت أن الغاز لا يتبعني: "ماثيو، ماثيو!".

في الواقع، ما أردت فعله هو الاستفهام عما إذا كان ورائي، لكن في تلك اللحظة لم تخطر ببالي الكلمات المناسبة.

ثم شعرتُ بيدٍ على ذراعي، وسمعتُه يقول: "توقفي! توقفي!".

كانت أنفاسنا يسابق بعضها بعضًا! توقفت، بينما أشار إلى الوراء، حيث اختفى الغاز، ومع ذلك لم تكن لديّ نيّة في العودة إلى هناك.

قال: "الغرفة يصلها ضوء طبيعي".

حينها لاحظتُ ذلك؛ هناك بالفعل أشعة ضوء طبيعي قادمة من السقف، من مكان لم نعرفه، ملأت الغرفة وانعكست على الرخام الأبيض، لتنير المكان. لم تعد الغرفة مخيفةً كما كانت.

"هل ننظر؟ يمكن أن نجد مخرجًا".

كنتُ خائفةً، ولكن كان بإمكاني رؤية كم اقتربنا، كما أن الحرارة أصبحت ألطف قليلًا.

عُدنا إلى الغرفة، ودخلنا حذرَيْن نتقصّى إن كانت هناك رائحة مختلفةٌ خلَّفها الغاز؛ لم يكن هناك شيءٌ مزعج. فتحنا الباب أكثر قليلًا في طريقنا إلى الداخل.

توقف ماثيو بغتةً، فتوقفتُ أيضًا. حرك الباب دون أن يبعد ناظريه عن السقف، وحين أغلقه تمامًا أعتم المكان. ثم فتحه عن آخره، فأضيئت الغرفة مرة أخرى.

"أعتقدُ أنهم بنوا نظامًا زجاجيًا معينًا؛ كانت الغرفة مغلقةً لمئات السنين، وقد فعَّل فتحها نظامًا ما".

فهمت الآن: "أطلق النظام الضوء والغاز".

أومأ برأسه.

"ما عمل ذلك الغاز إذًا؟".

لم يكن هناك شيءٌ غريبٌ حولنا، باستثناء الشيء البني الذي يبلغ طوله مترًا واحدًا على المنضدة الرخامية في منتصف الغرفة ذات الزوايا السبع.

تقدمنا خطوةً أخرى، وحينها صار بإمكاننا رؤية ماهيته. لاحظنا أن هناك طبقة شفافة مثل الزجاج ولكنها سميكة كانت تغطيه، أما الآن فقد ذابت وتناثرت على الأرض في خيوط لزجة. هل كان الغاز هو ما أذابها؟

عندما خطونا خطوتنا الأخيرة، رأينا سبب إنشاء العديد من الآليات؛ كانت هذه مومياءً.

الفصل الخامس

يوم الأربعاء 25 تموز/ يوليو 2018م

مومياءُ طفلٍ صغير.

لم تكن واحدة من تلك المومياءات المصرية التي تبدو وكأنها ملفوفة بورق الحمام كما في الأفلام. كان فتىً داكن البشرة ذا ملامح أنيقة، يرتدي ملابس عربية تقليدية طويلة.

لقد رأيت الكثير من المومياءات في المتاحف، ولكن على العكس منها لم يَكن جسم الطفل مصابًا بأي ضرر، بل بدا وكأنه غطّ في النوم منذ قليلٍ.

هل كنتُ في حلمٍ؟

"لا أصدق، هذا اكتشاف عظيم! مومياء في الأندلس، وبحالة جيدة أيضًا!".

كان قلبي ينبضُ بسرعةٍ شديدة لدرجة أحسست معها أنني سأصاب بسكتة قلبية بعد برهةٍ.

أكمل ماثيو كلامه: "ستُعاد كتابة كتب التاريخ... لم أسمع عن التحنيط في حضارة الأندلس".

أجبتُه: "السلاجقة حضارةٌ إسلامية أيضًا، وكانوا يحنّطون جثامين الملوك".

تُرى هل كنا تحت بهو السباع؟ قرأت في مكان ما أنه كانت هناك أضرحة ملوك في بهو السباع، لكن المسيحيين دمروها، أما مثل هذه المعلومات حول عادات الدفن فلم أقرأ عنها. هل يمكن أن نكون قد اكتشفنا غرفة دفنٍ عن طريق الخطأ؟ في تلك الحالة، ما هي سحابة الغاز تلك؟

لا بدّ أن ماثيو كان مثلي يكافح الأفكار التي تتسارع في ذهنه، لأنه ظل صامتًا وهو يحدّق إلى المومياء.

تقدمنا خطوةً أخرى يدفعنا الفضول. علمنا أننا سنخرج عاجلًا أم آجلًا ونحضر الأكاديميين إلى هنا، لذلك علينا أن نعيش هذه اللحظة. لأنهم لن يدعونا حينها قرب المومياء، والتي ربما ستوضع في المخبر لسنوات. ولكن الآن... يمكننا لمسها.

لم أعد أفكر في البرد الذي كان يتسرب عبر القميص الصيفي تحت بدلتي أو بالخدر في أصابع قدمي داخل الصندل من شدة الإثارة. كأن البرد أخذ في الانحسار، أو أنني على الأغلب كنت أتخدّر، ما أمدّني بالشجاعة.

وقعت عيني في تلك اللحظة على الورقة التي في يد المومياء، فمرت مئات الاحتمالات في عقلي. من هي، ما هي؟ ربما خريطة، وربما رسالةٌ تعرفنا بتقليدٍ مختلف تمامًا، ربما شعر... هناك الكثير مما يمكن أن تعنيه، وربما تفتح أبوابًا جديدة.

مددنا أيدينا في نفس الوقت.

ولكن حين رأيت يد الطفل تتحرك تراجعت حتى التصق ظهري بالحائط وأنا أصرخ. لا بدّ أن ماثيو قد رأى ذلك أيضًا حتى فعل المثل والتصق بالحائط المقابل.

تحركتُ حقًّا، وكان أول ما خطر في بالي هو قيام أحدهم بمقلبٍ لنا، واتجه تفكيري في البداية إلى الأستاذ ألتاي. ولكن شخصًا لا يضحك إلا بصعوبة من المستحيل أن يشارك في شيء كهذا. ثم فكرت أنها قد تكون تسليةً لماثيو، فقد حاول في النهاية أن يقلل من قدري في الندوة ثم دفع بالأستاذ ألتاي إلى الواجهة. ولكن عندما نظرت إلى وجهه الأبيض رأيت أن ما يشعر به هو خوفٌ محض.

صدر صوت تنفس قوي.

لم نستطع الحركة؛ توقف الدم في عروقي عن الدوران. بل توقف كل شيء.

كان الطفل يتنفس. ثم أخذ كل شيء يصبح ذا معنى لنا؛ إذ جمع عقلي الأجزاء وأخذ شريط حياتي يمر أمام عيني، فأخذت كل قطعةٍ أخذت في المجموعة.

قلت بهمس: "لم يكن ميتًا".

أكمل ماثيو جملتي: "بل هو متجمّد".

اقتربنا من المومياء من جديدٍ، وهذه المرة بثقةٍ أكبر.

قال ماثيو: "هذا اكتشاف عظيم!".

اتسعت عيناه الواسعتان أصلًا عن آخرهما، وأصبحت حدقتا عينيه بضعف حجمهما تقريبًا، وكنت مدهوشة بمقداره على الأقل.

كان الطفل يتنفس، وأخذت وجنتاه بالاحمرار. تأكدنا الآن بالفعل أنه كان نائمًا.

أضاف ماثيو: "هذه معجزة".

تمكّن الطب الحديث مؤخرًا فقط من تجميد الأعضاء والهرمونات والحيوانات. ومع ذلك، تم الوصول إلى هذه التكنولوجيا منذ مئات السنين في الأندلس. عند فتح الباب تم تفعيل الميكانيكية، وتحللت المادة الغامضة التي تغطي المومياء بفعل الغاز، فخرج الطفل مثل فراشةٍ من شرنقته. أمرٌ لا يُصدق!

قلتُ بإعجاب: "هذا سر الحمراء".

أخذت أستوعب الأمر أكثر كلما فكرت، وعندما رأيت ماثيو يفرك جبهته تنبهت إلى أنني قلتها باللغة التركية فترجمتها له.

من المعروف أن القرن الثالث عشر الميلادي، على وجه الخصوص، كان ذروة في مجال العلوم الإسلامية، وأن العديد من التقنيات والعلوم تقدمت خلاله بشكل لا يُصدّق، حتى قيلَ بأن الغرب تمكن من تفكيك الذرَّة بفضل الكتب التي نجت في الأندلس. لأن أغلب الكتب حُرقت بعد الاحتلال وفُقد القسم الأكبر من العلوم وضاع في التاريخ. ولكن الآن... هناك شاهد حيٌّ أمامنا.

تساءل ماثيو: "كيف يُعقل هذا؟".

لم يكن استلقاء طفل بلحمه ودمه أمامنا بعد أن جُمِّد منذ مئات السنين، وكل هذا التقدم في العلوم والطب، أمرًا في حدود المعقول. ولكن عند النظر إلى الأساطير تختلف المسألة في الواقع.

سألته: "هل تعرف حكاية أتلانتيس؟".

انتشرت الكثير من الأقاويل عن استخدام الكهرباء والسيارات الطائرة في القارة الضائعة قبل غرقها تحت الماء، والشيء ذاته ينطبق على مصر

القديمة، بل إن هناك من يعتقد أنهم ذهبوا إلى الفضاء أيضًا.

قلت ذاهلةً: "تاريخٌ ضخم وتكنولوجيا عظيمة مخبأةٌ تحت قصر الحمراء كل هذا الوقت".

فجأة اتخذ كل شيء رأيته اليوم معنى مختلفًا تمامًا؛ تلك الأنفاق على شكل متاهة، وحقيقة أنه حتى الهندسة المعمارية للقصر نفسه تتكون من غرف متشابكة مثل متاهة، والعناصر المضلِّلة مثل الأبواب والغرف المخبأة وراء زخارف غاية في التفصيل بطريقة تشتّت الانتباه، والقلعة المبنية على منحدرات شديدة الميل يصعب الوصول إليها، والقائمة في الجزء العلوي من الوادي محاطة بالأنهار. بالإضافة إلى تسليم المدن الواحدة تلو الأخرى باستثناء مدينة غرناطة التي يقع قصر الحمراء داخلها، بما في ذلك تسليم عاصمةٍ مهمة كقرطبة، مع صمود هذا المكان حتى النهاية...

كان هذا الاختيار من أجل حماية العلوم والتكنولوجيا وحفظها للأجيال القادمة، وربما لهذا السبب سلم أبو عبد الله المدينة دون قتال، إذ لم يرد أن يصبها ضرر. بالطبع، كانت هناك عوامل أخرى في هذا، مثل نقص المساعدة العسكرية المتوقعة من المغرب وبالتالي محاولة ضمان عدم إراقة الدماء في حرب ستضيع على أي حال، ولكن التفكير من هذا المنظور...

وماذا عن عدم مساس المسيحيين بقصر الحمراء؟ ومحاولتهم الحفاظ على الحمراء رغم تدميرهم كل شيء؟ هل لأنهم أرادوا كشف أسرارها ولكن لم يتمكنوا من ذلك؟ ظل ما قاله الأستاذ ألتاي عن غموض التاريخ يتكرر في ذهني. هل هذا ما عناه بقوله "لا نعرف شيئًا؟".

سألتُ ماثيو: "ماذا كُتب على الورقة؟".

لا بدّ أن جميع الأجوبة على أسئلتي موجودة في الورقة، التي يمكن أن تخبرنا عن هذه التكنولوجيا العظيمة، وتوصلها إلينا نحن الأجيال القادمة.

تحركت عينا الصبي.

"إنه يستيقظ!".

في تلك الأثناء، اندفعت إلى ذهني جميع أفلام الرعب التي شاهدتها حتى الآن، ومعظمها تحوي مومياءات ومصاصي دماء. الأسوأ من ذلك كله، أن مشاهد الوحشية تكررت أمام عينيّ.

كانت العينان البنيتان الكبيرتان تحدّقان إلينا، فبدا أجمل صبيٍّ أراه في حياتي.

أمسك الورقة بإحكام بإحدى يديه، بينما فردها بالأخرى. كانت لحظة رائعة لدرجة أنني لم أكن متأكدةً مما إذا كنت أعيشها حقًّا، حيث فقدت كل التفسيرات العلمية منطقها.

تفحصَنا الصبي بحذر، وتغير شيء ما في تعابير وجهه؛ كان خائفًا! توقف صوت عقلي تمامًا في تلك اللحظة، وشعرت بقلبي يؤلمني. ولكنني فعلت الشيء الممكن؛ ابتسمت.

أدهشه ذلك، وبدا حائرًا بين البكاء وعدم البكاء. ثم التفت ناحية ماثيو الواقف على الطرف الآخر منه، فحاولت أن أشير إليه بحاجبي من خلف الصبي أن عليه الابتسام. وقد فعل ذلك وزاد عليه فبدأ يتحدث بالإسبانية بلباقة. ولكن الخوف وعدم الفهم كانا واضحين على وجه الصبي فأشرت إلى ماثيو أن يصمت.

قلت مبتسمةً للطفل حين التفت إليّ: "مرحبًا".

أنارت وجهَه ابتسامة عريضة، فقلت لنفسي إنه رغم الظروف الغريبة الراهنة فهو طفل جميل جدًّا بحق، وخاصة مع هاتين الوجنتَين الحمراوَين الكبيرتَين.

أجاب قائلًا: "مرحبًا".

لا بد أن الطفل يعرف اللغة العربية. ألقيتُ نظرةً على ماثيو، ثم نظرت إلى الصبي من جديد. هل كان على درايةٍ بأنه جُمِّد لسبعمئة عام يا ترى؟ لعلهم اختاروا عمدًا طفلًا صغيرًا.

قلت باللغة العربية متحريةً الدقة: "اسمي مانوليا. ما هو اسمك؟".

"يوسف".

أدركت أنني نفسي بدأت في الاسترخاء أكثر فأكثر أثناء محاولتي تهدئة الطفل، قدر ما يسمح به الموقف.

سألته: "كم عمرك؟".

رفع ثلاثة أصابع... كان قلبي يعتصر عليه، والشعور بالشفقة يتزايد بداخلي مع كل دقيقة تمر. ما الذي دفعهم لفعل ذلك به؟

قلت دون أن أتمكن من تصريف الكلمات بشكلٍ صحيح: "كيف، المجيء، هنا؟"... اللغة العربية صعبةٌ جدًّا!

لم يعرف يوسف في البداية بمَ يجيب على كلامي الغريب، ثم قال فقط: "النوم".

هل استخدم الفعل الماضي يا ترى؟ استسلمت، ونظرتُ إلى ماثيو. كان قد ترك الأمر لي كيلا يخيف الطفل، ولكنه بدأ الآن التحدث بهدوء: "اسمي ماثيو".

"كاثوليك؟".

يا إلهي! إحدى أولى الكلمات التي نطقها طفلٌ عمره ثلاثة أعوام... يبدو أن عقله سليمٌ تمامًا. كان أكثر حدثٍ جللٍ تعرض له منذ سبعمائة عام خلت هو الخطر الكاثوليكي على المسلمين.

تعامل ماثيو مع الموقف بذكاء، وهز رأسه نافيًا. من الواضح أن نشأة الطفل وفق الطريقة المعتادة قبل سبعمائة عام جعلته يخاف من الأجانب ويراهم كأعداء على الأغلب. لا داعٍ لأي جوٍ درامي الآن.

سأله ماثيو بأدب: "هل الورقة التي في يدك لنا؟".

كانت عبارته باللغة العربية جيدةً جدًّا، بل أفضل من لغته الإنكليزية. أدهشني ذلك، كما أدركت أيضًا أنني فهمت الكثير مما قاله، الأمر الذي جعلني سعيدةً. كان ذلك مهمًا للغاية الآن، فلم أكن أعتقد أن ماثيو سيترجم لي.

قطب الطفل حاجبيه بادئ الأمر، ثم ناول ماثيو الورقة وهو ينظر إليها قائلًا: "ولا غالب إلا الله".

فاجأني سماع تلك المقولة منه، ولكن قبل أن يسعني التفكير بها فتح ماثيو الرسالة، فازداد فضولي أكثر، وذهبت ناحية ماثيو على مهلٍ محاولةً ألا آتي بأي حركة مفاجئة كيلا أفزع يوسف. كانت بيده رسالةٌ مكتوبةٌ على قطعة من جلد حيوان، وكانت صغيرةً جدًّا، بحجم يد طفلٍ صغير. لم أفهم ما كُتب لأنه باللغة العربية وبخط اليد.. هذا يعني معلوماتٍ أقل لنا.

استغرق ماثيو بعض الوقت ليفهمها ولكن عيناه أخذتا بالاتساع مع كل ثانيةٍ تمر. تابعت ويوسف ماثيو لفترةٍ ليست بقصيرة.

رفع ماثيو رأسه ونظر إليّ أولًا، ثم نظر إلى يوسف واستجمع شتات نفسه، وقال: "سنلعبُ أنا ومانوليا لعبةً الآن؛ سنتحدث بالألغاز".

بينما هزّ يوسف رأسه بحماسٍ تمنيت لو أستطيع التحدث باللغة العربية مثل ماثيو يومًا ما.

التفت ماثيو إليّ وأكمل بالإنكليزية: "إن هذا الطفل حسب ما فهمتُ هو الأمير يوسف بن اسماعيل الثاني. تذكر الرسالة أنهم عانوا ليواروه، وعن رغبتهم في أن يظل هكذا لسنوات طويلة".

كيف وقعنا في هذه المكيدة الممزوجة بالعلم؟!

"انتظر لحظة. أنا أعرف ملوك الأندلس جيدًا، وأذكرهم تمامًا، فقد درَّسنا الأستاذ ألتاي عنهم جميعًا. ليس هناك ولدٌ لإسماعيل الثاني!".

نظر إلى يوسف بابتسامةٍ مشجعة ثم أجاب: "هذا ما أقوله أيضًا".

كنت في غاية الثقة من كلامي؛ فعندما كان أبو عبد الله محمد الخامس على العرش، استولى أبو الوليد إسماعيل الثاني بمكائد القصر على الحكم، وأرسله إلى المنفى. ولكنه بقيَ عامًا واحدًا في السلطة، وبعده تولى الحكم أبو عبد الله محمد السادس، ثم عاد أبو عبد الله محمد الخامس إلى عرشه بعد عودته من المنفى واستمر حكمه 30 عامًا، وقد أمر ببناء العديد من الأشياء في الحمراء خلال تلك الفترة.

السؤال الأول الذي تبادر إلى ذهني هو: هل عرف إسماعيل الثاني بإخفاء الأمير الذي قد يشكل تهديدًا له؟ لقد قُتل إسماعيل الثاني وأخوه الكبير في زنزانة، فلماذا قبل الملك الجديد بحفظ الأمير هنا؟

لقد أخفوه.

"تتحدث الرسالة عن إسطرلاب؛ لقد خبأوه في مكانٍ ما ولكن لم يعلنوا عنه"، توقف قليلًا وأضاف: "عندما نجد الإسطرلاب يريدون منا أن نعيد هذه الأمانة المعهود بها، أي هذا الطفل، إلى المستقبل".

لم يقبل عقلي ما سمعه الآن، وأصبحت ضائعةً ما بين الضحك بصوتٍ عالٍ والبكاء بحرقة، لأن الشيء المطلوب منا مستحيل.

قلت متأملةً جوابًا أكثر تعقلًا: "أتقصد السفر عبر الزمن؟".

للأسف، أومأ برأسه موافقًا.

"هذا مستحيل. هل عرفوا السفر عبر الزمن في القرن الثالث عشر؟"، كان هذا سؤالًا طرحته على نفسي بصوتٍ عالٍ.

قال مشيرًا إلى ضيفنا الصغير برأسه: "هذا أيضًا كان مستحيلًا، ولكن يبدو أنه لا حدود لما بإمكانهم فعله".

ما هو الموت والحياة إذن؟ متى نموت ومتى نحيا؟ هل هناك أناسٌ آخرون جُمّدوا أيضًا في مناطق مختلفة؟ ماذا سيفعلون عند عودتهم إلى الحياة بعد قرون؟

تأفف يوسف قليلًا فالتفتنا إليه؛ كان يحاول لفت انتباهنا، فمن الواضح أنه شعر بالضجر.

قال لماثيو: "لنلعب لعبة".

تبادلنا النظرات... ماذا كنتم ستلعبون مع طفل بعمر الثالثة كان نائمًا منذ سبعمائة عامٍ؟

الفصل السادس

مساء الأربعاء 25 تموز/ يوليو 2018م

أخرجَنا يوسف الصغير، الذي أمسك يدي بإحدى يديه وأمسك ماثيو باليد الأخرى، من المتاهة بكلِّ سهولةٍ ويسر، وقد استغرقنا بعض الوقت لمعرفة كيف فعلها. كانت عيناه السوداوان الواسعتان تتفحصان الحائط، ثم يسحبنا بعد أن يميزه. وعندما سأله ماثيو عما ينظر إليه أخبرنا أن هذه أرقامٌ عربية محفورة أسفل الجدار في بداية كل ممر، وكانت مكتوبة بخطٍ صغير جدًّا لدرجة أنها لم تكن تتميز عن كونها حُفرًا صغيرة، وباتت بمرور الوقت أشبه بتآكل الرخام والحجارة.

استغرقت عملية خروجنا وقتًا قصيرًا جدًّا، حيث غادرنا غرفة المومياء الرخامية ودخلنا الممر الذي إلى اليمين مباشرةً، ثم انعطفنا يمينًا أيضًا مارين ببابين، كأننا نرسم دائرة خارج غرفة المومياء. وفي النهاية دخلنا الممر الذي كتب على أرضيته الرقم سبعة، وخرجنا نحو الأدراج.

توقف يوسف عندما وصلنا إلى باب حديدي بدا من المؤكد أنه ثقيل، وأشار إليه، فتقدمهُ ماثيو ودفع الباب قليلًا، ولكنه لم يتزحزح. من الواضح أنه بابٌ لم يستخدم لسنواتٍ طويلة! حين نظر إليَّ، تركت

يوسف ورائي وذهبت للمساعدة، فتمكنا بفعل قوتينا من فتح الباب قليلًا.

توقف بغتةً عندما أوشك الباب على أن يُفتح بالكامل، فتوقفت بخوفٍ وكأنني أنتظر حدوث شيء ما، وسألتُ على الفور: "ماذا حدث؟".

"لا نعلمُ إلى أين يُفضي الباب، ربما نخرج بين الناس فورًا".

أغمضتُ عينيَّ وأرجعتُ رأسي للوراء محاولةً البقاء هادئةً. ثم مططت رقبتي لبضع لحظات، وهو ما أفعلُه عندما أتوتّر أو ينفد صبري، علَّ تحريك رقبتي وكتفي قليلًا يوصل الدَّم إلى دماغي، آملةً أن يريحني ذلكَ قليلًا ويجعلني أُفكر بمنطقية.

"ألم نعش رعب الضياع بما فيه الكفاية اليوم برأيك؟ نستحق الآن أن نخرج إلى ضوء النهار".

كانت النقطة التي أردت أن يفهمها بشكل خاص هي أن هذه المتاهات أصبحت الآن في نظري مأزقًا مخيفًا أكثر من كونها مثيرةً للفضول. كنت أحاول عدم إظهار توتّري أمام يوسف، فبدا أنه أحاط بالموقف فعلًا.

نظر يوسف مفتونًا عندما أنار ماثيو ضوء هاتفه أمامنا، بينما عاهدتُ نفسي أن أبقيه بعيدةً عن ثلاث؛ الهواتف والتلفاز والأجهزة اللوحية.

نظرت إلى ساعة يدي تحت الضوء القادم من الباب الموارب وقلت: "لا أظن أن هناكَ أحدًا في هذه الساعة".

أصبح الوقتُ قرابةَ الثامنة والنصف مساءً، حيث يقوم الشعب الإسباني الآن بالتجهيز لطعام العشاء. ونظرًا لأنهم يتناولون العشاء في حوالى الساعة العاشرة، كانوا ينسحبون عادةً من الشوارع لتناول وجبة خفيفة في هذا الوقت، وبالتالي فإن قصر الحمراء مغلق منذ مدة بالفعل.

أومأ ماثيو برأسه، ولكنه وقف عند فتحة الباب وكأن خطرًا سيأتي من العالم الحديث. ألم يأتنا الخطر الحقيقي من العصور الوسطى؟ نظرتُ بطرف عيني إلى ضيفنا الصغير الذي كان يطالعنا بعينين حائرتين. لا يمكنُ أن نقول عنه خطر، ولكن من يدري ماذا يحمل معه؟ ربما لا يختلفُ عن قنبلةٍ موقوتة.

بينما كنت أفكر في الماضي والمستقبل فُتح الباب محدثًا جلبةً كبيرة، فأغشت أضواء العالم الحديث عينيَّ. عرفت أين نحن بعدما بدأت عيناي تعتادان على الضوء؛ إنه بهو السفراء، قلب القصر، المكان الذي سحرتني زخرفته، والذي ربما أنفقت الوقت الأكبر في دراسة كل جزءٍ منه.

كانت الإضاءة الليلية الموضوعة على الأرض تؤكد بشكل أكبر على كل نحت وكتابة وحفرة وكومة وعلى نمط السقف المكون من سبع طبقات والجدران المحيطة به، وقد نقشت في ذهن الناظر مدى دقة صنعها.

عندما أغلق ماثيو الباب خلفنا، أدركتُ حتى قبل أن أتنفس أنه كان بابًا مخفيًا بشكل جميل بين الجدران الجذابة، حيث تم تزيين كل ركن

من أركانه بشكل زائد. ووُضعت قطعة صغيرة من الحديد، تشبه مسمارًا صغيرًا وتبدو ظاهرةً للعيان من الخارج، كرافعةٍ لحمل الباب الذي يزن أطنانًا. كان الهدف هو عدم معرفة أحد بوجود هذه المتاهات والأبواب السرية في الغرف، وقد تحقق ذلك جيدًا لدرجة أن المرء يمكن أن يتوه ويصبح غير قادرٍ على مواجهة الغموض حتى مع تكنولوجيا القرن الحادي والعشرين.

قال يوسف: "أبي"، فالتفتنا إليه.

كان قد ذهب في لمحةِ عينٍ إلى الغرفة الملاصقة وبدأ ينادي الجُدُر الأربعة الفارغة، أثناء انشغالي بالتفاصيل التي أخذت تفكيري.

هل تعرف ذهنه الصغير على المكان يا تُرى؟ من يعلم كيف يذكره...

ناديته: "يوسف"، فأسرع في خطاه.

زممتُ شفتيَّ، وأنا أقول لنفسي: من الصعب الاعتناء بطفل!

لا بد أنني استدرت ونظرت إلى ماثيو بشيء من الغضب، فقد وصل إلى يوسف قبلي. وبصراحة، لم أتمكن من التواصل مع الطفل لأنني لم أكن أعرف اللغة العربية جيدًا، ولم يكن لدي أي خبرة في هذا الأمر بسبب عدم وجود طفل بعمر يوسف في عائلتي من قبل.

ذهبتُ ناحيتهما آملةً ألَّا يكون الصبي أعند مما يبدو عليه. كان ماثيو جالسًا على ركبتيه يخاطب الصبي وهو ينظر في عينيه: "والدك أعطاك لنا"، وأضاف مسرعًا اتقاء شروعه بالبكاء: "سنلعبُ قليلًا ونذهبُ في نزهة".

كانت الإثارة واضحةً على وجه يوسف. صفّق بيديه بفرحة وقال: "نزهة! نزهة!"، فتساءلتُ كم مرةً تم اصطحابه خارج القصر.

كان قد أمسك بيد ماثيو بالفعل، فأمسكت بيده الصغيرة الحُرَّة، وتساءلتُ هامسةً: "إلى أين سنذهب؟".

"لا أستطيع إرساله معك إلى الفندق، ولا نستطيع تركه هنا".

ماذا سنفعل بالطفل؟ مع زوال مفعول التخدير المؤقت للعقل الذي سببه الأدرينالين أصبحنا قادرَين على التفكير للمدى البعيد. هل سنُسلِّمه للمعنيين؟ من هو المسؤول عن هذا؟ هل سنقول: "عذرًا، لقد وجدنا مومياءً حيةً عن طريق الصدفة! لا، لا.. دعنا لا نطلق عليها اسم مومياء، إنهم يجمدون البشر الآن كما تعلمون، وهذه حالة مشابهةٌ تعود إلى العصور الوسطى".

قال وكأنه يقرأ أفكاري: "لا يمكننا تسليمه لأحد".

وافقت بإيماءة من رأسي، ولكنني عبستُ بقلق لدى سماعه يقول: "لنأخذه هذه الليلة إلى منزلي. أنا أعيشُ مع جدي، وسيصدقنا عندما نشرح له الأمر... سترين".

أدرتُ عيني... وكأن معاناتنا مع طفل في الثالثة من عمره لا تكفي، بل علينا فوق ذلك أن نحاول شرح وضعنا لجد ماثيو لنلقى معاملة المجانين! كانت فكرةً سيئةً للغاية.

ألقى بكلماته قائلًا: "ليس لدينا حلٌّ آخر".

لم يكن عندي جواب على ما قاله.

كان الخروج من القصر أصعبَ ممَّا توقعنا. تذَّكر ماثيو في اللحظة الأخيرة أن حدائق الحمراء تكون مفتوحةً أمام الزوار مساءات الصيف. وهكذا وصلنا إلى المدخل السفلي بعد جُهدٍ مضنٍ في عبور طرقات بديلة ومسارات بين الأشجار العالية لتفادي الزوار والأعين الفضولية، ولحسن الحظ لم يتعرف الحارس عند تلك البوابة على ماثيو. والواقع أنه مهما حاول ماثيو استخدام يوسفَ المُتعب حاملًا إياه لمواراة وجهه، فإن بالإمكان التعرف إليه من كل مكان بسبب شعره المجعد. ويُضاف إلى ذلك أن بدلتي الرسمية هي دليلٌ صريحٌ على كوني لست سائحة.

شعرتُ بسعادةٍ بالغةٍ حين أفضى الباب السفلي إلى شوارع غرناطة مباشرةً، حيث عبرنا إلى الطرف الآخر من المدينة مختلطين بالحشود.

سألتُه مدهوشةً: "هل أنت جاد؟ هل تسكن في حي البيازين؟".

رفع كتفيه كأنه يقول شيئًا عاديًا: "لدينا منزلٌ من إرثٍ عائلي".

صعدنا هضبة البيازين أقدم أحياء مدينة غرناطة، وكانت بيوت الأندلس التقليدية المتداخلة بعيدةً تمام البعد عن تعقيدات المدن الجديدة. وقد تخللت الأحياء التي يغلب عليها اللونان الأبيض والكحلي زخارف ملونة من القاشاني، بينما أطلّت الأزهار بروائحها العبقة في ليلة من تموز الحار خلف الأبواب الحديدية للحدائق ذوات البحرات المنوفرة.

قلت على حياءٍ: "لا أريد إزعاج مَن في المنزل".

قال وهو يربت على رأس يوسف الذي كان يتأمل الأزقة بفضولٍ كبير: "ليس لديَّ أقارب أحياء سوى جدي".

بعد أن قلت: "أنا آسفة"، شرح لي القصة: "كنت في المدرسة الابتدائية عندما تعرض أهلي لحادثٍ مروري".

لم يقل شيئًا آخر، ولم يكن هناك داعٍ أصلًا، ولكنني رأيت في عينيه أنه ما زال يشعر بالحنين إليهم.

فتح الباب رقم سبعة المُحاط بعرائش نبتة المجنونة التي تسلّلت إلى الخارج. لم أكن لأتوقع فناءً صغيرًا لهذه الدرجة ولكنه كان واسعًا جدًّا في الوقت نفسه خلف الجدران العالية والمنزل المحاط بالأزهار. كانت المياه تتساقط من الطبقة الثانية للبحرة الصغيرة على القسم السفلي الذي لا يتعدى حجمه حجم حوض غسيلٍ كبير مصدرةً صوتًا مهدئًا ومنعشةً جو الفناء، في حين تألقت بين المصابيح الموضوعة حول الباحة زهور مختلفة الألوان.

كم كان الخروج من أحياءٍ ضيقة مزدحمة بساكنيها، الذين خرجوا يتمشون، إلى مكان كهذا، أمرًا باعثًا على الطمأنينة والسكينة. شعرت بنفسي أسافر إلى الزمن الذي أتى منه يوسف، وكأن الأندلس ما تزال على قيد الحياة.

نزل يوسف إلى الأرض وجلس القرفصاء بجانب البحرة، وراح يلعب مع نفسه، فيغمس يده في الماء ويخرجها.

قلتُ قلقةً: "لا بدّ أنَّ الطفل جائع".

قال ماثيو مشيرًا إلى معدته: "ونحن أيضًا".

لم نأكل منذ عدة ساعات، ولكن ماذا عنه؟ ألم يداهمه الجوع بعد؟ هل تضررت حواسه يا ترى؟ أليس من المفترض أن يخبرنا بأنه جائعٌ أو يبكي من دون سبب بحلول هذا الوقت؟

التفتُّ ناحية الزاوية اليمنى حين بدأ صوت جهوري التحدث باللغة الإسبانية... لا بد أن هذا جد ماثيو؛ كانت ذقنه البيضاء تشكل مع شعره الرمادي المفقود من منتصف رأسه تباينًا مقابل بشرته السمراء. كان بمثل طول ماثيو، وله جسم نحيل، ولكن تعب السنين أحنى ظهره، فأخذ يمشي على مهل.

توقف عندما رآني ولم يكمل كلامه الذي لم أكن أعي معناه في الأساس.

قال ماثيو باللغة الإنكليزية كي أفهم أيضًا: "أحضرتُ ضيفين على الطعام".

عرَّفنا إلى بعضنا بأسمائنا، ولكنه طلب مني مناداته باسم "الجد"، فتلك هي كنيته التي يناديه بها أهل الحي، لذا لم أخرج عن هذه العادة الغريبة.

تبادلنا ابتسامة لطيفة، ومع ظهور التجاعيد المليئة بالحكمة على وجهه ازداد شعوري بالقرب منه، فقد ذكّرني بالأستاذ ألتاي.

تحولت عينا الجد المتسائلتين بعد أن وقعتا على يوسف، وقال بصوتٍ متفاجئ ربما بسبب سني الصغير: "ابنك؟".

كانت لغته الإنكليزية بجودة لغة ماثيو على الأقل، وبدا أنه رجل مثقف... ما هي اللغات الأخرى التي يعرفها أيضًا يا ترى؟

التفتُّ نحو ماثيو اتقاء قول ما لا يُحمد عقباه. من الصعب تخمين ما كان يدور في خلده، فهو غالبًا ما ينجح بإبقاء وجهه محايدًا.

قال ماثيو: "يوسف... زائرٌ يا جدي. سنشرح لك الأمر على الطعام".

دخل قبل أن تتاح الفرصة لأحدٍ بالكلام، فأمسكت بيد يوسف وذهبنا حيث أشار لنا الجد.

قال يوسف بالعربية وهو ينظر إلى البحرة التي فارقها: "بحر".

جعل كلامُ الطفل باللغة العربية، ولباسُه العربي، الجدَّ في حيرةٍ شديدة، فقطب حاجبيه.

وجدت المكان متواضعًا وصغيرًا في الداخل؛ جلُّ المفروشات خشبية، وفرشها الأبيض مهترئ. وُضعت على طاولة خشبية مربعة ذات عشرة مقاعد مجاورة لغرفة الجلوس وجبة طعام لشخص واحد.

بقيت وحدي في غرفة الجلوس حين ذهبَ الجدَّ إلى ما اعتقدتُ أنه المطبخ. تأملتُ الخزانة ذات الأبواب الزجاجية والصور المصفوفة؛ كان ماثيو طفلًا لطيفًا جدًّا بوجنتيه الممتلئتين، وشعره المجعد، وعينيه الداكنتين الواسعتين. التُقطَت العديدُ من الصور في المدرسة وعند التخرّج ومع أمه وأبيه.

في كل ركنٍ من أركان المنزل، على الطاولات والجُدُر وداخل الخزائن، وُضعت قطع زينة خشبية مختلفة، وأوانٍ خزفية من إفريقية، ووثائق متآكلة أطرافها ومصفرّة من عوامل الزمن موضوعةٌ داخل أُطُر.

قال الجد من خلفي: "لقد غصتِ في ذاكرة المنزل".

عندما استدرت إليه رأيت ماثيو من خلفه يحمل صحونًا وأطباقًا إضافية، بينما كان يوسف يحمل الملاعق والشوك، بعد أن أتى من الخلف ليقوم بالمساعدة في إعداد المائدة.

قلتُ: "نعم، منزلكم تاريخٌ حي، ولا يختلف عن الحمراء".

أفسحت له مكانًا على الطاولة ليضع القدر.

"هذا البيت إرث أجدادي، ونحن أضفنا ذكرياتنا إليه فقط".

أحدث ما أُضيف إلى المنزل تلفاز بدا أنه من تسعينيات القرن الماضي. تبسّمت وسألت وأنا أملأ الكؤوس بالماء: "هل يلقبونك بالجد لأنك تعيش في منزل قديم؟".

اهتز صدره بضحكةٍ عميقة، ففكرتُ أنه ربما يكون أكبر مما اعتقدت.

"لا، الجميع يعيش هنا في منازل خلّفها لهم أجدادهم. ولا يوجد ساكنين جدد في الحي".

لم أستطع منع نفسي من رفع حاجبِي: "قرأتُ أن غرناطة تعرضت لموجة هجرة كبيرة في الأعوام الأخيرة".

هزّ رأسه قائلًا: "ينتقل القادمون الجدد إلى الأحياء الجديدة، فنحن لا نفرّط في منازلنا".

خجلتُ من نفسي حين رأيت أنه قد أخذ على خاطره قليلًا. وضعتُ منديلًا على حجر يوسف الذي أجلسته بجانبي. جلس بأدب لحسن الحظ. رجوت أن يكون جائعًا حين أشار إلى الصحن أمامه.

"يدعونني بالجد منذ شبابي لأنني لم أكن أحب قضاء الوقت في الخارج".

جلس على الكرسي في مقدمة الطاولة، بينما قال حفيده وهو يجلس على الكرسي المحاذي له: "جدي يحبُّ القراءة كثيرًا، وقد تعلم أربع لغاتٍ بنفسه".

سعدت باعتقادي الصحيح أنّ الجد مثقف.

قال موضحًا مهنته: "أعمل نجارًا، ولديّ ورشة نجارة في القسم الخلفي من المنزل".

قبل أن أرد على الجد تحدّث يوسف، ولكنني لم أذكر معنى الكلمة التي قالها فنظرتُ إلى ماثيو مستفهمةً.

قال مترجمًا: "خروف".

تساءلت إن كان هذا طعامه المفضّل في القصر... نظرنا إلى بعضنا ثم إلى أطباقنا سارحين في التفكير. كان الجد قد أعدَّ طعامًا مكونًا من البطاطا والدجاج والمرق المليء بالبهارات.

التفتُ إلى يوسف وقلت: "دجاج".

وضع الجد شوكته قائلًا: "حسنٌ، أتطلع لأن يشرح لي أحدٌ القصة".

خيَّم السكون للحظات، فالتفتَ إليَّ وقال: "لغتك العربية سيئةٌ جدًّا، جعلتني أدرك أنك لست عربية".

أومأت برأسي: "أنا تركية... أتيت إلى هنا من أجل ندوة".

تسلم ماثيو زمام الكلام نظرًا لأنني لم أكن أعلم كيف وماذا سنشرح للجد، فاستهلَّ حديثه بموضوع الأنفاق، وكان يتكلم باللغة الإنكليزية كي أفهمه، ولكن مع وصول الكلام إلى الجزء الذي اكتشفنا فيه المومياء بلغت حماسة الجد أوجها وأصبح الحديث محتدمًا لدرجة أنهما بدآ يتحادثان باللغة الإسبانية بسرعةٍ فيما بينهما.

كنت آكل وأُطعم يوسف كلما سنحت لي الفرصة، كما حاولت إلهاء الطفل بألعابٍ متنوعة، استخدمت فيها الشوكة والطعام، تفاديًا

لشدة ذهول الجد ونظراته إلى الصبي بفضول كل فترة. والواقع أنني شعرتُ بالقلق على الجد الذي تعرض لهذا الكم من الانفعال، إذ تحول وجهه إلى اللون الأحمر.

كنت أرجو ألا تكون عنده مشاكل بالقلب أو ارتفاع في ضغط الدم، وقد جزعت حين أحضر ماثيو حبة دواء من علبة صغيرة فوق الخزانة ذات الأبواب الزجاجية.

قال موضحًا: "لقد انفعل أكثر من اللازم، إنه مريض بضغط الدم".

تمامًا كما خمّنت! يا للرجل المسكين؛ كانت أكبر إثارةٍ في حياته كنجار هي قراءة الكتب، فأتينا له بطفلٍ عمره سبعمائة عام.

قال يوسف: "ماء".

على الرغم من أنني سقيته ماءً منذ قليل فقط، إلا أنني ناولته كأسًا من الماء مقطبةً جبيني، فدفعها بيده كمن لا يرغب، وانسكب بعض الماء علينا.

نظر إليّ بعينيه الواسعتين وأشار إلى النافذة، ثم قال بإلحاحٍ: "ماء".

هممتُ بالالتفات لأرى إن كانت تمطرُ في الخارج حين عاد الحديث إلى اللغة الإنكليزية فصببتُ اهتمامي على البالغَين أمامي.

قلتُ: "آمل أن يكون لدينا فكرةٌ منطقيةٌ عما سنفعله بهذا الصبي".

خيّم الصمت، ثم قال ماثيو: "سنفعل المطلوب منا"، وأكمل حين لم أرد بشيء: "إن كانوا متقدمين في الطب لهذه الدرجة وتمكنوا من تجميد البشر، فسوف نجد كيفية سفرهم عبر الزمن ونعيد يوسف".

شعرتُ كأنني داخل فيلم غموض علمي، وكأننا سنسافر إلى المريخ بعد قليل عبر تقنية نقل الجزيئات.

قال الجد وهو ينظر إلى يوسف الذي يستكشف المكان في الخارج: "إن كان الأمر قد طُلب منا في الرسالة، فلا بدّ أنهم شرحوا كيفيته أيضًا، ومن المؤكد أن هذا الطفل هو المفتاح لذلك".

كانت الرسالة موضوعةً على طرف الطاولة... يبدو أن ماثيو أطلعه عليها حين كنت مشغولةً مع يوسف.

قال يوسف مشيرًا مرةً أخرى إلى الخارج: "نبع".

من الواضح أنه يريد اللعب جوار البركة.

"يجب أن نضع خطة يا ماثيو، فأنا عائدة إلى إسطنبول يوم السبت. علينا معرفة عن أي شيء نبحث وكيف؟".

أخذ الجدُّ الورقة وطواها قائلًا: "سأعمل على هذه، علَّ هناك شيفرةً أو دليلًا ما".

من الواضح أن عنده من الخبرة والتجربة أضعاف ما عندنا، وأنه مهتمٌ بهذه المواضيع. لذا أومأت برأسي موافقةً وقلت: "علينا إيجاد طريقة لحمايته. إنه طفلٌ بريء. لا يمكننا التضحية به لتجارب العالم الحديث".

لا أعلم إن كنا سنتمكن من فعل ما طُلِب منّا بالرسالة، أي السفر عبر الزمن وإعادة الطفل، ولكن يجب علينا إيجاد طريقةٍ لحمايته.

نزل يوسف عن كرسيه، وأخذ يشدني قائلًا: "ماء، نبع".

أردتُ الحديث والقيام بعصفٍ ذهني ولكن لم أستطع مقاومة عناد الأمير الصغير أكثر من ذلك. تبعَنا ماثيو وجده ونحن ذاهبان إلى بركة الزينة الصغيرة في الحديقة.

قلتُ لنفسي إنه تناول طعامًا على الأقل... طفلٌ مفعم بالحياة، كثير الحركة ولكن مؤدب، قادر على التكيف معنا، ولا يبدي تصرفاتٍ غير حسنة، طفلٌ لا يتحدث كثيرًا.

وضع الجد قاربًا خشبيًا صغيرًا أحضره معه من الداخل في البركة ما جعل الطفل يضحك ويصفق بمرح، حتى بانت أسنانه الصغيرة، فرسمت سعادته الابتسامة على وجوهنا.

صرخ: "إسطرلاب!".

فجمدنا، واستوى الجد ببطء. ثم هزّ رأسه موافقًا على ما خطر بباله من أفكار قبل أن يُصَّرح بها: "أخبرتكم أن هذا الصبي يعرف شيئًا، سوف يتحكّمون طبعًا بالسفر عبر الزمن عن طريق الإسطرلاب!".

كان الإسطرلاب الذي يعدُّ أقدم جهازٍ لقياس الوقت وتحديد موقع الأرض والنجوم شائعًا جدًّا في العصور الوسطى الإسلامية. وقد مكَّنهم من دراسة الكون متيحًا لهم التوسع في علوم الفيزياء والفلك، ومعرفة اتجاه القبلة بسهولة.

لماذا قال عن القارب إسطرلاب؟

تابع الطفل التصفيق بيديه بحماس قائلًا: "ماء، ماء! الحمراء!".

نظرت إلى ماثيو الحائر الغارق في التفكير بعينين نصف مغلقتين، وهو يسبح في الماء مع أفكاره.

قال مقترحًا: "أغلب الظن أن الإسطرلاب في القصر".

هذا ما وصلنا إليه جميعنا بشكلٍ غريزي.

يشتهر قصر الحمراء ليس فقط بحدائقه وعمارته المعقّدة، بل بكمية المياه فيه. إذ عانت غرناطة من شح المياه طوال تاريخها، أضف إلى ذلك كونها شديدة الحرارة بسبب قربها من إفريقية، ما جعل حرارتها لا تُحتمل في شهر تموز، وهذا ما عشتُه حين التصق قميصي بظهري بفعل العرق. وفي ظروف جغرافية كهذه أُضيفت لكل غرفة من غرف الحمراء بحرات رخامية كبيرة، وزُوِّدت الحدائق ببرك واسعة، بينما مُرّرت المياه في أرجاء القصر عبر جداول صغيرة حول الغرف وداخل الحدائق ملطفةً الجو.

لم تكن مهمتنا سهلةً مع معلومةٍ صغيرةٍ كهذه، بل كانت مثل البحث عن إبرة في كومة قش. هل خبأوا الإسطرلاب في إحدى البرك كما أنشؤوا مختبر المومياء تحت قاعة العرش يا تُرى؟

نهض يوسف ونظر حوله، كأنه تذكَّر شيئًا ما، فحبسنا أنفاسنا كي لا نفزعه أو نشتّت انتباهه. وبعد أن دار حول نفسه كمن يبحث عن شيءٍ رفع رأسه لأعلى قليلًا.

تبعتُ نظراته، وبما أن البيت يقع على التلة فإن نهايات قصر الحمراء المضيئة كانت مرئية بالكاد من فوق الجدران. لم يكن القصر على هذه الحالة في زمانه، ولم يكن يوسف ليعرف القصر على وضعه الحالي من خلال أطرافه المضيئة، خاصةً وأنه طفل ذو ثلاثة أعوام... أليس كذلك؟

هل طور علماء المسلمين في العصور الوسطى شيئًا من أجل الذكاء أيضًا؟

الفصل السابع

يوم الخميس 26 تموز/ يوليو 018م

خلال استماعي للأحاديث الأولى للندوة في اليوم التالي كنت أقلب في رأسي ما عشناه.

بادئ ذي بدء، حيّرني كيف جرى الأمر بهذه السهولة! على الرغم من أن يوسف يبلغ من العمر ثلاثة أعوام فإن ذاكرته جيدةٌ جدًّا وعلى الأرجح كان يساعدنا كما تم تعليمه. والحقيقة أن متابعته لحياته دون فقدانه أيًّا من سماته، وبعد مرور كل هذه الأعوام، يجعلني أتساءل عن كل الأسرار الأخرى التي حُرقت في مكتبات علماء المسلمين خلال القرن الرابع عشر.

تحدثتُ في هذا الموضوع مع ماثيو والجد في المساء، بعد أن وضعنا يوسف لينام. ومع التغلب على الصدمة والإثارة الناجمَين عن الاكتشاف تدريجيًا، سيطر الجد على الموقف بعلمه وهدوئه، وقدم لنا درسًا طويلًا في التاريخ عند المساء.

وهكذا سنحت لي الفرصة لرؤية المكتبة الضخمة التي ورثها هذا الرجل الكبير في السن، والذي يذكرني بالأستاذ ألتاي بأوجهٍ كثيرة، من عائلته، ثم أضاف إليها بنفسه. كما استمعت لبعض من الأساطير حول

الأندلس قرأها عبر السنين. وبالطبع لم يكن أيٌّ منها يتحدث عن تجميد كائن حي أو السفر عبر الزمن.

كان الوقت لا يزال باكرًا بالنسبة لإسبانيا حينما رافقني ماثيو إلى الفندق الذي سأبيت فيه، حيث كانت الشوارع قد بدأت تزدحم بمن خرجوا لتناول طعام العشاء... عجبًا، كيف يمكنهم اتباع نظام كهذا والبقاء ممشوقين بتلك الصورة؟! لم يكونوا على دراية بفكرة عدم تناول أي طعام بعد الساعة السابعة مساء، ولكن هذا كان أمرًا جيدًا لي، فالأزقة الصامتة كانت لتثير الرعب في داخلي إن نظرت من نافذة غرفتي إلى الخارج بعد الذي مررت به اليوم. وبما أن النوم كان يجافيني على أية حال، فقد أخذت أشاهد الحياة في المدينة وأفكر في كل ما جرى. وكنت أرغب في الاتصال بالأستاذ ألتاي والتحدث معه، ولكن كيف يمكن شرح شيء مثل هذا على الهاتف؟ تبدو فرصة عدم تصديقه لي مرتفعةً، كما أنني أخشى عليه بسبب سنه ومرضه. أضف إلى ذلك أنني أرسلت بالفعل إلى عائلتي صوري وأنا على المنصة، وأخبرتهم بأن كل شيءٍ على ما يرام، لذا كانوا ينتظرون عودتي كما في كل رحلة، لنجلس إلى طاولة المطبخ فيشاهدون الصور ويستمعون بحماس إلى حديثي عن الأماكن التي زرتها.

لم يمضِ سوى يومٍ واحد على قدومي، ولكنني أفتقد دفء منزلي ودفء عائلتي الذي يشعرني بالأمان.

عندما تحدثت وماثيو صباحًا قبل الندوة أخبرني أن الجد يعتني بيوسف وأنهما أمضيا وقتًا رائعًا سويًا. وبينما كنت آمل أن كل ما حدث

بالأمس هو بقايا حلم مرهق، شعرت بماء مثلجٍ ينسكب عليَّ حين مرت صورة الجد والأمير وهما يلعبان حول البركة في مخيلتي، وبما أنني لم أتمكن من التركيز على الخطب التي ألقيت خلال الندوة فإن تعرقي البارد لم يختفِ، كما لم أتوقف عن تناول الطعام. والواقع أنني لا أستطيع إمساك نفسي عن الطعام حين أكون متوتّرة!

إلا أن الفترة الوحيدة التي نسيت فيها المسألة كانت حين قدَّم ماثيو دراسته، خلال الفقرة الثانية بعد طعام الغداء، والتي استمرت عشرين دقيقة بالتمام، وتحدث فيها عن عينات الخزف الموجودة في القسم الحربي من القصر. وبما أن العمل كان خاصًّا به بالكامل، فهو لم يقرأ عملًا تم تكليفه به، كما فعلت أنا، وبدلًا من ذلك قدم نصًا مُعدًا جيدًا باللغة الإنكليزية الصحيحة مترافقًا بالصور الفوتوغرافية، ما أثار إعجاب القاعة بأكملها. وقد لاحظت أنه توقف مرتين أو ثلاثة، فعرفت أنه متوترٌ اليوم بمقدار توتري على الأقل، وأنه يجد صعوبة في التكيف مع الحياة الطبيعية، فهو لم يعد يطيق صبراً على عدم التحرك في أسرع وقت. وبالنظر إلى أنه في الواقع شخص مسترخٍ، وهذا ما كان يبدو من خلال أسئلته الجريئة لي البارحة، فإنه لا يمكن أن يكون مشدودًا هكذا في تقديمه اليوم.

كان واضحًا من عدم التركيز في كلامه أن تفكيره مشغول، فتمنيتُ ألا يواجه أسئلة صعبة. وهذا ما حدث؛ أتاه سؤال واحد ولم يكن سؤالًا تصعُب الإجابة عليه. وعلى العموم، استشعرت جوًا من التعب في القاعة، وغيابًا لحماس اليوم الأول؛ ربما كانوا ينتظرون حلول المساء للذهاب، وربما كانوا ينتظرون استراحة القهوة.

ازداد توتّرنا مع اقتراب نهاية جلسة الندوة لليوم، فقد اتخذنا قرارنا البارحة بالذهاب إلى النبع اليوم، مع الاستفادة من الغروب المتأخر للشمس، حيث أننا في فصل الصيف، ويمكننا استغلال ضوئها قدر المستطاع.

منحنا أنفسنا بعض الوقت بعد الندوة للخروج من الشخصية الأكاديمية والتحول إلى الشخصية المغامرة. وخلال هذا الوقت، عدت إلى الفندق وارتديت ملابسي المريحة والحذاء الرياضي الذي أرتديه أثناء المشي لمسافات طويلة.

لم يكن طريق اليوم يخيفني، فأنا من أولئك الذين يحبون استكشاف المدن التي يزورونها سيرًا على الأقدام لمسافة كيلومترات. علاوة على ذلك، فهناك سؤال يستحوذ على تفكيري؛ هل سنجد الإسطرلاب؟

كان من المخطّط أن نلتقي على ضفة نهر دارو المحيط بالتلة التي بني عليها قصر الحمراء، لذا مشيت حتى جسر الخزان Puente del Aljibillo مستخدمةً الخريطة. كان النهر يحيط التل بالكامل ويقطع اتصاله بالمدينة، ولكنه لم يكن عريضًا جدًّا. وقد أُنشئت فوقه خمسة جسور، منها اثنان في العهد المسيحي.

يفضي جسر الخزان إلى ميدان تصب فيه مياه النهر داخل خزانات، لذا قررت البدء من هنا. كان هذا خزانًا للقصر وليس منبعًا للمياه، وقد ذكّرني بساحة السلطان أحمد التي تضم ستة خزانات؛ منها خزان القصر الغارق Yerebatan، وخزان الألف عمود وعمود Binbirdirek والعديد من

الخزانات الصغيرة. لعل الخزانات هنا ليست بقدم مثيلاتها البيزنطية، إلا أن الشبه بخزانات إسطنبول أدهشني مع ذلك. وإذا كان من الطبيعي جدًّا بالنسبة للمدن القديمة التي تعاني من شح المياه مثل غرناطة وروما والقسطنطينية استخدام الخزانات والقنوات المائية، إلَّا أنَّ رؤيتها لا تزال تعمل دومًا هي ما أثار دهشتي.

جاء ماثيو والجد بينما كنتُ أتفقد المكان، وكان يوسف ممسكًا بيد الجد يراقب المكان كطفلٍ عادي. لقد فطن أحدهم إلى إلباسه ملابس معاصرة؛ وهكذا تخلص من رداء الأمير الحريري الذي ربما يجذب الكثير من الاهتمام في المجتمع.

لم أستطع كبح جماح شهقةٍ خرجت بصوت عالٍ عندما رأيتُ ما في يده، فهتفتُ: "هل اشتريتم له المثلجات؟".

نظر ماثيو إليَّ مرة أخرى بابتسامته المتعجرفة وقال: "لا أعتقد أنكِ أكلتِ مثلجات في حياتك سابقًا".

أخذ يوسف يأكل مثلجاته بسعادة، ملطخًا وجهه بها، بينما كان يراقب الناس من حوله باهتمام، ولا سيما راكبي الدراجات... كان يستكشف العالم الحديث، وبدا راضيًا عما جربه. نعم، شعرتُ بالأسف تجاهه أيضًا، فهذا ليس المكان الذي ينتمي إليه.

قلتُ: "مرحبا يوسف". ثم انحنيتُ ونظرت في عينيه، على أمل أن يتذكرني من الأمس، فابتسم واستمر في أكل المثلجات.

كان طريقنا يبلغ حوالى ستة عشر كيلومترًا بلفة واحدة كاملة، وعلينا بالتالي أن نمشي ثلاث أو أربع ساعات تقريبًا. عرضنا على الجد

البقاء في المنزل، لكنه أصرَّ على القدوم، وهكذا كان من المستحيل أن نترك يوسف وحده.

بدأنا نسير ببطء من حافة النهر إلى الجبال، وبعد حوالى عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، أشار الجد إلى قناة مشابهة لقنوات المياه في إسطنبول في أون كاباني، لكنها بالطبع أصغر منها بكثير.

"انظروا، ها هي القناة الملكية Acequia Real de la Alhambra التي توجد على التل وتنقل المياه من بداية نهر دارو إلى القصر. سوف نتبع مسارها الآن".

كانت القناة تتسلق التلال ببطء لمسافة حوالى ستة كيلومترات، وكان الطريق مبنيًا بشكلٍ جميل ويجلب السياح، فقد شاهدنا متنزهين محليين وأجانب على طول الطريق. وكان الموقع يتيح التقاط صور مذهلة، حيث يمكن رؤية القصر والمدينة وحي البيازين القديم الذي يقع فيه منزل ماثيو في إطار واحد، لذلك لم أفوت هذه الفرصة والتقطتُ بعض الصور على الفور. ولم أنسَ أن أصور القناة والمياه التي تسيل كنهر بين أوراق الطبيعة الخضراء وقد استيقظَت بعد الخريف.

قال ماثيو لاهثًا: "إن أكملنا من هذا الطريق سنصل الى السد، وإن نزلنا بعد ذلك من التلة فسوف نصل الى المدينة". كان ماثيو يشعر بالتعب نتيجة حمل يوسف على ذراعيه منذ عدة ساعات.

وبالمقابل، بدأ النسيم المنعش يهب بدلًا من حرارة تموز المرتفعة مع صعودنا أكثر إلى أعلى التلة، وقد وجد الجد الفرصة حينها فجلس على صخرةٍ ليرتاح، وقال كأنما يكلم نفسه: "أنا عجوز جدًّا على هذا"،

ثم أخذ نفسًا عميقًا عدة مرات محاولًا تهدئة صدره.

تساءلتُ قائلة: "يوجد الكثير من الناس هنا، فمن الشائع السير على هذا الطريق... كيف سنجد الإسطرلاب؟!".

صفّق يوسف بيديه سعيدًا وقال: "إسطرلاب".

من الواضح أن مزاجه يتعدل عندما يكون في حضن أحدهم، لذا أخذته من ماثيو كي يرتاح قليلًا، وحملته بين ذراعيَّ، وأنا أبتسم لقافلة السياح العابرين من أمامنا ابتسامة توحي بالأمان. كنت متوترة منذ أن خرجنا إلى الشارع، وكأن الجميع سيكتشفون الأمر غير الطبيعي.

أجاب ماثيو: "لا يمكن أن يكون هنا في هذه الزحمة على الأغلب".

نظرت نحو قصر الحمراء الذي أصبح تحت مستوى أقدامنا، فرأيتُ الأبراج الواقعة وسط الحدائق الخضراء الكبيرة، والأفنية ذات البحرات والبرك المزينة بحرفية لا تصدق، والتي تبدو وكأنها واحة في وسط الصحراء.

سألتُه مشيرةً إلى الصبي الذي في حضني: "أنسيت أين وجدناه؟".

كان مختبئًا أمام أعين الجميع!

هزّ برأسه موافقًا، وقد التصق شعره الأشقر بوجهه المتعرق.

كانت أهداف السلاطين من بناء قصر الحمراء على شكل متاهة أهدافًا واحدة، فقد صنعوا وهمًا يبدو معقّدًا من أجل إخفائه عن الأعين، وبالتالي كان كل شيء عبارة عن مغالطة. وهكذا، ربما يكون الإسطرلاب أمام أنظارنا، وكل ما علينا فقط هو أن نعرف كيف نراه.

قال بخيبة أمل: "هذه أرض مفتوحة، ولا أظن أنهم قاموا بالمخاطرة. كما أن هذه القنوات ليس فيها شيء غير الماء، وإذا كان هناك قديمًا سدٌ أو أي بناء فهو الآن غير موجود".

لقد فُقِد الأمل بسرعة!

قال له الجد: "اصبر يا ولدي"، وعلى الرغم من أنه تحدث باللغة الإسبانية، إلَّا أنني فهمت كلامه وتبسمت له.

كان الطفل قد أخبرنا أن الشيء الذي نبحث عنه موجود في مصدر الماء، وها نحن عند مصدر الماء، ننتظر حركةً من يوسف، آملين أن يتذكر شيئًا حين يرى المكان ويعطينا طرف الخيط.

وقد حاول الجد اليوم بأكمله أن يجعله يتكلم عندما كنا في الندوة، فردّد أمامه بعض الكلمات راجيًا أن يقول شيئًا جديدًا: إسطرلاب، نبع، الخندق الملكي... لكن الأمير الصغير كان إما ينظر حوله كما يفعل الآن أو يكرر تلك الكلمات.

قلتُ لنفسي: ليتهم قاموا بتجميد طفلٍ في الرابعة من عمره بدل طفلٍ في الثالثة، لأنه سيعرف الكلام أكثر وسيكون ذا فائدة أكبر لنا، فنحنُ الآن كالذي يبحث عن إبرة في كومة قش.

قال الجد: "سيساعدنا بالتأكيد... كيف فعلَ ذلك البارحة؟ من الواضح أن الصبي مُدرَّب لتقديم المساعدة، وبالتأكيد سيتذكر المكان الصحيح وسيقول شيئًا".

كان يريد أن يمنحنا بعض الشجاعة، لتبديد مزاج اليأس الذي كان يسود مجموعتنا، لكنه كان محقًّا في ما قاله، وكنت أعتقد بدوري أن يوسف سيساعدنا.

أضاف قائلًا: "دعونا الآن نجرِّبْ طريقتي".

أدار ماثيو عينيه بطريقة اعتبرتُها وقِحة للغاية وقال: "تحدثنا عن هذا الليلة الماضية يا جدي".

شرحَ الجد لي متجاهلًا اعتراضاته: "هل تتذكرين الكهوف في كتاب واشنطن إيرفينغ؟".

لقد ذُكرت الكهوف بشكل متكرر في أساطير قصر الحمراء في كتاب إيرفينغ، وقيل إنه يوجد بداخلها ثروات مختلفة، وكنوز الأمازيغ، مخبأة مع العديد من الألغاز، ورويت بعض الحكايات الشعبية حول ذلك.

سألتُ كردّ فعل أولي: ""ما علاقة مصدر المياه بالكهوف؟ وهل هذه الكهوف موجودة حقًّا؟".

أومأ الجد برأسه إيجابًا وقال: "بالطبع، هناك العديد من الكهوف في هذه الجبال. أي شخص وُلِد ونشأ في غرناطة يعرف هذه الكهوف".

ألقى نظرة غاضبة على ماثيو بعين جانبية بينما كان ينطُق الجملة الأخيرة مؤكدًا عليها.

قال ماثيو وكأنه يُثبت صحة كلامه: "الكهوف تصل حتى سانتافي".

آه، كان جبل سانتافي بعيدًا جدًّا، ومرتفعًا حتى لو شوهد من غرناطة. وهو الجبل الذي نصبَت عند سفحه الملكة إيزابيل الدموية خيمتها أثناء حصار غرناطة عندما جاءت لغزو المدينة.

نعم، اعتدتُ أن أكون واثقةً من المشي لمسافات طويلة، ولكن سانتافي؟!

قال الجد مخاطبًا ماثيو: "المنطقة جبلية للغاية بالفعل، وأينما يوجد جبل، يوجد كهف. ولكنك غاضب وغير صبور مثل والدك!".

ارتفع صوته قليلًا مع الجملة الأخيرة، ثمَّ تابع قليلًا باللغة الإسبانية، فعبس ماثيو مثل صبي صغير موبَّخ، ولكنه لم يرد.

استدار الجد نحوي، وقال بعد أن استعاد السيطرة: "يوجد بين هذه الكهوف كهف تأثر بالنهر".

بدأ يوسف يتململ بعضَ الشيء في حضني، فأنزلته إلى الأرض، حيث بدأ يلعب بالحجارة، في حين تساءلتُ قائلة: "هل هو بعيد جدًّا؟ هل هو مكان لا يمكننا الذهاب إليه؟".

هزّ رأسه، وانطلقنا مرة أخرى، فغادرنا حافة نهر دارو، بعيدًا عن الممشى الرئيسي، وذهبنا إلى أماكن لا يوجد فيها حتى ممر للمشاة، غارقين تحت أشجار الزيتون والصنوبر. وكانت أصوات المياه تبتعد أكثر فأكثر كلما ابتعدنا.

قال الجد بلهفة: "من المفترض أن تكون هناك"، ثم التفت إلينا وأضاف: "كما قلت، هناك عدد قليل من الكهوف الصغيرة، لكنني سأصطحبكم إلى الأبعد".

تذمّر ماثيو قائلًا: "لقد لاحظنا ذلك".

فسألتُه: "ألا تعرف هذه الكهوف؟".

نظر إليَّ وكأنه يقول *هل سألتِ ذلك حقًّا؟*، ثم أجابني: "أنا أعلم عنها بالطبع، ولكنني ما أتيتُ إلى هنا قط".

سألته في حيرة من أمري: "لماذا؟".

فهزّ كتفيه بلا مبالاة قائلًا: "هل زرت كلَّ ركنٍ من أركان إسطنبول؟".

اكتفيتُ بالصمت طبعًا، فأنا لم أستطع الذهاب إلى كل مكان، ولا تزال هناك أماكن لم أزرها.

قال الجد مسرورًا لأنه تمكّن من العثور عليه بعد سنوات: "ها هنا!". كان الكهف تجويفًا طبيعيًا سقطَت أمامهُ الصخور فسدَّت نصف مدخله، وكان موقعه خلف أشجار الزيتون يجعله مموهًا تمامًا.

قلت خائفة: "ربما هناك دب بالداخل!".

هزّ الجد رأسه ضاحكًا وقال: "ليس في هذا الجانب. ولكن توجد بعض الحيوانات الصغيرة التي ستهرب عند سماع أصواتنا".

في تلك الأثناء مدَّ يوسف ذراعيه ليأتي إلى حضني مجددًا، فحملتُه متجاهلةً ألم خصري الشديد، ثم سألت الجد: "من يَعرف هذا المكان؟".

أجابني ونحن نتحرك نحو الصخور: "فقط كبار غرناطة يعرفون، فالجيل الجديد يهتم أكثر بحياة المدينة، ولا يحب التنزّه على الجبال".

أثناء بحثهما عن خيوط العنكبوت حول الصخور، استسلمتُ لفضولي وقلت: "اعتقدتُ أنكَ تحب البقاء في المنزل أيضًا".

عندما نظرَ إليَّ مع نصف ابتسامة، أدى ضوءُ الشمس الخفيف إلى تعميق تجاعيده وإبراز الحكمة في عينيه.

قالَ وهو يهم بالدخول: "إذا كنت لا أحب الذهاب مع الناس فذلك لا يعني أنني لا أحب التجول بمفردي"، ثم أضاف: "كنتُ أحب المجيء إلى هنا للمطالعة".

كان أول ما لاحظته بعد أن دخلتُ الكهف هو زيادة الرطوبة وأصوات التقطير في أذني. ثم شعرتُ بأنفاسي تكاد تنقطع عندما رأيت الشمس تضيء جزءًا من الكهف، إذ بدت سقوف الكهف كالنقوش الطبيعية وكأنها منحوتة باليد، وكانت الآن تتوهج باللون البرتقالي نتيجة الضوء القادم، بينما كان نصفها مظلمًا.

بدَت أمامنا بحيرة صغيرة مثل حوض الاستحمام، وعندما فتح ماثيو ضوء هاتفه وتجول حول هذه البحيرة الصغيرة، رأيتُ العديد من البحيرات الصغيرة في الكهف. وللحظة، اعتقدتُ أنه كهف كبير في أعماق الجبل، ولكن عندما وجَّهَ ماثيو الضوء إلى الأمام، اكتشفتُ أنه في الواقع محدود للغاية.

قال الجد: "أعتقدُ أن هذا كان أحد الينابيع التي كانت تزود قصر الحمراء بالمياه".

كان تخمينًا معقولًا إلى حدٍّ ما؛ فقد تم تدمير المدينة والقصر والممر المائي مع انتقال المدينة إلى الكاثوليكيين، لذا لن أتفاجأ بعد الآن بأي نوع من الاكتشافات.

سألتُ: "هل الإسطرلاب هنا؟".

ردّد يوسف من جديد مصفقًا بيديه الصغيرتين: "الإسطرلاب! الإسطرلاب!"، ثم ابتسم ابتسامة كبيرة.

كانت جاذبية هذا الطفل تذيب قلبي، فلم أستطع التحمل أكثر وقمت أقرص خديه، ثم أومأتُ قائلة: "نعم، الإسطرلاب!".

اقترب الجد منه وسأله بالعربية: "هل تتذكر هذا المكان يا يوسف؟

هل أتيت هنا؟"، فنظرَ إليه يوسف دون ردّ فعل.

قال ماثيو بنبرة أكثر حماسًا من الجد: "النبع، الماء، الإسطرلاب".

وحينها فتح يوسف عينيه على اتساعهما، وزمَّ شفتيه قليلًا، وهو يكاد يشرع بالبكاء.

هتفتُ غاضبة: "أنتم تخيفونه"، ثم أمسكتُ بيد يوسف وجعلته ينظر إلي، وأنا أبتسم وأداعب خديه. لكنني لم أستطع قول شيء لأنني لا أعرف كيف أقول الكلمات الصحيحة بلغته.

لانت تعابيرُ وجهه قليلًا، لكنهُ بقي متوترًا، وفجأة بدأ العد إلى عشرة، ثم توقف عندما وصل إلى العشرة.

لم أعرف ماذا أفعل، فصفّقت بخفة وقلتُ مشجعَة: "عملٌ جيد!".

كانت القُدرة على العد من واحد إلى عشرة إنجازًا كبيرًا بالنسبة إليه، وهو يُظهر لي الآن هذه القدرة على ما يبدو.

عادَ إلى البداية وبدأ العد من جديد، ولكن هذه المرة بطريقة مختلفة: "واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة"، ثم توقف لبُرهة، وكأنه ينتظر التقدير مرة أخرى. وعندما لم يقل أي منا شيئًا، عبس وبدأ من جديد: "واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة".

عاد للتوقف، ولم يعد يُسمع الآن في الكهف سوى أنفاسنا، وصوت الماء. انتظرتُ لأرى ما إذا كان سيتحدث مرةً أخرى، لكنَّه كان عطِشًا.

شب...شب...شب...

كان صوت المياه المتساقطة من السقف إلى البحيرات يختلط بعضهِ ببعض، ما جعل من الصعب عليّ التفكير. وعندما انحنى يوسف

إلى الأرض وبدأ يلعب بالحجارة، أدركت أنه لم يعد بإمكانه المساعدة.

شب... شب... شب...

لوّحت بيدي إلى ماثيو، الذي بدأ بالقول: "أعتقد أنَّ..."، ثم صمت.

شب... شب... شب...

نهضتُ وبدأتُ أسير في الكهف، وأنا أنظر خلفي من زاوية عيني، بينما كان الجد يمسك بيد يوسف حتى لا يسقط في إحدى البحيرات.

كانت هناك أربع بحيرات صغيرة، فوقفتُ أمام كل بحيرة على حِدَة، ونظرت إلى الماء المتساقط من السقف إلى البحيرة الأولى.

شب... شب... شب...

فهم الجد ما كنتُ أفعله، فتوجَّه إلى البحيرة المجاورة لي قبل أن أصلها، ووقفنا نشاهد الماء.

شب... شب... شب...

كانت نفسها.

ذهب ماثيو إلى البحيرة الثالثة، وتابعنا جميعًا النظر إلى القطرات التي انزلقت برشاقة عبر الصخور، وعادت إلى البحيرة تحت تأثير الرطوبة في الكهف.

شب...شب...شب...

منعتُ نفسي من الذهاب إلى البحيرة الرابعة، وأصغيتُ بأذني بعناية.

شب... شب... شب...

عدَّ الجدُ بالعربية كما كان يوسف يعد: "واحد، اثنان، ثلاثة، ثلاثة، أربعة".

كان صوتُ الأرقام في الأذن مشابهًا جدًّا إلى درجة أنني عجزتُ عن الكلام حين أدركتُ ذلك، وتابعتُ النظر إلى القطرات المتساقطة على البحيرة. ومثلما عدَّ يوسف من أربعة إلى واحد مرة أخرى، عادت الدورة الصوتية إلى البداية.

أعجوبة الرياضيات!

تشكيل الصخور على السقف بهذه الطريقة، والسماح للقطرات بالتدفق وفقًا لانعكاس الأرقام في الأُذن، وفي نفس الوقت المحافظة على أن يبدو كل شيء طبيعيًا قدر الإمكان ومخفيًا بين البحيرات الأخرى؛ هي أمور تمثل نموذجًا بارعًا للاختراع والحساب والهندسة، ولهذا السبب تمكّن يوسف من حفظه بسهولة.

خلع ماثيو حذاءه وسترته، فسأله الجد: "ماذا تفعل؟".

بدا صوته وكأنه قد استيقظ من حلم... من يدري، كيف ربط الأمور بهذا الاكتشاف من خلال ما كان يقرأه لسنوات؟ لفترةٍ من الوقت، قمتُ بتدوين ملاحظة في ذهني للاستماع إلى ما يدور في عقلك.

قال ماثيو وهو يندفع في الماء دون خوف: "إنه هنا".

كانت البحيرة صغيرةً جدًّا لدرجةٍ لا يمكن لكائن حي أن يعيش فيها، وكان الماء يصل إلى فوق ركبتيه بقليل، فقلتُ لنفسي إنني إذا دخلتُ فمن المحتمل أن يصل الماء إلى خصري، علمًا أن الخوف سيتملكني لو كنتُ سأدخل مثله.

رفعَ رأسهُ ونظر إلى حيث تقطر المياه؛ كانت القطرات تتساقط من أماكن مختلفة باتجاه عقارب الساعة. ولحسن الحظ، كنتُ أعرف

الأرقام العربية ويمكنني أن أتابع الإيقاع؛ واحد، اثنان، ثلاثة، ثلاثة، أربعة.

ثم عاد الإيقاع حيث بدأ: واحد، اثنان، ثلاثة، ثلاثة، أربعة.

انحنى ماثيو بالضبط حيث سَقطت القطرات ذات الإيقاع ثلاثة ثلاثة، وغمسَ يديه في الماء.

"تسقط هنا مرتين، وكأنها إشارة؛ لا بدّ أنه موجود هنا".

بعد أن تحسس الموضع قليلًا بيديه هزّ رأسه قائلًا: "لا يوجد شيء غير الرمال التي تحولت إلى حجارة".

أصرَّ الجد: "انظر أكثر يا بني"، ثم قال بضع جمل أخرى باللغة الإسبانية.

التفتَ ماثيو إليَّ وقال: "أنا بحاجة إلى شيء صلب مثل حجر".

نظرت حولي على الفور، وكأنني مساعد في غرفة العمليات، فلفتت انتباهي الحجارة ذات الأشكال المختلفة التي سقطت من الجبل عند باب الكهف. وبعد أن التقطت بحماس حجرًا مدببًا بحجم اليد لمحتُ غصن زيتون جاف، فأمسكتُ به بقوة وقطعته، وهكذا حصلتُ على عصا مدببة.

ركضت إلى الداخل وأعطيته ما وجدته، فأخذه مني وركز على عمله بجدية؛ حيث بدأ في الحفر بقوة كبيرة في الموضع الذي سقطت عنده ثلاث قطرات. بدأت الأمواج تتناثر في كلِّ مكان من شدة الحفر، حتى أُصبنا جميعًا بالبلل، فعدنا بضع خطوات إلى الوراء. وكان يوسف يشاهد الأمواج وكأنه مفتون... أرادَ القفز، ولكنه كان خائفًا، فحملتُه بين ذراعيَّ وتأكدتُ من بقائه بعيدًا عن الماء.

عند سماع صوت "طاااق"، رمى ماثيو الحجر الذي بيده بعيدًا، ثم غمس كلتا يديه في الماء، بينما انتظرنا للحظات بدت وكأنها أبدية.

وعندما تغيرت تعابير وجهه أدركتُ أنه وجد شيئًا، وسرعان ما خرج من الماء واتجه نحونا حاملًا بيده صندوقًا صغيرًا من الرُخام الأبيض.

نظرنا على الفور إلى يوسف، فوجدناه مشغولًا بالأمواج الكبيرة للبحيرة التي لفتت انتباهه أكثر.

قلَّبَ ماثيو الصندوق ثم أعطاه إلى الجد؛ كان من الرخام الأبيض العادي، بدون نقوش أو رموز أو كتابات عليه، ولم يكن واضحًا مكان فتحه أيضًا، كان مثل كتلة مسطحة من الرخام. ولكن عندما تركتُ يوسف وأخذتُ الصندوقَ في يدي، أدركتُ أنه إذا كان كله رخامًا، فسيكون أثقل، وبالتالي لا بدّ أنَّ هناك شيئًا مخبأً بداخله.

كان على حافته قطعة رخامية صغيرة ناتئة، وكأنها زر... دفعت، سحبت، لم يحدث شيء.

قال ماثيو: "ثلاثة عشر"، ثم تابع موضحًا وهو ينظر إليه: "مجموع الأرقام".

كان على حق؛ ينبغي أن تعني الأرقام شيئًا. قلتُ وأنا أفكر بصوتٍ عالٍ: "باتجاه عقارب الساعة"، ثم دفعته إلى اليمين فدار الزرُّ الرخامي. كدتُ أصرخُ من فرحي! قلبته ثلاث عشرة مرة، فصدر صوت فرقعة على سطحه الرخامي، وفُتح بسهولة من خلال دفع الغطاء. كان صندوقًا مثاليًا مصنوعًا بطريقة تمنع دخول الماء إليه.. مثل صندوق باندورا.

حبستُ أنفاسي عندما رأيتُ آلية دائرية بحجم يدي، بينما مد الجد يده ببطء وأخذها بيده ثم رفعها نحو الضوء.

صفق يوسف بيديه وهو ويصرخ فرحًا: "الإسطرلاب! الإسطرلاب!"، ما جعلني أقفزُ من الخوف للحظة، وأنا أشعر بأنني أسيرةٌ لقوة تلك اللحظة.

قال مضيفًا المزيد من الحماس إلى حماسه: "واحد، اثنان، ثلاثة، ثلاثة، أربعة! يجب القبض على الأسد! يجب القبض على الأسد!".

لم أستطع تحويل نظري عن الإسطرلاب؛ نعم... كان إسطرلابًا مثل الإسطرلابات التي رأيتها في المتاحف، ولا يفرق عنها.

يُعرف الإسطرلاب باسم حاسوب العصور القديمة، ويُستخدم لإجراء القياسات الفلكية وتحديد مواقيت الصلاة وإيجاد الاتجاهات. إذا كان بإمكان هذه الأداة الصغيرة فعل أي شيء، فهل من الممكن أن تصبح آلة زمن كونية؟

ارتجفتُ عندما كرّرَ يوسف الشعار الذي نحته السلاطين الناصريون في جميع أنحاء القصر: "لا غالبَ إلا الله".

الفصل الثامن

يوم الجمعة 27 تموز/ يوليو من عام 2018م

لم أستطع اليوم التركيز على الخطب التي اعتدتُ على الاستماع إليها وتدوين صفحات من الملاحظات حولها، فكل الأعمال التي عُرضت لم تكن توازي ما رأيتُه وعشتُه.

كان الجد متحمسًا من فكرة الحصول على نسخة قديمة من الإسطرلاب الذي قرأ عنه كثيرًا. فتحنا بعض الكتب التي خطرت ببالنا من مكتبته الكبيرة وقارنّا الإسطرلاب بأمثلة معروفة، فعملنا لساعات ونسينا حتى أن نأكل؛ كنا بالفعل منهكين للغاية من المشي، لأننا بعد أن وَجدنا الإسطرلاب، عدنا إلى المنزل وانغمسنا بالعمل على الفور.

خلال كل المراحل، كان الجزء الأصعب هو إبقاء يوسف مشغولًا، كان جائعًا ومتعبًا. جعله الجد يتناول الطعام على الفور، ثم وضعتُه في غرفة أخرى لينام عندما بدأ ماثيو واثنان منهم العمل في المكتبة. بعد التأكد من أنه آمن ومريح، حاولت أن أتعلم شيئًا ما باتباع أساليب الجد، الذي شارك في أبحاثه وكان أكثر خبرة منا جميعًا، وماثيو، الذي كان أكثر خبرة مني ولديه معرفة كاملة من هذه الثقافة.

وضعوا الإسطرلاب على طاولة العمل الخشبية، والتي من الواضح أنها إرث عائلي، وقرَّبوا منه مصباح الطاولة، ما جعل التفاصيل أكثر وضوحًا. وبهذه الطريقة، أَمكنَهُم المقارنة بمزيد من الدقة مع الأمثلة القديمة والمعاصرة. وكانوا عند منتصف الليل لا يزالون حيث تركتهم، حين أدركت أنني نمت في زاوية من الأريكة مع كتاب في حضني.

ظل ماثيو هادئًا طوال الطريق أثناءَ إيصالي إلى الفندق الذي أقيمُ فيه، وكان هذا شيئًا غريبًا إلى حدٍ ما بالنسبة لشخص صريح، والواقع أنهم كانوا متوتّرين جدًّا؛ إذ لم يكن في الإسطرلاب ما يجعله مختلفًا!

توقف ماثيو عندما وصلنا إلى نافورة الثور (فونتانا ديل تورو)، وأشار إليّ كي نجلس على مقعد مقابلها. كنت أعتقد أنه سيأخذني إلى الفندق على الفور، ولكن ربما سيسمح له الجو الهادئ في المكتبة، حيث لا يزال الجد يعمل، بإلقاء نظرة إلى بحث الجد من منظور آخر مختلف عندما يعود.

"هل سنحت لكِ الفرصة بمشاهدة نافورة الثور؟".

هززت رأسي نفيًا، فعلى الرغم من كون الفندق الذي مكثتُ فيه قريبًا جدًّا من هنا، إلَّا أنني كنت أمرُّ دائمًا بسرعة ولم أشاهدها.

كانت النافورة مضاءة الآن بشكلٍ جميل في عتمة الليل.

"نعم، نمر بأمور غريبة جدًّا، لدرجة أننا ربما نتجاوز بعض الأشياء رغم أهميتها، تمامًا كما فعلتِ أنتِ".

"أنتَ على حق، لكنني لا أعتقد أن هذه النافورة لها علاقة كبيرة بمجال عملي"، قلت ذلكَ وأنا أُفكر في الفترة التي بُنيت فيها خلال العصر المسيحي كما أعلم.

"هل فكرتِ يومًا لماذا اختاروا شكل ثور لتزيين هذه النافورة؟".

واصلَ الشرح بعد أن التزمتُ الصمت: "في العصر الإسلامي، كانت الزخارف النباتية شائعة أكثر من الأشكال الحيوانية. حتى...".

توقف فجأة، ورأيت الضوء يتغير في عينيه، وملامحه تتبدل، وقد ظهرت على وجهه تعابير الألم والمفاجأة، كما لو أنه طعن للتو في ظهره.

"نافورة السباع"...

هززتُ كتفي وأنا أتساءل لماذا فوجئ لهذا الحد؟ اختار محمد الخامس الأُسود (السباع) تحديدًا، ووضع هذا النافورة الرخامية الفاخرة، حيث تتدفق المياه من أفواه اثني عشر أسدًا، في وسط قصره، وأعطى الرسالة التي أراد إيصالها. ما علاقة ذلك بنا؟

عندما سألَني: "ماذا قال يوسف؟"، توقفت ثم عبستُ قائلة بالعربية: "واحد، اثنان، ثلاثة، ثلاثة، أربعة؟".

هزّ رأسهُ قائلًا: "الأسد الذي يجب الاحتفاظ به".

يبدو أن ما قاله بصوت عالٍ قد سحره لدرجة أنه لم يستطع إلا أن يكون متحمسًا.

"أقولُ أسد! لابدَ من وجودِ علاقة بالنافورة التي على شكل أسد! لأنه لا يوجد أسد في مكان آخر! لابدَ من وجود علاقة لها بعمل

الإسطرلاب. أعتقد أنه بمجرد وصولنا إلى المنزل، يجب أن نوجه أبحاثنا أنا وجدي إلى علم الفلك!".

أصبحَ ما قاله فجأة منطقيًا لدرجة أن الحماس انتقل إليَّ أيضًا. بعد أن أوصلني إلى الفندق واندفع عائدًا، أخذتُ أمشي ذهابًا وإيابًا في غرفتي، متسائلةً عما إذا كانوا قد توصلوا إلى نتيجة.

أثناء تناول القهوة في الصباح قبل الندوة، جاءني ماثيو بهدوء وتحدث بنبرة منخفضة قائلًا: "سيكون هناك خسوف للقمر الليلة".

لا يعقل ذلك!

أضاف: "اليوم هو اليوم الذي نحظى فيه بأفضل حظ، فهناك خسوف دموي للقمر، وسيكون أطول خسوف للقمر في القرن الحادي والعشرين، إذ سيستغرق أكثر من ساعة".

شعرتُ بالحاجة لأخذ رشفة من قهوتي، ثم تساءلت: "ألا يُمكن أن يكون الكسوف الذي تحدث عنه يوسف كسوفًا آخر؟".

أصدرَ زفيرًا بصوتٍ عالٍ بعض الشيء وقال: "هذا واردٌ بالطبع، فربما قاموا بضبطه حتى مع كسوف زحل! لا يمكن أن نعلم، لأنه من المستحيل معرفة ذكائهم ونظام تفكيرهم".

كنا نمضي بشكل جيد حتى الآن، ونحقق نجاحًا في فهم ما قاله يوسف أكثر مما توقعت.

"أظن أن الإسطرلاب تم تصميمه ليتأثر بالأحداث الكونية القوية، وربما ينشطه كسوف الشمس. علينا اختبار ذلك الليلة".

لم يكن بحاجة حتى لإقناعي، فأنا لن أحصل على فرصة كهذه مرة أخرى في حياتي، وكنتُ متحمسةً للأمر بالتأكيد لأرى إلى أي مدى سيصل بنا.

أخبرني قائلًا: "يبقون حدائق القصر مفتوحة حتى العاشرة مساءً خلال فصل الصيف".

بعد لحظات سمعنا رنين الجرس الصغير للإعلان عن بدء الندوة، فأخذنا أماكننا في القاعة مع الجميع.

مع كل دقيقة تمر، كنت أشعر بالانفصال أكثر فأكثر عن أحاديث الندوة، وكنت أتطلع إلى المساء. وكان توتري الناجم عن الإثارة والفضول يتزايد، مما تسبب في حصول تشنج في معدتي.

لا بدّ أن ماثيو كان يفكر بنفس الأمر مثلي، إذ كان يجلس بجواري متظاهرًا بتدوين الملاحظات في دفتره، لكنه كان في الواقع يخربش رسومًا متنوعة. لم يكن بالإمكان معرفة ما الذي يفكرُ فيه من تعابيره، لأن شعره المجعّد يغطي وجهه.

كانت القاعة مظلمة للغاية بالفعل، وكنتُ سعيدة لأن الناس لا يستطيعون رؤية وجوهنا.

أثناء استراحة الغداء تحدثنا حول كيفية بقائنا في المساء؛ كانت الحدائق كبيرة جدًّا، ولن يكون من الصعب الاختباء. والحقيقة أن هذا هو الجزء السهل أصلًا، ولكن السؤال كيف يمكننا تشغيل الإسطرلاب؟

قال ماثيو: "يعمل جدي على هذا الأمر، وسيصل الى شيءٍ ما بالتأكيد".

تمنيتُ ذلك أيضًا.

كان الجد، خلال وجودنا في الندوة، يقوم بالبحث، ويعتني بيوسف... وبالنظر إلى عمره، بدا بالتأكيد صلبًا تمامًا، وذلك لأنه، على ما أعتقد، مدفوع بإثارة وفضول لا نهاية لهما.

أما بالنسبة إليّ، فإن المحادثات المستمرة مع الطفل باللغة العربية جعلتني أتقدم كثيرًا، حتى أنني حصلتُ خلال هذه الفترة على معلومات أكثر مما حصلت عليه لعدة أشهر.

في المساء، ذهبتُ إلى فندقي، وتحدثتُ مع عائلتي، ثم تخلصتُ من بدلتي وارتديتُ ملابس مريحة للمغامرة، والأهم بينها هو حذائي الرياضي. كان قصر الحمراء مسارًا شاقًا يستغرق وقتًا طويلًا للسير من طرف إلى آخر، ولهذا السبب كان يستحق عناية إضافية.

شعرت أن خسوف القمر الليلة أثار حماسي، على اعتبار أني أعتقد بالكواكب وعلامات الأبراج وتأثيرها على الناس. كان الأمر كما لو أن الكواكب ستقيم وليمة الليلة لنا، ويمكننا مشاهدتها من الصف الأمامي، من حديقة قصر الحمراء الرائعة.

الإسطرلاب، يوسف، السفر عبر الزمن، ذلك المكتوب... لم يكن يهمني أي شيء، فمشاهدة هذا الحدث من هنا ستكون ذكرى لا تُنسى بالنسبة إليّ.

الساعة التاسعة والنصف مساءً، وقبيل إغلاق الحدائق، كانت أيدينا وأقدامنا ترتجف خوفًا عندما دخلنا البوابة السفلية للقصر، ويوسف بين أذرعنا. وكانت نشعر بالجفاف في أفواهنا، وكأن جفاف ليلة

الصيف الحارة هذه لا يكفي، فأخذنا نشرب الماء باستمرار من زجاجات الماء التي وضعتها في حقيبة الظهر مع أشياء أخرى اعتقدت أن يوسف قد يحتاجها. أما حقيبة اليد الصغيرة التي علقتُها بالعرض فكانت لاحتياجات أكثر إلحاحًا مثل جواز سفري.

عندما وصلنا قبل نصف ساعة من إغلاق الحدائق، بدا وكأن الحارس عند البوابة يعترض، فأظهر ماثيو بطاقة عمله، وبعد محادثة قصيرة مع الموظفين سمحوا لنا بالدخول.

كان الخسوف قد بدأ بالفعل في تلك اللحظة، ويُتوقع أن يصل إلى ذروته في غضون ساعة، حيث سيبقى القمر الأحمر حتى الساعة الحادية عشرة والنصف.

توجهت المجموعات السياحية التي رأيناها من بعيد نحو المخرج، أما نحن فاختبأنا داخل حجرة العرش بينما كان حراس الأمن يتجولون في كل مكان، وقد تمكن ماثيو من إسكات يوسف بالقول له إننا نلعب لعبة الصمت.

وبما أن القصر كبير جدًّا، لحسن الحظ، فإن المسؤولين عنه تفقّدوه بنظرة خاطفة، إذ كان الجميع يرغبون بالعودة إلى المنزل في أسرع وقت ممكن مع حلول المساء، وهو ما سهَّل مهمتنا.

شعرتُ بالخوف عندما أغلقوا أبواب بهو السباع من الخارج، حيث غرفة العرش. أشار ماثيو إلى النوافذ المحاطة بالزخارف البيضاء، ولكن لم يكن لديّ أدنى نية للقفز من فوق برج غرفة العرش، لذا هززت رأسي في رعب.

همس قائلًا: "لا تقلقي، الفناء الجانبي على مستوى النافذة، ويمكننا الخروج من هناك عندما ننتهي من عملنا".

شعرتُ بالارتياح عند التفكير في الفناء الجانبي، وأثناء انتظارنا ترقبًا لما سيحدث، نظرتُ إلى هاتفي لأعرف الوقت، وحين أضأتُ الشاشة في الظلام، لفت ذلك انتباه يوسف على الفور... لقد بدت الأجهزة التكنولوجية وكأنها تبهره على أي حال.

أصبحت الساعة العاشرة والنصف، وبات القصر لنا الآن!

كانت بعض الأضواء المستخدمة لإنارة القصر من الخارج تسقط على حجرة العرش، ما جعل الزخارف اللامتناهية أكثر دراماتيكية تحت الضوء بالتضاد مع الأماكن المظلمة.

أبعدت نظري عن زوايا الغرف الأخرى، التي لم تظهر تفاصيلها، وتفحصت الزخارف والآيات المنحوتة على الجُدُر، وتلك التعرجات على قرص العسل التي حبسَت أنفاسنا.

انزلقنا ببطء إلى الفناء بخطوات خائفة، فامتلأ أنفي في البداية برائحة أشجار البرتقال والياسمين المذهلة، ثم فتحتُ فمي مدهوشة من المنظر الذي رأيته؛ بدا القمرُ وكأنه مصباح معلق فوقنا، ينير كل شيء بلونه الأحمر الخافت، وبدت المياه المتدفقة من نافورة السباع وكأنها بلون العاج. كانت الباحة الرخامية والأُسود رائعة ومميزة للغاية تحت ضوء القمر لدرجة جعلت عينيَّ تمتلئان بالدموع.

هذا الثقل في الهواء، وهذا الغموض معه، خلقا جوًا مناسبًا للملوك. كانت الأعمدة المحيطة بالفناء والمنحوتة بعناية جميلة

للغاية... لن أنسى أبدًا هذه اللحظة، وستبقى كلّ التفاصيل محفورة في ذهني، طوال حياتي.

ذهلت أكثر حين سمعت صوت يوسف يقول: "ولا غالبَ إلا الله!". فحملته بين ذراعي وداعبت خديه الجميلين.

"نعم يا يوسف، ولا غالبَ إلا الله. سنعيدك إلى المنزل، أيها الأمير الصغير".

عندما رأيت الحزن في عينيه السوداوين الكبيرتين، أمسكتُ نفسي بصعوبة كي لا أبكي.

نظرنا سويًا إلى الغرف حول الفناء، وكنتُ متوتّرة لأن نور القمر لم يضئ الداخل. لم يكن هناك سوى صوت الماء في البحرات، والقليل من ضجيج مدينة غرناطة الذي يصل إلى غرفة العرش. ولكن نظرًا لأن الفناء كان عميقًا في الداخل، فقد كان منعزلًا تمامًا وفريدًا.

تذكرتُ، لسببٍ ما، صوت السلاسل الذي كان يُسمع في بهو السباع ليلًا، والأشباح التي رآها المسيحيون في القصر، كما روى إيرفينغ في الجزء من كتابه الذي يتحدث فيه عن الأساطير.

كانت قاعة الشجعان بجانب غرفة العرش، حيث يقال إن أصوات الذين قُتلوا بقطع رؤوسهم هنا كانت تسمع أيضًا، فارتجفتُ وحاولت إبعاد قصص الأشباح من ذهني.

"الوقت ينفد!".

قفزتُ عند سماعي صوتًا آتيًا من خلفي مطلقةً صرخةً صغيرة، فأخفت يوسف أيضًا وأثرتُ غضبه. بعد أن قلت له بضع كلمات مهدئة

وصرفت انتباهه بالأُسود التي في النافورة، التفتُ إلى ماثيو قائلةً: "لقد أَخفتَني".

ابتسم بشكلٍ شرير وأجاب: "يبدو أنكِ قد سافرتِ عبر الزمن بالفعل، لذا أردتُ أن أعيدك". كانَ يحاول جاهدًا ألا يضحك على نفسي المرتعبة.

سألته: "كم تبقى لنا من الوقت على أي حال؟".

نظرت إلى القمر الدموي، كان لونه القرمزي رائعًا؛ قمرٌ ضخمٌ يذكرنا بملصقات أفلام الرجل الذئب.

قال بجدية: "ليس لدينا الكثير من الوقت".

جعلني أشعر بأنني محاصرة، فقلت: "أتمنى لو كان الجد معنا، لكان بالتأكيد سيخمّن ماذا نفعل".

ابتسمَ بخيبةِ أمل، وتكلم بطريقة الجد ونبرة صوته: "قالَ إنه كبير في السن على هذا وإن قلبه لن يتحمّل".

ثم أضاف: "يقول جدي المهووس بالرقم سبعة إنه ليس من الصدفة أن يكون يوسف موجودًا تحت حجرة العرش".

كانت غرفة يوسف أسفل غرفة العرش مباشرة، وعندما جرى تزيين السقف الفاخر للغرفة، كانت الزخارف تمثل الطبقات السبع من السماء.

قال يوسف: "ولا غالبَ إلا الله". فنظرتُ إليه وقد فقدتُ تركيزي.

بينما قال ماثيو مشيرًا بيده إلى الأمير الصغير: "هناك أيضًا هذا الطفل بالطبع".

سألته: "وهل هو شعار بني الأحمر؟".

عندما بدأت دولة بني الأحمر، تحكم غرناطة، اختار سلاطينها هذا الشعار لأنفسهم، وكانوا يكتبونه على أعلامهم وعلى كُلِّ ركنٍ من أركانِ القصر.

كان بناء هذا القصر يحمل مغزى كبيرًا عندما تم فتح قرطبة وإشبيلية عاصمة الأندلس، لذلك اختارت الدولة الإسلامية حديثة النشأة عبارة "لا غالبَ إلا الله"، كي تُذكرهم بسلفهم طارق بن زياد الذي فتح الأندلس عام 711م، فلا يبتعدون عن طريقه، وفي الوقت ذاته ينأوون بأنفسهم عن التكبُّر.

لم يغادر هذا الشعار لسان يوسف. ربما كان يجب أن يعني شيئًا ما، ولكن ما هو؟

قال ماثيو: "يقال إن الشعار كُتب 70 ألف مرة في جميع أنحاء القصر".

عَبستُ وسألتُه: "هل هذا صحيح أم إنها أسطورة؟".

مرَّرَ يدهُ خلال شعره بعناية وأجاب: "لا أعرف، لا أعتقد أن أحدًا قام بالعدِّ، ولكن إذا كان الأمر شائعًا، فقد يكون هناك بعض الحقيقة فيه".

أطلقتُ زفيري بصوتٍ عالٍ: "رقم سبعة مرة أخرى!".

نظرتُ حولي، كان مكانًا هادئًا للحد من التوتّر، حيث يبدو من المريح الجلوس جانبًا والتأمّل في الأمور الفلسفية والصوفية، والقراءة والانغماس في الأفكار.

كانت الأندلس في العصور الوسطى مختلفة بالتأكيد.

خلال لحظة أخرجتُ هاتفي وقمت بتشغيل الآلة الحاسبة، ثم قلتُ: "أحتاج قلمًا وورقة!"، وكان صوتي مرتفعًا للغاية، فبدا ماثيو متحمسًا.

أَضفت: "يوجد قلم وورقة في حقيبة ظهري".

كان يوسف يحب الخربشة عندما يشعر بالملل، لذا أخذتُ دفترًا صغيرًا معي في حال احتجنا لإبقائه مشغولًا.

وجدَ ماثيو ما يريده في حقيبة ظهري على الفور، بينما أجريتُ البحث اللازم على الإنترنت وأكدتُ المعلومات التي بقيت في ذهني.

انحنيتُ على الأرض وتناولتُ حقيبتي، وعندما انحنى ماثيو بجواري، جلسَّ يوسف متحمسًا، معتقدًا أننا ربما نلعب لعبة.

فتحت صفحة فارغة، متخطية الخربشات على الصفحات الأولى من دفتر الملاحظات، وكتبتُ "لا غالبَ إلا الله" التي كانت منقوشة على نفس الجُدُر بأحرف عربية.

كانت الآلة الحاسبة تعمل كذلك، فقلت بصوت عالٍ: "ألف ومئة وثمانية وستون"، ثم شرحت ما أقصد: "وفق حساب أبجد، فإنَّ كلَّ حرف في الأبجدية العربية له قيمة عددية، لكنك تعرفُ ذلك بالفعل".

تساءلتُ وأنا أنظر إلى وجهه: "هل ستشرح لي الأمر بالتفصيل لاحقًا؟"، وعندما رأيتُ تعابير وجهه وقد بدا عليه الملل قلتُ موضحةً: "هذا هو المعادل العددي للشعار"، ثم استخدمتُ أصابعي بسرعة وأضفت: "الأرقام تصل إلى ستة عشر".

مرر يدهُ بعناية على ذقنه، وبعد بضع ثوان هزّ رأسه قائلًا: "هذا الرقم لا يعني شيئًا".

رفعتُ رأسي وأخذتُ أفكّر، في حين كان يوسف قد فقد الاهتمام وبدأ يلعبُ مرَّة أُخرى بتماثيل الأُسود الرخامية. كان يجب علينا مساعدة هذا الصبي... ولكن كيف؟

كبُرَ القمر الدموي الآن، وأضاء كل ركنٍ من أركان الفناء.

يوجدُ شيءٌ لم ألاحظه، ولكن ما هو؟!

في تلك اللحظة، رأيتُ أكبرَ شعارٍ في الفناء أمامي مباشرةً، فنهضت واقتربت ببطء؛ كانت مكتوبًا بالكامل في إطارٍ مزخرف فاخر. مررتُ يدي على النقوش، وتوقفتُ في نهاية الإطار.

"هتفتُ بحماس: "هذا ما نسيناه!".

ركضتُ عائدةً إلى النافورة وأضفتُ حرفًا آخر.

قلتُ لماثيو وأنا أشعرُ بنبضات قلبي في فمي: "لم نرَ حرف الهاء". تم استخدام حرفُ الهاء كثيرًا في النقوش في الإمبراطورية العثمانية، ومُثلَّت كلمة الله بـ "هو"، كما أن الحرف جميلٌ في الكتابة أيضًا، ويكمل الأبجدية.

"معه يصبح العدد ألفًا ومائة وثلاثة وسبعين".

حبسنا أنفاسنا، فالنتيجة كانت مُذهلة. ثم همست: "اثنا عشر".

عدنا إلى النافورة، التي كانت تُحيرُنا حول سبب اختيار الأُسود وقت بنائها ولماذا تم وضع اثني عشر منها. كل شيء أصبح منطقيًا الآن.

أوضح ماثيو: "نوقشت فكرة العدد اثنا عشر على نطاق واسع بين العلماء الأندلسيين أيضًا، لقد قرأت الكثير عن الموضوع".

"إنه يمثل اثني عشر كونًا".

وجَّهتُ نظري إلى الشيء الثقيل الذي كان يحملهُ في يده.

"لهذا السبب أخفوا الإسطرلاب لمدة ثلاثة عشر قرنًا. كانت الأُسود تمثِّل الكون الثاني عشر، والإسطرلاب يمثِّل الكون الثالث عشر".

وقفَ وقال بحسرة: "ذكرَ يوسف كلمة النبع".

يمكنني القول من اليقين والتصميم الذي بدا على أفعالهِ أن كلَّ شيءٍ كان واضحًا جدًّا في رأسه؛ لقد وجدها.

"أخذناه من النبع وسنقوم بإعادته إلى النبع".

ضغطَ الإسطرلاب في المركز الذي يتدفق منه الماء إلى الحوض الشبيه بالوعاء على ظهور الأُسود. بعد أن تحسّسه قليلًا بيده مقاوِمًا الماء، سَمِعنا صوت "طقطقة" الإسطرلاب الموجود في منتصف البُركة. سادَ الصمتُ لبضع ثوان في البداية، بينما سحب يدهُ ببطءٍ من الماء، ثم شعرتُ أن الأرض تهتز قليلًا.

أخذتُ يوسف على الفور داخل حُضني وابتعدتُ خطواتٍ قليلةً عن النافورة. ما الذي حدث؟ عشنا فجأة لحظات من الخوف بسبب أصوات المسنّنات والسلاسل التي تشبه الدراجات، وعُدنا بضع خطوات أخرى إلى الوراء.

مع أصوات الآلة الإيقاعية، كانت الفجوة بين الأُسود الحلقية تنفتح تدريجيًا، وكانت البِركة على ظهورهم تنخفض ببطء إلى الأرض. وفي غضون دقائق، باتت الأُسود في صفٍ واحد، وصار الماء الآن تحت سطح القمر مباشرة.

في تلك اللحظة، خرجَ الهواء بدلًا من الماء من أفواه الأُسود، وبدأت تصدر موسيقى إيقاعية. كان لحنًا قصيرًا جدًّا، عبرَ أُذنيّ وتردّد صداه في عقلي، فملأني بشعور من السلام، وذهب كل توتّري.

انحنيتُ نحو الأرض ويوسف بين ذراعيَّ، وأنا أسند رأسي إلى أحد الأعمدة في الفناء.

الرخام، روائح الياسمين، القمر الدموي، الأُسود... كل شيءٍ كان في مكانه، كما ينبغي أن يكون. أكملت هذه الموسيقى الدائرة، وبدأت الحلقة.

عندما أغمضتُ عينيَّ شعرت بنشوةٍ غريبة مستمرة ودوران متزامن مع الإيقاع في ذهني، وكأن روحي تخرج من الحياة الحقيقية، فبدأت أرى الصوفيين وهم في حالةٍ من النشوة.

مكتبة الطفل

t.me/book4kid

إحدى قنوات

مكتبة

الفصل التاسع

صيف 1368م

لم أتمكّن من فتح عينيّ على الفور بسبب الضوء القوي المفاجئ، وعندما اعتدت عليه ببطء، أدركتُ أنه ضوء القمر المنعكس على الرخام الأبيض، وتمكنت من تحديد العناصر المألوفة حولي؛ أعمدة بهو السباع، صوت الماء، رائحة الأشجار.

كان يوسف قد غرق في نوم عميق في حضني، وصدره يرتفع وينزل ببطء، أما ماثيو فكان بجانبي مباشرة، يستند بظهره إلى نفس العمود الذي أستند إليه. كنت على وشك أن أقول له شيئًا فأشار إليّ أن أصمت، من الواضح أنه لا يريد إيقاظ يوسف.

سمعنا خطى شخصين يتحدثان بلكنة عربية ثقيلة للغاية يقتربان باتجاهنا، ولحسن الحظ كانت الأصوات تأتي من الطرف الآخر للفناء. لم نكن وحيدين، إذ بقي معنا أشخاص آخرون في الليل، وعلى الرغم من إغلاق كل المداخل بإحكام، إلا أنهم تمكنوا من الدخول بطريقةٍ ما.

حذّرني ماثيو، فاختبأت قليلًا في الجزء الداخلي من الفناء، وأصبحتُ قادرةً على رؤية هذين الشخصين يدخلان من جانب ويمشيان الآن من أمامي إلى الجانب الآخر؛ كانا يرتديان ملابس تقليدية

طويلة من الرأس إلى أخمص القدمين، وكانت حواف هذه الملابس البيضاء مزينة بأقراص ذهبية متلألئة حتى في ضوء القمر، وعلى ظهريهما فقطانان من الحرير أحمر اللون بأكمام تصل إلى المرفقين، وتلف رأسيهما عمامتان بيضاوان ضخمتان. كانت بشرتهما داكنةً بعض الشيء، ولحيتاهما طويلتين، وحتى اللغة العربية التي يتحدثان بها لم تكن مشابهة للعربية التي اعتدت سماعها دائمًا.

همستُ قائلةً: "هل يصورون دراما تاريخية في قصر الحمراء هذا المساء؟".

هزّ ماثيو رأسه وقال: "لو كان هناك شيء من هذا القبيل، لعلمت به"، لم يستطع فهم الأمر كما فعلت، ثم قال: "يتكلم الرجال العربية الأندلسية".

هذه اللغة هي من النسخ القديمة للغة العربية، وبما أن النصوص مكتوبة بهذه اللغة، فإن معرفة العربية الحديثة غير كافٍ لفهمها؛ إنها لغة ثقيلة... أدركتُ الآن لماذا بدت لغتهم مختلفة جدًّا.

قال ماثيو: "ذكروا شيئًا عن محمد الخامس... لقد مرت فترة منذ سمعت آخر مرة أحدًا يتكلم هذه اللغة، ولكنني بدأت أعتاد عليها ببطء".

ابتعد صوت الرجال أكثر فأكثر، وغادروا الفناء. فنهضنا ببطء، وحين نظرنا حولنا لاحظنا شيئًا غريبًا؛ كانت النقوش على الجُدُر، وأحجار الرخام التي نقف عليها أكثر إشراقًا، بينما تفوح رائحة البناء وكأنه منزلٌ جديد.

سألتُ بصوتٍ خافت: "هل تم نصب خيمة الترميم مؤخرًا؟"، وتابعتُ قبل أن يجيب على سؤالي: "على أي حال، دعنا نخرج من هنا قبل أن يتم القبض علينا... لقد غلب النعاس الطفل".

كان يوسف يزداد ثقلًا بين ذراعي، ففكّرت أن أعطيه لماثيو لبعض الوقت. رفعت رأسي ونظرت حولي، ثم توقفت... لقد اختفت الأُسود الموجودة في بهو السباع!

أمسكت بذراع ماثيو بيدٍ واحدة، وصرخت قائلة: "أين السباع؟".

وجَّه نظره إلى حيث كنت أبحث، فبدت معالم الصدمة على وجهه، واتسعت عيناه.

نظرنا حولنا لنرى ما إذا كنا في الفناء الصحيح. نعم، بدا هذا المكان مثل بهو السباع، على الرغم من أن كل شيء بدا غريبًا وجديدًا للغاية.

سألتُ قائلة: "أين نحن؟"، ثم عانقتُ يوسف بإحكام بدافع الحماية، وبدأت أتعرّق... هل من الممكن...؟!

قال ماثيو: "لقد نجحنا، لقد فعلناها".

قفزنا من الرعب إثر صوتٍ عالٍ جاء من ورائنا، وصاحبت أصوات البكاء صيحتنا. اختفى ماثيو فجأةً عن عيني، ودُفِعتُ إلى منتصف الفناء الفارغ، حيث كان أربعةُ رجالٍ كبار يصرخون بوجهنا وسيوفهم مُوجَّهة في انسجام تام. وبالنظر إلى لغة جسدهم، لم يكن ما يقولونه مطمئنًا لنا. حاول ماثيو حمايتنا خلفه، لكنَّ الرجال كانوا يحيطون بنا من كل جانب، ودروعهم تشرق كالشمس نتيجة انعكاس ضوء القمر.

شعرتُ وكأنه سيُغمى عليَّ، لكن لا، فكّرت في نفسي أنه ليس الوقت المناسب. استمروا في الصراخ لبضع ثوانٍ مخيفة، فاستيقظ يوسف في حضني من نومه، وارتعب من المنظر الذي رآه، وبدأ يبكي وهو ينفث الهواء من رئتيه، وهنا سكتَ الرجال للحظة بعد أن انتبهوا للصبي، ثم بدأ الرجل الذي كان نمط قلنسوته مختلفًا عن الآخرين في الكلام.

كان الرجل أمام ماثيو، فالتفتُّ نحوه ووقفت بجوار ماثيو، ولم يكن لديَّ خيارٌ حينها سوى الدعاء حتى لا يفعلوا بنا أيَّ شيءٍ.

رفع ماثيو يديه محاولًا إظهار كونه غير مسلحٍ وغير مؤذٍ، ومحاولًا كسب الوقت أيضًا، وقال له: "نحن غريبان".

في الواقع، أدرك الرجل أننا غرباء قبل أن نخبره، بعد أن سمعَ لهجتنا، ورأى مظهرنا الخارجي.

سأل الرجل: "من أين أتيتما؟".

لم يعلم ماثيو ما يقول، فنظر حوله بسرعة، وبدوري لم أكن أعرف في أي عامٍ نحن، لكنَّ نافورة السباع لم تكن موجودة بعد، بل كان هناك الفناء فقط، وفي هذه الحالة، لا بدّ أننا في الفترة بين عامي 1362م و1391م، عندما كان محمد الخامس على العرش، لأن هذا الفناء بُني في فترة ما بين هذين التاريخين، لذلك خاطرتُ وقلت بلهجتي العربية: "من الدولة العثمانية".

نظر الرجل باستنكار إلى سروالي الجينز وحذائي الرياضي، وأخيرًا شعري البني الغامق الذي يطالُ كتفي.

قال ماثيو فجأةً: "سرقة! سُرقت ممتلكاتنا في الطريق".

كنتُ سعيدة لأنه حاول أن يجد تفسيرًا منطقيًا، لكننا سنرى ما إذا كان ذلك كافيًا ليفسر بنطال الجينز وشعريَ القصير المتناسب مع القرن الحادي والعشرين.

أومأ الرجل برأسه إلى الثلاثة الآخرين، الذين أدركتُ أنهم حراس، وأمرهم بإنزال سيوفهم، وكنتُ بدوري أحاول إسكات يوسف وإيقاف بكائه.

بدأ الرجل يتحدث ببطء حريصًا على إيضاح الكلمات، وسألنا: "من أنتما؟" وأضاف عابسًا بحاجبيه العريضين: "هل أنتما عميلان؟".

بدأ ماثيو على الفور بتحريك رأسه يمينًا ويسارًا، وكانت يداه لا تزالان في الهواء، وقال: "تم إرسالنا إلى هنا"، ثم التفت إليَّ وقال: "أختي مانوليا تدرس الطب".

لم أكن أعرف شيئًا عن الطب.

وأضاف: "وهذا أخي الصغير يوسف... نحن أيتام".

أراد الرجل أن يختبر صحة ما قلناه، فسألني وهو يحدِّق إليّ بشكلٍ مريب: "وأنتِ؟".

أجاب ماثيو: "أنا أحضرتهما إلى هنا، أريدُ أن أصبح جنديًا".

ضحك الرجل بشدة لدرجةٍ أخافتني، وقال شيئًا لم أفهمه تمامًا عن عمرنا وعن عدم كلامنا بلغتهم بشكلٍ صحيح، بينما حاول ماثيو إقناعهم بأنه يمكنهم بالتأكيد الاستفادة منا.

أومأ الرجل برأسه، وقال أخيرًا: "ما اسمكَ؟".

إذا أخبره ماثيو اسمه الحقيقي، فقد يكشف أننا من دينٍ مختلف أو أننا إسبان. كنتُ آمل ألَّا يرتكب مثل هذا الخطأ، إذ يمكن أن يقطع هؤلاء الرجال رؤوسنا.

أجاب ماثيو: "تاركان".

لولا الخوف من الوضع الذي نحن فيه، لكنت انفجرتُ ضحكًا.

قال الرجل: "أنا عبدالله. سيأخذون أخويك إلى المدرسة، ولتأتِ أنتَ معي".

لم أرغب بمفارقة ماثيو، ونظرتُ إليه في ذعر، فأومأ برأسه وكأنه يشجعني... لماذا لم يقل إنه يريد الذهاب إلى المدرسة أيضًا؟ كانت منطقة الجنود في نهاية القصر، حيث سيكون من المستحيل بالنسبة إلينا أن نجتمع... كيف كنت سأحمي يوسف وحدي؟

قال وهو يغادر مع الرجلين: "سأجدك".

نظرتُ إليه بعينين خائفتين... وفي تلك الأثناء تكلم رئيس الحراس بسرعةٍ كبيرة، فأخبرته أنني لم أفهمه، لذا صار ينطق الكلمات واحدةً تلو الأخرى وكأنه يتحدث إلى طفل: "لا تخافي، أنتم ضيوفنا".

هل قال ماثيو خلال محادثته معهم أننا مؤقتون هنا؟ قدمتُ للرجل شكري دون إظهار العبوس على وجهي. كنتُ خائفة، ولكنه بدا شخصًا لطيفًا، وعلى الرغم من أن ندوب الحرب الصغيرة على وجهه وذراعيه وبريق الذكاء في عينيه جعلته يبدو أكثر نضجًا بالنسبة إلى سنّه، إلا أنَّه في الواقع بدا أصغر مما توقعت، كان على الأرجح في الثلاثينات من عمره. ومع أنه حافظ على مسافةٍ بيننا، لكنه أظهر لطفه ولباقته. كان من

المعروف أن الأندلسيين مضيافون للغاية، خاصة تجاه القادمين من البلدان الإسلامية الأخرى، وفي الوقت نفسه، وبالنظر إلى مدى شراستهم تجاه أعدائهم، فأنا سعيدة لأننا تخلصنا من تهمة العدو أو العميل. لكني لم أستطع أن أرخي دفاعي بعد، فقد كنتُ أشعر بالضيق، وربّتُّ على رأس يوسف لتلطيف الجو. ثم لمس أحد الحراس ذراعي، وعندما التفتُّ إليه أشار إلينا بأن نبدأ السير.

ما رأيته وأنا أسير كان بمثابة درسٍ حيٍّ في التاريخ بالنسبة لي، إذ كانت معظم الأفنية التي مررنا بها إما حديثة البناء أو تم ترميمها، وعلى الرغم من أننا كنا نسير في الليل، فقد انتبهتُ جيدًا لجميع الزخارف غير المكتملة على الجُدُر والتي من المحتمل أن يستمر العمل فيها صباح الغد، وإلى الأنماط الموجودة على رؤوس الأعمدة. كان من المذهل أن أتمكن من رؤيتها بهذه الطريقة، هل كنتُ هنا حقًّا؟

غادرنا الجزء الخاص بعائلة السلطان من القصر، ولحسن الحظ لم يسأل أحدٌ عن كيفية دخولنا. في الواقع، أعتقدُ أن ماثيو كان سيختلق بعض التفسيرات لهذا الأمر أيضًا.

كان يوسف شديد القلق في حضني، فقد حلَّ وقت نومه بالفعل، وكان ينظر حوله بعينيه الحمراوين الباكيتين، فبقيتُ أهمس له بكلماتٍ مهدئة من وقت لآخر علها تساعده على النوم.

قبل بلوغنا المنطقة العسكرية مباشرة، وصلنا إلى الجزء الذي يوجد فيه القصر الذي بناه تشارلز الخامس لاحقًا. يوجد هنا مسجد تتطابق مئذنته الضخمة المستطيلة الشكل، والمصنوعة من

الحجر الأحمر المماثل في اللون لقصر الحمراء، مع مئذنة مسجد قرطبة الكبير.

كان الفناء الذي يقع فيه المسجد محاطًا بأشجار خضراء ضخمة ولبلابٍ عبق، وكانت هناك منازل صغيرة وحمَّام مجاور لجدار الفناء، مررنا من أمام الحمَّام، فتذكرتهُ جيدًا، حيث لا يزال من الممكن زيارةُ قسمٍ منه في وقتنا الحاضر.

بدَت المنطقة كبيرة جدًّا، حيث بُنيت قريةٌ صغيرةٌ بجوار المكان الذي كان يعيش فيه السلطان داخل أسوار القصر... أعتقد أن حرس القصر والعاملين فيه كانوا يعيشون في هذه المنازل.

وصلنا إلى مبنى مشابه لمنزل عائلة ماثيو، فملأت أنفي رائحة الياسمين التي تفوح من العرائش المحيطة بالباب.

طرق الحارس الباب الخشبي الكبير بمطرقته الحديدية، فتعرَّف الرجل الذي فتح الباب إلى الحارس فورًا. تمعنتُ بالرجل وهم يتحدثان فيما بينهما بحرارة ويحدِّقان بنا من حينٍ لآخر، كان رجلًا طويل القامة، لحيته طويلة، ويبدو في أواخر العشرينات من عمره. وعندما تقدمتُ خطوةً إلى الأمام، رأيتُ ملابسه المتواضعة؛ كان نموذجًا للشاب الأندلسي الذي لطالما تخيّلته في ذهني، مرتديًا ثوبًا قطنيًا أبيض بالكامل مع خنجرٍ صغيرٍ مثبت على خصره، مع حزامٍ مطرزٍ، وعمامةٍ بيضاء على رأسه.

فتح الباب ودعانا للدخول، فخطوتُ إلى الداخل بما أنَّه لم يكن لديَّ خيارٌ آخر، مررنا ببركة الزينة الصغيرة ودخلنا قاعةً متواضعة، حيث

الجو بارد جدًّا في الداخل. كانت الأرضيات مبلطة، وهناك أريكة ووسائد مريحة على سجادة رائعة، وكان المكان مُنارًا بالشموع بالكامل.

أتت من الداخل فتاةٌ طويلة، بعمري تقريبًا، ذات بشرةٍ داكنة، وشعرها الأسود المغطى بشالٍ من الحرير يصل إلى خصرها. كان ثوبها الحريري الأرجواني مطرَّزًا بزخارف أزهار مختلفة من العنق إلى الحواف، وكانت القلائد الفضية التي ارتدتها في طبقات حول رقبتها تكمل أقراطها الفضية المتدلية. بينما كانت الخرزات على خصرها تُصدر صوتًا حين تُحرك حزامها المتدلي. تلك أول سيدةٍ أندلسيةٍ أراها، وهي فتاة جميلةٌ جدًّا برموش سوداء طويلةٍ وملامح ناعمة.

قال الرجل: "أنا حمزة"، وأشار إلى الأريكة فجلسنا، ثم قال مشيرًا إلى الفتاة الجالسة بجانبه: "زوجتي صفيّة".

فاجأتُهم ببنطال الجينز الذي أصبح الآن أكثر وضوحًا على ضوء الشموع، وقَصة شعري التي من الطبيعي أن تبدو غريبةً جدًّا بالنسبة إليهم.

بدأ حمزة يقول شيئًا باللغة العربية، وكان يتحدث بسرعة لدرجة أنني لم أتمكّن من اللحاق به... ألم يخبره الحارس؟

قلتُ باللغة العربية: "لا أفهم ما تقول. أنا أعرف التركية، وأتعلم العربية".

خفَّ التعبير الحذر في عينيه، وبدأ يتحدث ببطء كما فعل عبدالله، وقال: "أنا أحد كتبة سعادته، أخبروني أنك طالبة طب. يمكنك البقاء

معنا والذهاب إلى المدرسة من هنا"، ثم سكت قليلًا وأضاف: "هل فهمتِ ما قلته؟".

أومأتُ برأسي آملةً أنني فهمتُ بشكلٍ صحيح، ربما لم أفهم حتى نصف ما قال... هذه اللغة تربكني بصعوبتها.

سألتني صفيّة: "ما اسمكِ؟".

كانت نظراتها مليئة بالشفقة، ولهذا كنتُ ممتنةً لها.

أجبتُها: "مانوليا"، وأشرتُ إلى يوسف النائم الآن في حضني قائلةً: "أخي يوسف".

قالت: "إنه اسمٌ جميل"، ثم قالت أشياءً أخرى لم أفهمها.

بدا عليَّ التوتّر، فتوقّفا عندما أدركا أنني لم أفهم. وفي هذه الأثناء، جاءت فتاة تعمل كمساعِدةٍ لهما، تحمل صينية في يدها، فقدمت شرابًا وماءً في أكوابٍ خزفيةٍ مطليةٍ بالفضة، أعتقد كانت ستوضع في المتحف إذا رآها الناس في عالمي. قبلتُ الضيافة بامتنان، وبعد أن أمسكت الكأس كما لو كان شيئًا في المتحف وشربت منه، تركتهُ على طاولة القهوة الخشبية المنحوتة أمامي.

سألتني صفيّة بعينين قلقتين: "هل أنتِ جائعة؟".

أجبتُها: "لا، شكرًا لك"، كيف يمكنني أن آكل شيئًا في هذه الحالة؟!

ثم سألني حمزة: "كم عمرك؟".

وجهتُ نظري إليه؛ هنا يجب أن أكون حذرة في إجابتي، ربما كانت العشرينات أكثر من اللازم بالنسبة لطالب في هذا العصر. لقد وثقت بما

كان يقوله لي أصدقائي حتى الآن حول كيف أنَّني أبدو كطالب في المدرسة الثانوية، وقلت: "ستة عشر عامًا"، ثم أضفت: "نحن أيتام" متذكِّرةً الكلمة التي استخدمها ماثيو.

قال حمزة أشياء أخرى، لكنني لم أفهم. سمعتُ كلمة "لغة"، ثم بدأ يتحدث بلغة مثل الإيطالية، أدركتُ من الكلمات أنها لاتينية، من الواضح أنه يعرف عدة لغات، قلتُ مخاطِرةً: "اللغة الإنكليزية".

عبس وهزّ رأسه قائلًا: "أنا لا أعرف تلك اللغة، هل هناك الكثير من الإنكليز في بلدك؟"، ولما ترددتُ في الإجابة قال: "عجيب أنكِ في هذا العمر ولا تعرفين العربية".

ثم تابع: "سمعنا الكثير عن الدولة العثمانية"، وقال بضع كلمات أخرى لم أفهمها، وسأل: "هل يرتدون مثل هذه الملابس هناك؟".

قلت: "السرقة في الطريق"، وعندما لم أقدر على استخدام الكلمة الصحيحة، بدأتُ بالبكاء... لم أستطع ضبط نفسي، كان ما يحدث كثيرًا بالنسبة لي. هؤلاء الأشخاص لطيفون جدًّا معي، لكنني لا أزال خائفة، كنتُ في زمنٍ لا أعرفه، في مكانٍ لا أعرفه، وكانوا يتحدثون بلغةٍ لا أعرفها، وكل ما أردته هو العودة إلى المنزل.

نهضت صفيّة عن الكنبة المقابلة وجلست بجانبنا، وأخذت يدي معتذرة، ثم قالت بضع كلمات وكأنها تريد أن تواسيني. لقد اعتقدا في الغالب أنهما أخافاني ولذلك شعرا بالأسى.

كان حمزة مستاءً أيضًا، فقال: "استريحي الآن، يمكنكِ الإجابة على أسئلتي غدًا".

ثم رفعتني صفيّة وحملت يوسف النائم بين ذراعيها، حييتهُ تحية امتنان وغادرت الغرفة مع صفيّة، فمشينا عبر الفناء الذي أتينا منه وصعدنا السلم الحجري.

ثم فتحَت الباب الأول من الأبواب الثلاثة وأرتنا الغرفة؛ حيث يوجد في الداخل سريران يعلوان الأرض بقليل، ووُضِعت عليهما ملابس نظيفة، وعلى طاولة القهوة الخشبية بجانبهما وُضع إبريق فضي وأكواب ومناشف. أما في منتصف الغرفة فكان هناك بساط أحمر مع حامل شموع كبير على طاولة قهوة خشبية سداسية. وكانت الخزائن منحوتة في الحائط كما هو الحال في قصر الحمراء، وبداخلها رُتبت الأقمشة بعضها فوق بعض.

وضعت صفيّة يوسف برفق على أحد الأسرة، ثم خلعت سرواله وبلوزته وألبسته ثوبًا قطنيًا صغيرًا. لاحظت خفّة يدها، ففكرتُ أنه ربما كان لديها أطفال. غطّت يوسف ببطانية رقيقة، ثم عادت إليَّ وقالت مشيرةً إلى الفتاة التي تنتظر عند الباب: "يمكنكِ مناداة أسماء إذا احتجتِ أيَّ شيء". كانت نفس الفتاة التي قدمت لنا الشراب، وعندما نظرتُ إليها ابتسمت الفتاة بخجل.

بعد أن غادرت صفيّة الغرفة، دخلت الفتاة، وسألتني وهي تنظر إلى ملابسي برعب: "هل أساعدك في ارتداء ملابسك؟".

لم أتضايق من نظراتها، لأنني اعتدتُ هذه النظرات الآن!

شعرتُ بالارتياح لرؤية ستارة في أحد أركان الغرفة، فوقفت خلفها وبدأت أغيّر ملابسي، ونظرتُ بزاوية عيني لأرى أسماء تضع وسائد

حول يوسف حتى لا يسقط من على السرير. كان الثوب الذي قدموه لي ثوبًا قطنيًا أبيض يمتد من رقبتي إلى رجلي، ويتضح من بساطته أنه ثوب نوم. كان ناعمًا وخفيفًا للغاية، وهو ما أحتاجه تمامًا.

عندما مشيت نحو السرير، سارت أسماء إلى جانب الستارة وبدأت تطوي ملابسي، في غضون ذلك قمتُ بفحص يوسف جيدًا وتأكدت من نومه بهدوء. كان في منزله لكنه لم يدرك ذلك، حسنًا وماذا عني؟

قالت أسماء: "هذا غريب جدًّا".

التفت إليها وإذ بتلك السيدة الأندلسية تمسكُ بحذائي الأسود والوردي الفوسفوري الذي ابتعته خلال تخفيضات الأسعار، لم أكن أعرف هل أضحك أم أبكي على عبثية الموقف، فاخترتُ البقاء بدون تعليق. من الواضح أنني كنت سأواجه الكثير من هذه الأسئلة أثناء وجودي هنا، لذا قررتُ في الوقت الحالي أن أواجهها جميعًا بدءًا من الغد، لكن قبل كل شيء أنا بحاجة للراحة.

كنت على وشك الاستلقاء عندما توجهت أسماء نحو الباب، فناديتها قبل مغادرتها وسألتُها: "في أي عام نحن؟".

تفاجأت من سؤالي، ثم عدَّلت نبرة صوتها وأجابت: "769" وخرجت بعدها.

استلقيتُ على السرير، وبدأت أحسب بأصابعي لتحويل السنة الهجرية التي أخبرتني بها إلى التقويم الميلادي. لقد فتحتُ عيني في صباحٍ من عام 2018م، لكنني الآن سأغلق عينيَّ في العام 1368م.

الفصل العاشر

صيف 1368م

استيقظتُ باكرًا في اليوم التالي، وأنا اسمع أصوات الناس قادمة من الشارع مع بزوغ الفجر، فنهضتُ ببطء ومددتُ يدي إلى الملابس التي جلبتها لي أسماء. كان هناك ثوب طويلٌ من قماش الحرير الأخضر، مشابه جدًّا للذي ارتدته صفيّة بالأمس، ومطرَّز بالأزهار الأرجوانية والوردية، كما كان هناك حزام فضي مطرّز وسميك، تمكنتُ من وضع حقيبتي الصغيرة داخله، والتي لا يزال جواز سفري في داخلها. كيف سأشرح لهؤلاء الأشخاص ما هي الصورة؟ في الحقيقة، ونظرًا لتقنياتهم المذهلة، فربما اخترعوا الصورة بالفعل...

بعد أن وضعتُ الغطاء الملوَّن بلون الثوب نفسه، ذهبتُ إلى يوسف، فتحركَ عند سماع صوتي. اعتقدتُ أنه سينزعج إذا أيقظته، لكنَّه كان مثلي نائمًا بعمق طوال الليل، وربما يستيقظ منتعشًا مثلي.

رفَّت رموشه الطويلة ببطء وابتسم ابتسامةً كبيرة عندما رآني، فهو يعرفني جيدًا الآن، ثم قال وهو يمد يديه: "صباح الخير يا مالويا".

احتضنته على الفور وضحكت... كان الأمر يزداد حلاوةً في كل مرة لم يستطع نطق اسمي، ويزيد معها تعلّقي به.

عندما أحسسنا بحركة الناس أمام باب بيتي، استجمعنا قوانا وخرجنا لمواجهة عالمٍ جديدٍ في هذا اليوم الجديد. في الساعات الأولى من الصباح كانت السماء لا تزال تحتفظ بألوانها البرتقالية التي تخبرك بأن اليوم سيكون حارًا جدًّا.

وجدنا صفيّة وأسماء في الأسفل جالستَين على الأريكة التي جلسنا عليها بالأمس، وهما تُطرِّزان أنواعًا من الأزهار على الأقمشة الملونة بيديهما.

قلت: "صباح الخير"، وبدأت بمشاهدة عملهما، حيث قامتا بمد البكرات وخياطة الخيوط الملونة بإبرةٍ رفيعة.

هتفتُ بإعجاب: "جميل جدًّا".

من الجميل أن تكون الملابس المصنوعة باليد التي ترتديها النساء مزيَّنة، خاصةً مع الأقمشة الرائعة للقصر الأندلسي الثري، حيث كلُّ قطعة قماش منها كانت متحفًا. ارتدت صفيّة اليوم ثوبًا حريريًا أصفر اللون أبرزَ لون بشرتها الداكن وشعرها الأسود الذي يتدلى على عباءتها.

سألتني صفيّة: "لماذا قصصتِ شعرك؟"، مشيرةً إلى شعري الظاهر من تحت غطاء رأسي الذي كان يلعب يوسف بحوافه.

حاولت التفكير في إجابةٍ منطقية، وسررتُ عندما تذكرت شيئًا من أيام المدرسة الابتدائية، وبما أنني لا أعرف معناها بالعربية، قلتُ باللغة التركية: "قملة"، وحاولت على الفور أن أشرح ذلك بيدي مشيرةً إلى طرف ظفري قائلة: "حشرة سوداء". فهموا ذلك عندما أريتهم شعري مرةً أخرى.

ضمّت صفيّة حاجبيها وقالت لي اسم عشبة، لكنني لم أفهم، فأخبرتني أن أتبعها، وبالفعل غادرتُ الغرفة وكلي طمأنينة بأنَّ أسماء ستعتني بيوسف.

فتحت صفيّة الباب الحديدي المقابل لبوابة الحديقة على الجانب الآخر من الفناء، فامتلأ أنفي بالروائح العطرة. وجدتُ نفسي في حديقة يمكنني القول إنَّها كانت بحجم بهو السباع تقريبًا، وتنمو فيها جميع أنواع الأعشاب: المريمية، والزعتر، والنعناع، وإكليل الجبل، والبابونج، والفجل، والصبار، والعديد من النباتات التي لا أعرف أسماءها.

قالت صفيّة: "أنا أعتني بهذه النباتات، ليس من أجل الغذاء، ولكن لصنع الدواء"، ثم أرتني نبتة إكليل الجبل وقالت "هذا يقتل القمل"، وأشارت إلى الأقحوانات البرية التي خلفها مباشرة والتي لا أعلم كيف تتحمل الحرارة وقالت: "وهذا لإطالة شعرك"، ثم توقفت ونظرت إليَّ وقالت: "على الأرجح أنكِ تعرفين كلَّ هذا، بما أنك تدرسين الطب".

حاولتُ كسب الوقت... من الواضح أن صفيّة كانت امرأة أعدّت الأدوية للقصر وزرعت كل هذه الأعشاب وتعرف جيدًا ما يجب استخدامه ولماذا، وبالتالي لا يمكنني مفاجأتها، ولذلك قلت: "لا أعرف الكثير، فقد بدأتُ التعلم للتو".

أوضحَت قائلةً: "أبي طبيب السلطان.. إذا كنتِ تريدين أن تصبحي طبيبة، يمكنكِ الذهاب إلى المدرسة، أما إذا كنتِ تريدين أن تكوني معالجةً نباتية، فسيتعيّن عليكِ البقاء معي".

لهذا السبب أحضروني إليها إذن!

شعرتُ بالخوف عندما فكرت في المدرسة، فأنا لن أستطيع الاختباء هناك، وبالمقابل كنتُ أعرف القليل عن النباتات من منزل جدي الصيفي في بوزكادا، لذا أشرتُ إلى الحديقة وقلت: "يريد أن يعرف هذه الأشياء".

ضحكت وقالت مصححةً خطأي: "أريد"، وتابعت: "سأساعدكِ أيضًا على تعلم لغتنا".

قلت لها: "أفهم معظمها عندما تتحدثين".

شعرت بالسعادة، فأنا بالنسبة إليهم أتيتُ من الجانب الآخر من العالم، وإلى جانب هذا أحضرتُ يوسف معي، ولكن على الرغم من ذلك فقد كانت كريمة للغاية، وفتحت منزلها لي، وتولت الآن أمر تعليمي.

أجبتُها في إشارةٍ إلى كل ما أظهرته لي من مساعدة وتعاطف: "شكرًا لكِ".

تفاجأت عندما شكرتها وكأن من واجبها أن تفعل ذلك، فوضعت يدها على كتفي وقالت: "أنا أحبك مانوليا".

تأثّرتُ كثيرًا، فهؤلاء الناس كانوا مختلفين تمامًا عن البشر المعاصرين، وأنا لم أخرج بعد إلى الشارع.

عندما عدنا إلى الداخل، كانت أسماء قد أعدت الفطور وانغمست في اللعب مع يوسف. نظرتُ إلى الطعام على الصينية المستديرة فوق

الطاولة، كان مثل فطور مناطق البحر المتوسط تمامًا: الخبز والزيتون والجبن الطازج وأعشاب متنوعة منقوعة في زيت الزيتون والفواكه والحليب الدافئ.

شعرت بالارتياح عندما أدركت أنَّ أسماء قامت بإطعام يوسف. جلسنا أنا وصفيّة، وفي هذه الأثناء جاء حمزة فألقى التحية وجلس، وبعد أن سألني عن حالتي، بدأ يتحدث كلمة تلو الأخرى حتى أتمكّن من فهمه.، فقال: "سلطاننا سعيد جدًّا اليوم".

نسيتُ أنني أقيم بجوار محمد الخامس! بدأ قلبي يدق من الإثارة، هل سأرى سلطانًا أندلسيًا حقيقيًا؟

تابع قائلًا: "لقد أحبَّ رسم النافورة"، توقعتُ أنها نافورة السباع، وعندما قال: "طلبَ من ابن زمرك أن يكتب قصيدة عن النافورة"، تأكدت من صحة توقعي.

التفتت صفيّة نحوي وقالت: "سلطاننا يحب الشعر".

ابتسمت.. ألا أعلم ذلك؟ إنَّ قصائد الشعراء الأندلسيين مشهورة جدًّا، فالقصائد التي وصلت إلينا جذبت الكثير من الاهتمام، وهناك قصائد لم تصل.

فنون مثل الشعر والأغنية والموسيقى والحِرف اليدوية والعمارة كانت ذات قيمة عالية في الأندلس، وكان الفنانون محترمين. أنا سعيدة لأنني تمكنت من رؤية هذا بأم عيني.

قال يوسف مصفّقًا بيديه: "سلطان! سلطان!"، فاستدرنا نحوه مبتسمين، ولكنه قال فجأة اسم أبيه: "إسماعيل! إسماعيل!".

تجمدتُ وكأن هواءً جليديًا هبَّ في الغرفة، بينما توسّعت عين حمزة. تولى السلطان إسماعيل الثاني العرش من محمد الخامس، وبعد عامٍ واحدٍ من الحكم، خلعه محمد السادس، وبعد عامٍ آخر تولى محمد الخامس العرش من جديد. ربما كان اسم إسماعيل على قائمة الممنوعين لأنه نفى السلطان الحالي، ووفقًا لحسابي، فلم تمضِ سوى ثلاث سنوات منذ أن استعاد السلطان الذي يبلغ من العمر الآن ثلاثين عامًا عرشه.

قلت أول ما خطر ببالي: "اسم أبينا الراحل".

كانوا يخشون بالفعل أن نكون جواسيس، لذلك لم تكن هناك حاجة لإعادة إشعال مثل هذا الشك الآن، ولحسن الحظ أجدت الإجابة نفعها، فهزوا رؤوسهم بحزن.

قال حمزة بأسى: "لقد فقدنا أيضًا ابنتنا العام الماضي".

لم تستطع صفيّة شرب الحليب الذي كان بيدها فوضعته على الطاولة، وامتلأت عيناها بالدموع. هذا يفسر سبب اهتمامها بيوسف.. أمسكت بيدها، وقد أصبحت علاقتي مع هذه المرأة عميقة.

قال يوسف بفرح: "إسطرلاب! إسطرلاب!".

التفتُّ إليه وأنا لا أعلم كيف سأسكته! يبدو أننا وصلنا إلى هذه النقطة بالفعل؛ هل سيستمر في قول الكلمات التي تعلّمها؟ بمن سنثق كي نسلمه يوسف؟ خاصةً في هذه البيئة السياسية، مع العلم أن محمد الخامس بقي على العرش لمدة عشرين عامًا، فهل سنضحي بيوسف؟ هل يمكنه البقاء هنا والعيش في الخفاء؟ من سيعتني به؟ كانت كل هذه

الأسئلة تدور في ذهني، ثم مددت يدي وقرصت خديه السمينين.

قال حمزة ضاحكًا: "كيف تعرف الإسطرلاب؟"، ثم أخرج الإسطرلاب الخاص به من جيبه وسلمه ليوسف كي يلعب به، وقد تبدّد المزاج الكئيب الذي كان سائدًا.

وبينما كنت أشرب الحليب، قالت صفيّة: "إذا انتهيت من إفطارك، فلنذهب إلى الحمام قبل أن يصبح الجو حارًا".

وافقت بحماس لمعرفتي أنها ستكون تجربة رائعة، ولرغبتي في الاستحمام، وأيضًا لرغبتي في الخروج من أجل رؤية الناس في وضح النهار.

بعد اللعب مع يوسف لفترة، عاد حمزة إلى القصر، وهنا كانت أسماء قد جلبت الأشياء الضرورية في حزمة. خرجتُ مع صفيّة بعد أن رتبت غطاء رأسي الذي كان ينزلق للأسفل في كل مرة، وأسرعنا في سيرنا.

رأيتُ الناس يحملون الفاكهة والخضروات في سلال على ظهورهم، والأقمشة في حزم، ومشروبات مختلفة في أوانٍ نحاسية. بدأت الحياة في القصر، وكان الجميع في الخدمة.

أخذت صفيّة تعطيني بعض المعلومات أثناء سيرنا إلى الحمام؛ يعيش في القصر أكثر من ألف شخص، بما في ذلك السلطان وعائلته وخدمه وعمال المطبخ والحديقة والغسيل ومسؤولو الدولة والموظفون. أما المنطقة العسكرية الواقعة داخل حدود القلعة والمسماة بالقصبة فليست ضمن هذا الإحصاء.

يولي السلطان أهميةً لأداء القصر وعمارته، ويعتبر هذا القصر مصدر فخر، لذلك كان حريصًا على أن يسير كل شيء بسلاسة، وأن تكون الأمور بأفضل حال.

عندما وصلنا إلى الحمام، أدركتُ أنه أكبر مما رأيته في الليل. لم يكن حمام "شيرين" الأندلسي الذي زرته في زماني على الإطلاق؛ كان داخله معزولًا.

تبعتُ صفيّة إلى حجرةٍ صغيرة، وهناك قمنا بإعداد متعلقاتنا ولفِّ مناشفنا التي كانت مثل المئزر، وقد بدا الحمام شبيهًا إلى حدٍّ كبيرٍ بالحمّام العثماني.

بعد ارتداء القباقيب حتى لا تنزلق أقدامنا على الرخام، دخلنا قسم الحمام الرئيسي، حيث كانت هناك ثلاثة أحواض تتدفق فيها المياه باستمرار، وكانت الأرضية والأحواض في المكان الذي جلسنا فيه من الرخام بالكامل، أما الجُدُر فكانت من البلاط الملون. ولم يكن الجو شديد الحرارة في الداخل نتيجة توفر التهوية بشكل جيد من خلال السقف المقبّب.

بدأت أسماء تغسل يوسف، في حين ذهبتُ إلى الحوض الآخر مع صفيّة، فأعطتني الصابون الذي علمت أنها تصنعه عن طريق خلط العديد من الأعشاب مثل زيت الزيتون وإكليل الجبل والخزامى. لم يجعل الصابون شعري وبشرتي ناعمة فحسب، بل أكسبهُ رائحةً عطرة. لن أتمكن من شراء الصابون الطبيعي من متجر التوابل الذي اعتدت الذهاب إليه مع والدتي مرةً أخرى!

أمي.. ذكراها آلمت قلبي، هل سأتمكن من رؤية عائلتي العزيزة التي أفتقدها بعد ذهابي إلى بلد آخر لمدة أسبوع فقط مرةً أخرى؟

بينما كانت صفيّة تتحدث مع السيدات الأخريات في الحوض الجانبي، حاولتُ تهدئة نفسي. لا بدّ أن يبيِّن لنا الشخص الذي سنعهد إليه بيوسف طريقة ما، أو يعطينا إشارة.

عندما خرجنا من الحمام أصبح الجو حارًا، فتولت أسماء رعاية يوسف واصطحبتني صفيّة إلى حديقتها. لم أدرِ كيف مر الوقت وهي تعلِّمني أسماء النباتات بالعربية؛ كانت في كل مرة تكرر السؤال من جديد لتتأكد من أنني تعلمت جيدًا، ثم تنتقل إلى نبتة جديدة، على أن تبدأ تعليمي استخدامات كلٍّ من هذه النباتات لاحقًا.

ارتفعَت شمس الظهيرة وجعلتنا نتعرّق، وكانت صفيّة تضع بطانية بيضاء سميكة فوق الأعمدة الخشبية التي يبلغ ارتفاعها حوالى ثلاثة أمتار، في أجزاء مختلفة من الحديقة. قامت بتقويم الغطاء جيدًا، وكان الغطاء الأبيض بنسجه المتناثر بمثابة مُرشِّحٍ يوفر الظل للنباتات، وفي نفس الوقت يحافظ على هذا الفناء الخلفي باردًا.

انضم إلينا حمزة مرة أخرى لتناول طعام الغداء، ولكنني تعبتُ من متابعة محادثتهما السريعة، فركزتُ على وجبتي المكونة من البرغل واللحوم، ولحسن الحظ كان مع الوجبة مشروباتٌ حلوةٌ وباردة، ساعدتني باستعادة الطاقة التي فقدتها أثناء العمل في الحديقة تحت حرِّ الشمس.

ذهلتُ عندما قال حمزة: "أصبح أخوك على لسان كل أهل القصر".

هل حدث شيء لماثيو؟ هل عرفوا حقيقتنا؟

غمرتني آلاف الاحتمالات في لحظة، ولكن عندما قال حمزة ضاحكًا: "لقد كان أخرق للغاية، ولم يتمكّن حتى من حمل السيف"، شعرتُ بالارتياح.

قالت صفيّة مبتسمة: "لم تذكري أخاكِ قط".

كنت متوتّرةً للغاية خشية من ارتكاب الأخطاء، فأخذتُ أفكر بكلِّ إجابة ثلاث أو أربع مرات قبل قولها.

أجبتُها: "نعم، أخي ما..."، سعلتُ واستدركتُ: "تاركان ذكي للغاية، هو..." فكرتُ بسرعة، "هو جيدٌ في استراتيجيات الحرب". كانت هذه أكثر إجابة مفتوحة ممكنة، وأعتقد أن ماثيو لن يخيبني بشأن هذه المسألة نظرًا لمعرفته بالتاريخ.

أومأَ حمزة برأسه وعاد إلى طعامه، ولم يُذكر ماثيو مرةً أخرى بعد تلك اللحظة. أمضَت صفيّة فترة الظهيرة معي في غرفة الطب التي بدت وكأنها مطبخ؛ كان لديها منضدة رخامية تُطحن عليها الأعشاب، بينما وُضعت الأعشاب الجافة في قوارير زجاجية على الرفوف. شرحَت لي صفيّة عن بعض النباتات المجففة، وفرحَت كالطفل عندما رأت أنني أستطيع القراءة والكتابة.

في المساء شربنا حساء الحمص المطبوخ بمرَقِ اللحم، وقد انتشرت رائحة الحساء في الغرفة بفضل النبات الذي بداخله، أعتقد أنه ساق كرفس جاف. وبعد الوجبة قدموا ألذ حلوى أكلتها في حياتي، ثم شربنا شاي المريمية الذي أعدَّته لنا صفيّة، وأخيرًا خلدنا إلى النوم.

مرَّ يومٌ آخرٌ بنفس الروتين؛ بعد الإفطار في الصباح ذهبنا إلى الحمام، وبعد العمل في الحديقة تناولنا غداءنا. أخبَرنا حمزة بما يجري في القصر، لكننا لم نستطع الخروج ورؤية أي شيء، ولم أسمع أي شيء عن ماثيو أيضًا.

بعد الظهر جاءت فتاة من القصر وقالت إن ابنة السلطان تعاني من صداع، فأعطتها صفيّة إبريقًا فيه مزيج من النعناع والزنجبيل والزيزفون وطلبت منها أن تغليه.

لم يتمكن حمزة من القدوم إلى العشاء، فتناولتُ الطعام مع صفيّة وحدنا. وفي غضون كل هذا علمتُ الكثير عن زوجات السلطان وأولاده والمسؤولين المقربين من الدولة وأزواجهم، ولكن لم يعد أيٌّ مما علمته مفاجئًا لي كالسابق، إلا أنني كنت أشعر بالتوتّر مع مرور الوقت.

عندما استيقظتُ في الصباح، أخبرتني صفيّة أننا ذاهبون إلى المدرسة لزيارة والدها، وكنت سعيدة لسماع ذلك، فعلى الأقل يمكنني قضاء الوقت بما سأراه.

انطلقنا بعد الإفطار، وبما أنَّ أسماء جاءت معنا، فلم نترك يوسف في المنزل. رافقنا شاب لم يتكلم مطلقًا، وكان يحمل الأشياء التي أعطته إياها أسماء في سلة من الخيزران على ظهره.

مررنا بالمنطقة العسكرية ونزلنا إلى البوابة السفلية، حيث تضاءل عدد سكان القصر وحلّ محلّهم حراس ضخمون. أومأ الحارس بجانب الباب برأسه إلى صفيّة، وفتح الباب.

صُدِمتُ بما رأيته؛ يحتوي هذا المكان على شوارع ضيقة متشابكة، تمامًا كما هو حال المغرب في زمننا. حاولت ألّا أنفصل عن صفيّة وأسماء وسط الزحام والضجيج... أمسكت صفيّة بيدي تحسّبًا، وأخذت أسماء يوسف بين ذراعيها.

كانت هناك محلات القماش والتوابل والخشب والنحاس... كم هي تجربة رائعة!

بما أنّني زرت المغرب وشاهدتها من قبل، فقد قارنت هذا المكان بها؛ إنهما يتشابهان بوجود الناس من جنسيات مختلفة، وبالهيكل المعقّد والفوضوي ولكن المنظم في نفس الوقت.

عندما وصلنا الميدان، عرفتُ على الفور أين نحن، كنا عند المدرسة بجوار المسجد الرئيسي في غرناطة. يحمل المكان في زمننا مظهرًا خارجيًا مسيحيًا، ولا علاقة له بالأعمال الحجرية التي أراها الآن، ويوجد في زمننا أيضًا قبر الملكة الكاثوليكية إيزابيلا الذي يحتل هذا المكان في الساحة الواقعة أمام المسجد. وبالطبع فإن جزءًا من المكان في زمننا ما زال مسجدًا كبيرًا، أما الجزء الآخر فأصبح سوقًا.

عندما دخلنا، أصبحنا بعيدين عن كل فوضى المدينة وغمرنا الهدوء.

كان الجزء الداخلي مزيّنًا بمقرنصات صغيرة على شكل قرص العسل وآيات وزخارف مختلفة، كما هو الحال في قصر الحمراء.

قال صبي في العاشرة من عمره: "مرحبًا"، فمدّت صفيّة يدها وربّتت على رأسه، وتجاذبوا أطراف الحديث قليلًا بينما كان الصبي يأخذنا إلى الطابق العلوي.

في غضون ذلك كنت أنظر حولي؛ تم تقسيم المدرسة إلى غرف صغيرة، وفي كل غرفة كان الطلاب إما متكئين على الأوراق يخربشون أو يقرؤون كتابًا.

شعرتُ بالفضول لمعرفة ما يجري خلف الأبواب المغلقة التي مررنا بها، لابدّ أن يكون مصدر التكنولوجيا التي أتت بنا إلى هنا قد مرَّ عبر هذه المدرسة. لا تزال المدرسة جديدة، فقد جرى افتتاحها عام 1349م وتعمل كجامعة. منذ أن افتتح يوسف الأول هذا المكان، كان موطنًا للعلماء والشعراء والفلاسفة والسياسيين والأطباء وعددٍ لا يحصى من الطلاب في العديد من المجالات، كان ابن طفيل وابن رشد وابن عربي من أشهر الأسماء في زمننا.

عندما فتح الصبي الباب، كنتُ عاجزةً عن الكلام من وقعِ ما رأيته؛ مكتبة ضخمة ذات طابقين داخل الطابق نفسه، المكتبة الأندلسية الشهيرة. عندما استولى الكاثوليك على غرناطة آخر معقلٍ في الأندلس، أشعلوا النار في هذه المكتبة وأُحرِقت الكتب التي تم تجميعها طوال هذه السنوات. كان من غير المعقول أن تكون هذه الكتب التي تحتوي على معلومات رائدة في مجالات الرياضيات والكيمياء والفيزياء والعمارة والفلسفة والطب قد دُفنت في التاريخ وأنا الآن أرى هذه المكتبة. عندما وقع بصري على المصاحف امتلأت عيناي بالدموع؛ صفحات أكبر من ارتفاع الإنسان، مكتوبةٌ بالخط الكوفي، بعضها مزخرف بنقوش نباتية أنيقة على الحواف، وبعضها تُركت بلا زخرفة... الآن فهمت لماذا يُعتبر هذا العصر ذروة فنون الكتاب.

حين عانقت صفيّة الرجل ذا اللحية البيضاء الجالس على أحد طرفي الطاولة الخشبية الضخمة في منتصف الغرفة، جففتُ عيني دون أن يلاحظ أحد.

كان هذا الرجل العجوز، الذي بدا وكأنه عالم بعمامة ضخمة على رأسه وعباءة طويلة، هو والدَ صفيّة الطبيب. قدمتني صفيّة له وأخبرته قصتي بإيجاز، وعلى الرغم من أنَّ والدها الطبيب موسى كان مستغربًا من غرابة اسمي، إلا أنَّه كان متفاجئًا وسعيدًا لأنني قطعت كلَّ هذا الطريق لأتعلم.

في تلك الأثناء صفَّق يوسف بيديه فرحًا وقال: "إسطرلاب! إسطرلاب!"، أعتقد أنه يحب طريقة نطق هذه الكلمة، لكنني حملته بين ذراعيَّ بفزع مجددًا، في حين كانت صفيّة تضحك وتقول لوالدها إنَّ يوسف يحب اللعب بالإسطرلاب، استمر الدكتور موسى بالنظر إليَّ وإلى يوسف وكأنه يدرسنا.

عندما مدَّت صفيّة يدها إلى إحدى الأوراق الموجودة على الطاولة، هدأ الأمر، ثم سألَت متأملة: "هل من أخبارٍ عن ابن خلدون؟".

أومأ والدها برأسه وقال: "لقد نقل رؤيته الجديدة حول أسباب آلام البطن الطويلة".

همست صفيّة بحزن: "أتمنى لو لم يرسله سلطاننا"، فأشار لها والدها بالصمت. عرفتُ على الفور عمَّن يتحدثون؛ كان ابن خلدون محبوبًا من الجميع ولكنَّ السلطان أرسله إلى شمال إفريقيا بسبب خلاف بينه وبين وزير السلطان ابن الكاتب. كانت هذه إحدى نقاط التاريخ التي لم أفهمها.

لقد التقى ابن خلدون بالسلطان من خلال الموحدين الذين حكموا المغرب أثناء نفي محمد الخامس، وأدّى دورًا حاسمًا في صعوده مرةً أخرى على العرش، وكان هو من وقع معاهدة سلام مع ملك قشتالة بيدرو. وإلى جانب كونه سياسيًا جيدًا، كان أيضًا مؤرخًا، وقدم لنا من خلال كتاباته الكثير من المعلومات حول علم الاجتماع والاقتصاد والسكان.

قالت صفيّة: "بدأت مانوليا بالنظر إلى الكتب".

كنتُ أنظر إلى الكتب المصوّرة المفتوحة على الطاولة، وأنا شاردة بالتفكير، محاولةً استنتاج ما تدور حوله، بالإضافة إلى الخرائط المنقوشة على جلود الحيوانات، والملاحظات التي أخذها الطلاب بسرعة على القصاصات الورقية المجاورة للكتب.

كانت هذه مكتبة حقيقية من العصور الوسطى! وددتُ لو أعطي وقتًا لكل كتاب هنا، ولكنني لا أستطيع القراءة بطلاقة أو التحدث بهذه اللغة، ومع ذلك كنتُ سعيدة لتوفر خيار الدوام في المدرسة وتلقي التعليم إذا رغبتُ بذلك.

عندما يتعلق الأمر بالعلم فإنهم لا يميزون بين الجنسين ويقومون بتقييم جميع أنواع الذكاء والموهبة، وبقدر ما لاحظت فقد كانت المرأة تحظى بالاحترام وتؤخذ على محمل الجد في المجتمع.

قال والد صفيّة مشيرًا إلى الكتابين الجديدين الموجودين على الطاولة: "الكتابان اللذان طلبتهما جاهزان".

فتحت صفيّة صفحات أحد الكتابين الجديدين بإعجاب، وكأنها رأت كنزًا. وبما أن المطبعة لم تكن موجودة في العصور الوسطى، فإن

الكتب كانت مقلمة الحواف ومكتوبة بخط اليد ومزودة برسوم توضيحية، مع شرح عن كل صورة. ربما تم إعداد كل قسم بواسطة أشخاص مختلفين، فبات كل كتاب بعبارة أخرى عملًا فنيًا.

أضافَ قائلًا: "أحد هذين الكتابين يتحدث بالكامل عن الفواكه".

ثمَّ التفتَ إليَّ حين رأى أنني أنظر إليها من بعيد بقليلٍ من الغيرة، وقال: "تعالي، لنجد كتابًا مناسبًا لك".

تبعتهُ قبل أن يختفي في أعماق المكتبة، حيث شققنا طريقنا عبر صفوف من الرفوف المليئة بالكتب التي لم أستطع تحديد مواضيعها لأن مجلداتها ملونة بألوان غامقة وخالية من الكتابة.

أبطأَ من سيره عندما وصل إلى قسمٍ يوجد فيه كتبٌ أصغر وأقل سماكةً، وقال مشيرًا إلى الرف السفلي بعصاه: "هناك".

انحنيت على الفور والتقطتُ الكتاب الذي كان يشير إليه، عندما فتحته بحماس، رأيتُ أنه كتاب أطفال فيه كتابةٌ كبيرةٌ وصورٌ مضحكة.

أشار بعصاه إلى كتابٍ آخر وقال: "خذي هذا أيضًا، سيُسهّل عليكِ تعلّم لغتنا بشكل أسهل".

ابتسمت ممتنَّة ثم نهضت، فسقطت حقيبتي الصغيرة من حزامي وأصدرت صوتًا عاليًا، وفوق ذلك، ظهر جواز سفري وبطاقة هويتي مع طرفٍ من الصورة.

أعدتُ كلَّ شيء على عجل إلى حزامي متمنيةً أنه لم يرها، وعندما استدرت كان قد أدار ظهره بالفعل وبدأ في المشي، ثم أعطاني كتابًا آخر من الرفِّ العُلوي يحتوي على أساسيات أفضل الأعشاب المعروفة. وفي

غضون ذلك، سألني إذا كنت قد رأيتُ القسطنطينية، ومن أي مدينةٍ أتيت، وأمورًا أخرى عن حياتي، فحاولتُ رسم صورةٍ للبلد قدر الإمكان، مع إعطاء إجاباتٍ بسيطة محاولةً إقناعه بالشخصية التي أنتحلها.

بينما كنت أغادر المكتبة، تابعتُ النظر إلى كل الأطراف، إذ لم أكن أريد أن أنسى حتى أصغر تفاصيل المكتبة. لقد تمكنت أوروبا من التقدم في العلوم والفنون بفضل الترجمات اللاتينية للكتب من هذه المكتبة، حيث أدّت الكتب دورًا رئيسيًا في تأسيس حركات مثل عصر النهضة والإصلاح.

أخذتُ أفكر في كلمات الفيزيائي بيير كوري الحائز جائزة نوبل عندما خرجتُ من المدرسة واختلطت بزحام الناس: "لدينا ثلاثون كتابًا متبقيًا من الأندلس، وتمكنا من تقسيم الذرة بفضل هذه الكتب. لو أنه لم يتم حرق نصف المليون كتاب فيها، لكُنَّا نتجول في الفضاء بين المجرات منذ زمن".

لم أعد أتفاجأ بالعجائب الهندسية التي طوروها، ولا بحقيقة مجيئي إلى هنا، ولا بتجمّد يوسف لمدة سبعمائة عام، ولن أتفاجأ إذا قمنا بتشغيل الكهرباء عندما نصل إلى المنزل! ما رأيتهُ هنا من انتشار وتقدُّم الحضارة، وكذلك الناس المفعمين بالاحترام والحب والذين لم يفقدوا لطفهم وإحسانهم وتواضعهم، كان كلّه مذهلًا.

عندما عدتُ إلى المنزل في المساء، كنتُ لا أزال أفكر في هذه الأشياء قبل النوم، محاولةً استيعاب ما رأيته. وبعد أن تأكدتُ من نوم

يوسف، أحضرتُ الشموع إلى جوار سريري، وفتحت كتاب القصة الذي أعطاني إياه الدكتور موسى، ولم أكد أقرأ صفحتين فقط حتى قفزت مرتعبة بعد أن سمعتُ صوتًا.

كان أحدهم يرشق النافذة بالحجارة... نظرتُ خائفة من خلال الستارة، فرأيتُ خيال شخصٍ مألوف، شعر مجعّد، ابتسامة متعجرفة...

قلتُ بصوتٍ خافت: "ماثيو!"، فأشار لي بالنزول. أومأتُ برأسي إشارةً إليه أن ينتظر، وارتديت ملابسي سريعًا، ثم خرجت سيرًا على أطراف أصابع قدميَّ. كان من السهل الخروج لأنَّ جميع من في المنزل نائمون، ولم يكن هناك أحدٌ في الشارع خلال هذه الساعة.

سحبني ماثيو إلى ممرٍ صغيرٍ بين مبنيين، وكان الممر مظلمًا لا يصله ضوء القمر، كنت سعيدةً ومرتاحةً جدًّا لرؤيته...

نظرَ إليّ وقال: "الملابس تناسبك! تبدين كفتاةٍ أندلسيةٍ حقيقية".

كان هناك بريق في عينيه، وكأنه يراني لأول مرة.

استجمعتُ نفسي ثم ابتسمت وقلتُ بصوتٍ خافت: "تاركان!".

لم يتوقّع رد فعلي، فانفجرَ ضاحكًا، وبينما كان يكافح لضبط نفسه، سألتُه: "ألم تفكر في اسم مذكر تركي آخر؟".

أجاب: "لا، كان هذا هو أول اسم خطرَ ببالي".

قُلتُ ضاحكة: "لم يكن ليخطر ببالي أنكَّ تستمع إلى أغاني تاركان ولو فكرتُ في الأمر أربعين عامًا!".

كان من الجيد التكلم باللغة الإنكليزية، والتحدث عن أشياء مشتركة ومألوفة. بعد بضع ثوانٍ انتهى المزاح، وبدأنا الحديث بجدية.

سألني وهو يعاين وجهي بقلق: "كيف حالكِ؟ هل يعاملونكِ معاملةً حسنة؟".

أجبت: "أنا بخير، لا تقلق. أصحاب بيتي لطيفون للغاية".

لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك لأقول ما خطر ببالي: "ذهبتُ إلى المدرسة اليوم ورأيت المكتبة!".

سألني وهو يضيِّق عينيه: "ماذا فعلتِ؟ ماذا فعلتِ؟ كيف يمكنك أن تفعلي هذا بدوني!".

ضحكتُ بصوتٍ خافت... كانت المكتبة والمخطوطات من الموضوعات التي تهمه، وكان عليَّ أن أغتنم الفرصة التي أُتيحت لي، فقلتُ ساخرةً منه: "كان الأمر رائعًا! عليك اختيار المدرسة بدلًا من الخدمة العسكرية".

أدار عينيه وقال: "كان على أحدنا أن يكون قريبًا من القصر، وبالطبع أنتِ أقرب مني الآن، ولكنَّ الأخبار تنتشر بشكل أسرع بين الجنود".

قلتُ محاولةً عدم الضحك: "سمعةُ حماقاتك وصلت إلى هنا".

قال: "هل تعرفين كم يزن هذا السيف؟ لحسن الحظ، كنتُ أمارس الرياضة".

بدا وكأنه تأثر بمزاحي، ولكن لم يسعني إلا المتابعة، فقلت: "لا أعتقد أن كرة القدم التي تعلمتها في المدرسة ستنفعك هنا".

أخذَ نفسًا عميقًا ثم غير الموضوع وسألني: "ماذا سنفعل مع يوسف؟".

أصبحتُ جدية أيضًا وقلت: "الأسرة التي أقيم معها جيدة، وحمزة في موقعٍ جيدٍ في القصر، إنَّه على علمٍ بكل شيء، وقريبٌ جدًّا من السلطان، ربما يمكننا إخباره".

هزّ رأسه وقال: "لدينا مشكلة أكبر، كيف سنعود؟".

ضغطتُ على شفتيَّ حتى لا أبكي، وقلت: "صدقني، أفكر في الأمر كل دقيقة؛ ليس لديَّ خيار سوى الأمل في أن أولئك الذين نجحوا بتجميد يوسف وأتوا بنا إلى هنا يمكنهم إعادتنا بنفس الطريقة".

عندما أراد أن يجيبني، سمعنا خطوات شخص قادم من رأس الشارع، فنظر كلانا إلى الاتجاه الذي أتى منه الصوت؛ كان الرجل أقرب مما كنا نظن! هل سمع حديثنا يا ترى؟

بدأ قلبي ينبض بقوة... خطى ماثيو قليلًا أمامي، واتخذ الرجل خطوةً أخرى، فأضاء نور القمر وجهه.

كان الدكتور موسى ينظر إلينا بعينين تشتعلان لهبًا.

الفصل الحادي عشر

صيف 1368م

قال الطبيب موسى: "كنتُ أعرف، فهمتُ من البداية".

اخترق صوته العميق عتمة الليل وأصابني بالقشعريرة.

قال ماثيو: "أختي مانوليا!".

همَّ ماثيو بالدفاع عني، فهو لم يكن يعلم أنَّ الطبيب موسى يعرفني.

قلتُ له: "التقينا اليوم".

واصل الطبيب موسى الكلام بهدوء قائلًا: "لا أعرف ما إذا كنتما شقيقان، لكنني أعلم أنكما لا تنتميان إلى هنا".

على الرغم من نبرة صوته الهادئة، كانت ألسنة اللهب تتصاعد من عينيه. هذا التناقض أخافني أكثر، كان من الواضح أنَّه كان في موقعٍ يحظى باحترام كبير وكانت كلمته موضع تقدير، وكان من الممكن أن يُودي بنا إلى التهلكة بكلمةٍ واحدة منه لمسؤولي القصر.

قلتُ بسرعة: "لسنا عميلين".

قال في حيرة: "أعلم هذا، لستما عميلين، لكنكما دخلتما إلى بيوتنا".

على الرغم من أن ماثيو حاول أن يشرح على الفور قائلًا: "لقد ضللنا طريقنا في القصر"، إلا أنَّه كان من الواضح أن هذا الجهد كان بلا جدوى وأنَّه لم يعد بإمكاننا تغيير رأي الطبيب موسى بغضِّ النظر عما سنقوله. كان طريقنا مسدودًا، ومن يدري ما الذي يفكر فيه الطبيب في رأسه وماذا سيقول.

قال الطبيب موسى: "اتبعاني".

أغمضتُ عيني من الخوف، ولكنني أطعت... لقد انتهى أمرنا!

عرف ماثيو أننا لم نكن نملك خيارًا آخر، فلمس ذراعي كأنه يشجعني. مشينا خلف الطبيب موسى الذي بدأ السير بالفعل، وعلى الرغم من أنه كان يمشي مستندًا إلى عصاه إلا أنه كان رشيقًا للغاية ولم يُصدر أي ضجة.

وصلنا إلى أسفل جُدُر القلعة، حيث قادنا بصمت عبر الزوايا المظلمة التي لم يسطع فيها ضوء القمر. كان هذا الباب صغيرًا لدرجة أن حارسًا واحدًا فقط يحرسه، وكان يعرف الطبيب موسى، ولذلك فتح الباب عندما رآنا دون أن يسأل أي شيء. أدركتُ أننا خرجنا من بابٍ سري، الأمر الذي أخافني أكثر على مصيرنا، ولم أكن قلقة على يوسف، لأن صفيّة ستربيه جيدًا دون معرفتها بأنه أميرٌ أندلسي، ولكن ماذا عنا؟ عائلتي، بيتي، كيف سيجدونني؟ إذا متُّ في هذا الوقت، فماذا سأكون هناك؟ من المؤكد أن الطبيب موسى لم يصدق ما قلناه، كان الأمر واضحًا، إذًا ماذا سيفعل بنا؟

السوق الذي كان مكتظًا في النهار، كان صامتًا الآن، ولم يرنا أحد.

كان توتّرنا يزداد بينما نسير في صمت... ترتعش يد ماثيو وهو يمسك بذراعي، كنتُ أعلمُ أنَّه خائف أيضًا. ولكن عندما رأيتُ واجهة المدرسة، شعرتُ ببعض الارتياح، وحاولت الاسترخاء. هذا مكانُ العلم ولن يحدث شيءٌ سيّئ لنا هنا، ربما سنتحدث فقط.

وهذا ما حدث، أحضَرَنا إلى غرفةٍ صغيرةٍ وبسيطة فيها أريكتان متقابلتان فقط، وسجادة، وطاولة كتابة بارتفاع نصف متر وشموع، كانت هناك أربعة أو خمسة كتب على خزانة الكتب المفتوحة المنحوتة في الحائط، مع بعض الأوراق الخشنة بجانبها. كانت الغرفة غرفة دراسته، وبدت مكانًا مثاليًا لجمع أفكاره؛ إذ لم يكن يوجد ما يشتت التفكير، ولا نوافذ ولا كتب أخرى.

عندما جلسَ على الأريكة بسرعة، أدركتُ كم كان هذا الطريق متعبًا بالنسبة إليه، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه وتحكّم في تنفسه، وأشار إلى الإبريق الموجود في الزاوية البعيدة من الغرفة طالبًا الماء، فأخذتُ على الفور الكوب النحاسي وقدمته له، وبعد أن شربَ رشفاتٍ صغيرةٍ من الماء، تحسن قليلًا، ثم طلب مني ومن ماثيو، حيث كنا واقفَين بجانب الباب المغلق ننتظر مصيرنا بفزع، أن نجلس على الأريكة المقابلة له، فجلسنا مطيعَين.

قال بغموض: "لديكما شيءٌ يخصني".

تبادلنا أنا وماثيو النظرات، لم يتوقع أيٌّ منا هذا!

قال ماثيو وهو لا يزال يحاول إنقاذ وضعنا: "لم نحضر لكم شيئًا عندما جئنا".

قال الطبيب موسى هامسًا: "أنتما تعرفان ما أعنيه أيها الولدان"، ثم مالَ إلى الأمام قليلًا. وعند اتخاذه هذه الوضعية ألقى ضوء الشموع بظلاله على لحيته البيضاء، ما عزّز تعبيره المخيف.

كنا صامتَين، ولم نعرف ماذا سنقول... لقد نسيتُ بالفعل ثلاث أو خمس كلماتٍ من العربية كنتُ أعرفها، وأصبحتُ مجرَّدَ مستمعٍ الآن.

تابع الطبيب موسى: "بمجرد أن رأيتكِ، أدركتُ أنكِ لا تنتمين إلى هنا"، وخفضَ صوته أكثر حتى اضطررنا للانحناء من أجل سماعه.

قلتُ على الفور: "نعم، العثماني...".

أسكتني رافعًا يده، وقال: "من مكانٍ بعيد"، ثم أخذ نفسًا عميقًا وخفض صوته حتى سمعناه بالكاد: "من زمانٍ آخر".

بدأ عقلي يتخدّر، فأمسكتُ بذراع ماثيو في خوف، كان عابسًا أيضًا، محاولًا فهم الطبيب موسى، وربما يفكر في أسئلة مثل: هل نحن في خطر؟ أم هل يجب أن نثق به، تمامًا كما كنتُ أفكر.

قال الطبيب موسى بسرعة: "لا تحاولا إنكار ذلك".

كان واثقًا تمامًا من كلامه، من الآن فصاعدًا لن نتمكّن من إثبات خلاف ما قاله بأي شكلٍ من الأشكال.

كان ماثيو أول من تخلى عن حذره، فأراح كتفيه وسأله: "كيف عرفت؟".

أصبح الطبيب موسى متحمسًا كطالبٍ في العشرين من عمره أمامنا وكانت عيناه تلمعان، ثم التفتَ إليَّ وأجاب: "من الواضح أنكِ لا تنتمين إلى هنا، ولستِ في السادسة عشرة من العمر، لديكِ قَصةُ شعر

وأظفار غريبة، لا تعرفين أي شيءٍ عن الأعشاب والطب النباتي، وهو ما يتم تدريسه في كل مكان منذ الطفولة، كم عمركِ؟".

صُدمت، وأجبتُه قائلة: "اثنان وعشرون عامًا".

التفتَ الطبيب إلى ماثيو وقال: "في كل مكانٍ في العالم، بغض النظر عن أي دولة، يتم التجنيد منذ الصِغَر، بينما لا يمكنك حتى أن تمسك سيفًا! إن حكايا قلة خبرتك تجوب شوارع المدينة".

لو كنا في أي موقفٍ آخر، لكنت انفجرتُ من الضحك، ولكن في ليلة الصيف الحارة هذه، لم أستطع حتى التنفس مع التوتّر الناجم عن التعرق البارد في غرفة المدرسة الصغيرة هذه، وقد تركتُ مصيري بين يدي ذلك الرجل العجوز.

شربَ رشفةً من الماء ثم قال لي: "لم أقرأ أو أسمع من قبل عن اسم مانوليا في أي كتاب"، ثم قال لماثيو: "لقد أخفيتَ اسمكَ الحقيقي على الأقل"، كان الرجل ذكيًا جدًّا!

عندما قال ماثيو اسمه، هتف الطبيب بدهشة: "هل أنت كاثوليكي؟".

بالرغم من أن الحظ حالفنا حتى الآن، لكنني قلت لنفسي إنه لم تعد لدينا فرصةٌ للخلاص بعد الآن؛ تم سحب دبوس القنبلة.

عزمَ ماثيو على الإجابة بحذر وخجل، وما إن قال: "نع..."، حتى قفز الطبيب موسى وقال: "لا أريد أن أسمع ذلك، يكفي أنكَ أتيتَ إلى هنا وقدَّمت المساعدة، أما دينك فلا يهم".

كان هذا الرجل الحكيم يفاجئني أكثر فأكثر مع كل دقيقةٍ تمر... ثم فتح يده وقال: "فلتُعطِني الأمانة".

مدَّ ماثيو يده إلى جيب ردائه، وبعد ثوانٍ قليلة وضع الإسطرلاب المتوهّج نتيجة انعكاس ضوء الشموع على المكتب الذي أمامنا، كنتُ حتى هذه اللحظة ما زلتُ أتساءل عما إذا فعلنا الشيء الصحيح، ولكن لم يكن لدينا خيارٌ آخر، إذ كُنا محاصرَين تمامًا.

أخذ الإسطرلاب بإعجاب وأمسكه بشوق وكأنَّه صديقٌ قديم، ثم قال: "يوسف"، التفتَ إلينا وعيناه امتلأتا بالدموع، وتابع: "أحضرتموه سالمًا، وسوف يكبر الآن بأمانٍ هنا في منزله".

وسيجلس على العرش عندما يحين الوقت... لم يُعرَف في التاريخ أنَّ هناك أطفالًا لإسماعيل الثاني، لكن في الرسالة التي أُرسلت إلينا، كُتب أنَّ يوسف هو ابنه.

تساءلتُ عابسة: "هناك شيء لا أفهمه، لماذا أخفيتم يوسف هناك؟ تحت حجرة العرش؟".

كيف يمكن للسلطان الذي بناها ألَّا يعلم بها؟

قال الطبيب موسى: "لا يستطيع الناس رؤية ما هو عند طرف أنوفهم، عندما يكون لديكِ شبكةٌ واسعةٌ تحتوي على أسرار، يمكنكِ حماية ما هو أمامك بسهولة أكبر".

أمسكتُ برأسي وقلت: "أنا لا أفهم، إذا كان يوسف الذي قمتم بتجميده في غرفة العرش، فمن هو يوسف الذي أحضرناه؟ علاوةً على ذلك، لماذا لم توقظوه؟".

أجاب الطبيب موسى: "مرَّت سنوات منذ أن تولى محمد الخامس العرش، ونسي الجميع إمكانية وجود عائلة لإسماعيل الثاني منذ فترة

طويلة، فاستقر الوضع، وقد أحضرتموه في الوقت المناسب الآن... نعم كان بإمكاننا إيقاظه أيضًا، لكنَّنا لم نستطع، فالآلية لا تعمل بهذه الطريقة".

بعد ذلك، بدأ يتحدث عن تقنية الآلية، وكان ماثيو يترجمُ لي بين الحين والآخر؛ تقنية التحنيط هذه، التي طوروها بطريقة ما، لم تكن ناجحة على الأشخاص الذين تم إيقاظهم على الفور، لذلك عمدوا إلى أن تمر أطول فترة ممكنة.

نظرًا لأن الإسطرلاب لم يُجَرَّب أبدًا، فقد تُرك كل شيءٍ للقدر.. صحيحٌ أنهم طوروا التكنولوجيا اللازمة ولكن اختبارها كان تحديًا في السنوات التي عاشت فيها البلاد الكثير من الصراعات على العرش، والاضطرابات الداخلية، والتهديد المسيحي من الخارج. علاوةً على ذلك، سمع المسيحيون قبل سنوات بالأبحاث والدراسات التي يقومون بها حول السفر عبر الزمن ومئات السنين من الحياة، وعلى الرغم من أنهم عاشوا في سلام مع جيرانهم لسنوات، إلا أنَّهم أرادوا مهاجمة الأندلس والاستيلاء عليها بسبب الخوف من القوة التي يمكن أن تشكلها هذه المعلومات.

كان كلُّ شيءٍ ذكره منطقيًا جدًّا، ولكنه في نفس الوقت غريب للغاية، وكأن الأمر أشبه بالنظر إلى لوحة سريالية كلُّ عناصرها مألوفة وتصنع كيانًا متكاملًا، إلا أنّ عقلي يقف ضدها.

فهمتُ قليلًا حين وصف الإسطرلاب وانتقاله بين الأكوان بأنه أعجوبة هندسية من خلال شرحه بطريقة تتعلق بالأبراج والأبعاد، فاعتبرتُها بمثابة "آلة زمن".

ولكن كان أمر يوسف هو أكثر ما صعُبَ عليَّ استيعابه؛ إذا كنا قد أحضرنا يوسف من المستقبل، فأين يوسف الذي تجمد في الجزء السفلي من القصر منذ سنوات؟ هل هناك اثنان من يوسف الآن إذن؟!

أوضح الطبيب ذلك بطريقةٍ مشابهةٍ لنظام الغاز المستخدم لفك أربطة يوسف عندما فُتح الباب؛ كانت تلك الغرفة في الواقع بُعدًا آخر، كونًا آخر. قال إننا عندما انتقلنا إلى هنا، أحضرنا يوسف المجمَّد في هذا الكون. ولكن ماذا حدث ليوسف الذي بقي في زماننا؟ وفقًا للطبيب موسى، لم نكن هنا أيضًا في الحقيقة، كنا مجرد انعكاسات.

قال الطبيب موسى: "لا يستطيع العقل البشري أن يفهم أسرار الكون، العقل البشري ليس له حدود، العقل والكون"، أخذَ نفسًا عميقًا، فرجفت شعلة الشمعة، ثم تابع: "الله سيد الكون، لقد خلَقنا نحن البشر بصفتنا الكائن الوحيد القادر على التفكير بقوةٍ دماغيةٍ لا نهائية، تمامًا مثل العالم الذي نعيش فيه وكونه نقطةً في الكون".

استجمعتُ أفكاري وقلت: "إذًا قُمنا بإحضار يوسف المُستيقظ إلى هنا، وبالتالي أيقظنا يوسف الذي كان نائمًا هنا، هل سنكون بالتالي قد غيرنا مجرى التاريخ عندما يتولى يوسف العرش؟".

لمعت عيناه! كنا نعرف ما حدث في التاريخ، ولكنه لا يعرف... عبرت عينيه أسئلةٌ كثيرة، لكنَّه لم يسأل أيًا منها بل قال: "الله أعلم، نحن فقط نبذل قصارى جهدنا ونفعل ما في وسعنا".

قال ماثيو: "قلتَ إننا انعكاس فقط، ولسنا هنا حقًّا!".

بدا مرتبكًا مثلي! كان كلُّ شيء غير عادي لدرجة أننا رفضنا فهمه، حيث توقف عقلنا عن التفكير في مكانٍ ما.

قال الطبيب موسى: "سوف تفهمون، فكل شيء سيكون أكثر منطقية عندما تفهمون الكون والأزمنة وقوة المعرفة".

سألتُ بانزعاج: "متى؟".

ابتسمَ وأجاب: "لقد أعطيتُ اثنين وسبعين عامًا من عمري، وقد أمضيتُ عمري في هذه المكتبة وما زلت أعرف"، خطر بباله شيء فتوقف، ثم سألَنا: "هل تعرفون الصوفية؟".

أومأنا برأسنا بأننا لا نعرفهم، فقال: "عندما تتركُ الروح الجسد، تترك جسدها الإنساني وتنتقل إلى عالمٍ آخر، إنها في بُعدٌ آخر، هذه هي الطريقة التي ينتقلُ بها الشخص، فأين تذهب تلك الروح عندما تغادر الجسد؟".

تجمّدنا أمامه حائرين، فتابع: "صوفيٌّ، لم يولد ولم يمت، أو شخصٍ دخل صفوة العبادة... أين تذهب أرواحهم عندما تترك أجسادهم وتذهب إلى الصفوة؟".

شربَ رشفةً من الماء وتابع: "هكذا هي الروح! العقل غامض، والإنسان مليء بالمعجزات، من يدري في أي أكوانٍ يسافرون... في معظم الأوقات، هم أنفسهم لا يعرفون أيضًا... الله أعلم".

تابع ماثيو: "إذا كنا انعكاسًا هنا، فكيف سنعود إلى المنزل؟ في زماننا؟".

قام الطبيب موسى بمداعبة لحيته بعناية وقال: "هذا يا رفاق ما لا أملك جوابه، تم تصميم الإسطرلاب لإعادة يوسف، لهذا السبب

يمكنه العودة فقط، الأبراج والفلك... لا يوجد عالِمٌ يريد الانتقال إلى المستقبل، لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يعارض قدَره".

شعرتُ بالغضب وقلت: "ما دام الأمر كذلك، لماذا أتعبتم أنفسكم إذًا هكذا لإعادة يوسف؟".

نظرَ إليَّ بحنان، وقال: "كم من إخواننا المسلمين سُفكت دماؤهم من أجل إقامة هذه الدولة والحفاظ عليها...".

وأضاف: "قُمنا بدورنا في الحفاظ على هذه الدولة، كان من المفترض أن نقوم بحمايتها وقُمنا بذلك... شكرًا لتقديمكما هذه التضحية".

قفزتُ على قدميَّ، لم أعد أعرف كيف أُعبِّر عن مشاعري باللغة العربية، فلجأت إلى ماثيو، وصرخت: "نحن عالقون إذن في هذا الزمن، الروح أو الجسد، أيًا كان! ففي النهاية نحن هنا! هل سنبقى هنا إلى الأبد؟".

كان ماثيو على وشك فتح فمه لتهدئتي عندما نهض الطبيب موسى وقال: "أنا لا أعرف الطريقة، لكنني أعرف شخصًا قد يعرفها".

التفتُّ إليه بأمل فتابَع: "سمعتُ أنَّه اطلع على بعض الكتب تتعامل مع هذه القضايا في مكتبة الإسكندرية، ربما يمكنه مساعدتكم".

عندما تحدَّث أكثر، تمكّنت من انتقاء الكلمات، بقدرِ ما فهمت فإنَّ هناك عالِمًا كبيرًا في السن عاش في الإسكندرية، يُظَن أنَّه تجاوز المائة عام، وقد تعلَّم هذا العالِم العديد من الأسرار من الكتب القليلة التي تم حفظها من تلك المكتبة ونقلها من جيلٍ إلى جيل لسنوات، ولم

يعرف عنها أحد سوى الشخص الذي تدرب معه، وبالطبع هناك علماء أمناء مثل الطبيب موسى.

تم حرق مكتبة الإسكندرية جنبًا إلى جنب مع الألغاز المجهولة والقديمة لمصر القديمة من قبل الرومان ودُفنت في صفحات التاريخ المظلمة، لهذا نطرحُ دائمًا أسئلة مثل: هل بنى الفضائيون الأهرامات؟ هل كان هناك كهرباء في مصر القديمة؟ أو هل سافر المصريون إلى الفضاء؟ لا نزال نقرأ الكثير من الاحتمالات.

قالَ الطبيب: "إذا انطلقتم الآن، ستكونون في ملقة بحلول الظهر".

تطوّرت الأمور بسرعة كبيرة بعد ذلك، حيث وجدتُّ نفسي على حصان وأتمسك بظهر ماثيو، وعلى الحصان الآخر المجاور لنا كانت علياء، الابنة الصغرى للطبيب موسى، والتي يبدو أنها في مثل سني. هذه الفتاة الجميلة الشجاعة والفخورة، التي التقينا بها لفترةٍ وجيزة، وقفت منتصبة بجانب والدها مثل المحارب. كان حلمها الأكبر أن تتلقى العلم في الإسكندرية، ولهذا السبب كانت سعيدةً بالانضمام إلينا بعد أن عرض عليها والدها الأمر.

قبل مغادرة الباب الخلفي للمدرسة، اقترب منا الطبيب موسى، وقال: "ذكَّرتِني بلُبنى القُرطبية"، نظرتُ إليه بحيرة، فابتسم وقال: "كانت مسؤولةً عن مكتبة قُرطبة الضخمة في عهد السلطان عبد الرحمن الثالث".

نظرَ إلى الأرض، وعندما نظرَ إلينا مرةً أخرى، رأينا الدموع تملأ عينيه للمرة الثانية الليلة، تابع قائلًا: "خمسمائة ألف كتاب، قبل أن تحترق..." لم

يستطع الاستمرار. ولكنه تمكن من التحدث مرةً أخرى بعد التركيز بوجهي: "كانت لُبنى أيضًا كاتبة السلطان وكاتبة ومترجمة، لا يزال الناس يتحدثون عن خطها وشِعرها"، واصل الحديث كما لو كان مفتونًا: "لقد كانت أيضًا عالمة رياضيات، يُقال إنَّها تعلم العمليات الحسابية للأطفال الذين تراهم في الشارع". كان ينظر إليَّ ولكنه بدا وكأنه يرى شخصًا آخر طوال الوقت، مدَّ يده وأمسك بيدي وقال: "ربما لستِ طبيبة، ولكني أعتقد أنَّكِ قمت ببعض الأعمال المهمة في زمنكِ". ثم أشار إلى ما حولي وأضاف: "لقد حللتِ تلك المشاكل ووصلتِ إلى هذا الحد"، كان يلامس يدي بحنان الأب وهو يقول أخيرًا: "لا تفقدي الأمل".

بعد أن ودَّعَ ماثيو، بدأنا رحلتنا المتعبة التي استغرقت اثنتي عشرة ساعة. أخذنا فترات راحة بين حينٍ وآخر، فقد كان الطريق الذي نسير فيه مستقيمًا، وهو طريقٌ تجاريٌّ آمن، حيث تم إنشاء أماكن لراحة الخيول. وبالطبع فإن وجود سيفٍ مع علياء جعلني أكثر راحة، ولكن نظرًا لأننا لم نتعوّد على ركوب الخيل، فقد كنا نتحرك بأبطأ سرعة، وكنت أُريح رأسي على ظهر ماثيو وأغفو من وقتٍ لآخر، كما ربطنا أحزمتنا معًا لتجنب السقوط لأنه كان من الصعب حقًّا المحافظة على التوازن. كنتُ بالكاد أغمض أجفاني، لذا أسرعتُ في كل توقفٍ إلى الترجل عن الحصان لأمدِّد ساقيَّ... سأستلقي طوال الرحلة بمجرد وصولي إلى السفينة.

عادةً ما يستغرق الطريق ساعة واحدة بالسيارة بين ملقة وغرناطة، ولكن مع هذا العذاب الذي مررنا به... واحتمال عدم قدرتنا على العودة إلى منزلنا... كان كلُّ شيء صعبًا للغاية بالنسبة إليّ، ولذلك

تأثرت كثيرًا أثناء مشاهدة شروق الشمس، ودعوتُ كثيرًا وتمنيت أن أعود إلى المنزل في أسرع وقتٍ ممكن، لحسن الحظ لم أكن وحيدة.

في شمس الظهيرة الحارقة، وصلنا إلى ملقة، الجارة المقابلة لشمال إفريقيا، كانت مدينةً قديمةً عظيمة بقلعتها الرائعة القائمة على تلَّتِها، وميناءها الواسع.

توجد لوحات الكهوف من عصور ما قبل التاريخ، لكنَّ الفينيقيين هم أول من أنشأها كمدينةٍ ساحلية، لقد مرَّت بثقافاتٍ عديدة، يونانية، رومانية، بيزنطية... وأخيرًا انتزع طارق بن زياد المدينة من القوط الغربيين، وعلى ما أذكر، كانت ملقة واحدة من آخر المدن الأندلسية التي سقطت... لا يزال لديها بعض الوقت.

برزت أسئلة جديدة في ذهني، إذا اعتلى يوسف العرش، فهل تمتد حياة الدولة؟ ربما لن يضطر السلطان إلى تسليم المدينة للمسيحيين... هل سيتغير مسار التاريخ حقًّا؟، أخذتُ نفسًا عميقًا، وكان السؤال الأهم بالنسبة إليّ هو ما إمكانية عودتي.

عندما وصلنا إلى الميناء، شاهدنا ازدحامًا كبيرًا؛ كان هناك ميناء تجاري بجوار الميناء العسكري، حيث يتم تفريغ البضائع في مرطبانات وتحميلها على ظهور الحمير أو على عربات تجرها الخيول بواسطة أشخاص يعملون كالنمل.

كما كانت المدينة الداخلية وأسواقها وشوارعها مزدحمة بشكل لا يصدق تماشيًا مع هذه الحركة، وبدا الازدحام مشابهًا لازدحام الطرق السريعة في زمننا.

علياء، التي لم تتحدث إلّا قليلًا طوال الليل والغامضة مثل أبيها، وجدت السفينة التي ستقلّنا بعد التحدث إلى عددٍ قليلٍ من الأشخاص هناك. كان قاربًا حقيقيًا من العصور الوسطى؛ قاربًا ضخمًا مصنوعًا بالكامل من الخشب، يُبحر بواسطة المجدّفين والأشرعة...

مرَّت علياء أمامنا، وقلَّبت شيئًا في يدها قبل أن تصعد إلى السفينة، وفجأةً أعطتني الإسطرلاب قائلةً: "أراد والدي مني إعطاءكما هذا، آملًا أن تجدا طريقةً لإعادة استخدامه".

الفصل الثاني عشر

صيف 1368م

كان هذا ما أوصلنا إلى هنا.

نظرتُ إلى القماش الأحمر المتمايل في الجزء العلوي من العمود الذي يلتقي بالسماء، كان الشعار المكتوب بإطارٍ من أزهارٍ صفراء تتلألأ في الشمس كبيرًا جدًّا بحيث يمكن رؤيته من كل مكان: "لا غالبَ إلّا الله"، وكنتُ آمل أن يتمكّن من إعادتنا.

صاح البحارة: "بسم الله، حبل الرأس!".

أخذتُ أدعو بصمت بينما كانوا يصرخون ويشدون الحبال... كنتُ أعرف الكثير عن مخاطر الطريق البحري في العصور الوسطى: القراصنة، وحطام السفن، والعواصف.

ستستغرق رحلتنا حوالى أسبوع إلى عشرة أيام حسب الطقس؛ أبحرنا على متن سفينة عملاقة، وأشرعتنا مفتوحة على مداها بقوة الرياح، حيث تتقدم السفينة بقوة المجدِّفين الذين تصل صيحاتهم إلى سطح السفينة من وقتٍ لآخر.

راقبت الشاطئ بينما كانت سفينتنا المصنوعة بالكامل من الخشب وبحرفيَّة رائعة تبتعد أكثر فأكثر باتجاه ملقة؛ في البداية اختفى الناس

الذين على الشاطئ، ثم القلعة والأبراج على التل... الآن بقيت فقط سماء متلألئة وبحرٌ يشاركها اللون الأزرق.

قال ماثيو الذي كان يشاهد المناظر الطبيعية بجانبي: "أتساءل ماذا كان سيحدث لو بقينا؟".

فكَّرت قليلًا قبل أن أجيب، ثم قلت: "أوصلَنا الزمان إلى قصر الحمراء، والآن سنبحث عن الحل على بعد أميال منه، لا أعلم...".

تبعثر تفكيرنا عندما جاء إلينا أحد أفراد طاقم السفينة الصغار، في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر، وقال شيئًا لماثيو.

فهمتُ أن "القبطان أراد مقابلتنا"، فبدأت السير نحو الجسر، وقد أثارتني بصراحة فكرة لقاء قبطان من القرن الرابع عشر... كانت فكرة الإبحار في هذا القارب الضخم الذي يتقدم في أغلب الوقت دون أيِّ قوة تجديف رائعة، وكنت أعاينُ التاريخ بنفسي.

عندما وصلنا إلى حُجرة القبطان، وجدنا أنفسنا في قاعةٍ ضخمةٍ مزينة بأناقة، تم وضع وسائد الحرير على سجادة فارسية باهظة الثمن، وطاولة كتابة مطعمة بصدف اللؤلؤ وطاولات قهوة ملفتة عليها أباريق فضية ورخام الشرق الأقصى. كان هذا القبطان، الذي يسميه الجميع الريس حسن، صاحب السفينة أيضًا وكان يعمل في التجارة، إذ تم ملء المستودعات أدناه بالبضائع.

وقف الريس حسن فور رؤيتنا ندخل، وعلى الرغم من أنَّه بدا وكأنَّه في منتصف الثلاثينات من عمره بشاربه المنجلي وبشرته البنية الداكنة وحروق الشمس وعينيه السوداوين، إلّا أنَّ جسده الرشيق الذي

لم يستطع سرواله الفضفاض وقميصه الأبيض تغطيته جعلهُ يبدو أصغر سنًا.

قال بجدية: "إذًا أنتم ضيوف الطبيب موسى".

أخبرناه أسماءنا وقدَّمنا أنفسنا، وبعد أن أشار إلينا للجلوس، جاءت علياء أيضًا.

قال وهو يتناول المشروب الذي أحضره البحار الصغير بكؤوس فضية: "إنَّ ضيوف الطبيب موسى هم ضيوفي أيضًا، لقد شرفتم بَرَكَتي".

استغرق الأمر مني برهةً لأدرك أن اسم السفينة كان "بَرَكَة"، لم يكن للسفن أسماء كثيرة في هذا الوقت.

قال القبطان لعلياء: "آخر خريطة أرسلها الطبيب موسى جميلة للغاية".

شكرَته علياء بأدب، وقد أصبحت ملامحها واضحة مع أشعة الشمس مؤكدةً على جمالها، فبدت مثل حورية البحر، وأدركتُ عندها أنني لم أنتبه لها كثيرًا في الليل؛ كانت علياء أجمل من أختها صفيّة، وبقدر لطفها وكرامتها، لكنها كانت أيضًا شجاعة مثل المحاربة، ولم يكن الخنجر الموجود على حزامها المصنوع من السلاسل الفضية صغيرًا.

يمكنك أن تشعر بحماسة هذه الفتاة من على بعد أمتار، إذ أصبحت خداها حمراوين بالفعل نتيجة حماسها الشديد للإبحار. أثارني الفضول؛ كيف ستعيش علياء التي لم تكن بسُكونِ صفيّة حياةً هادئةً في الإسكندرية وتتلقى العلم والمعرفة هناك؟

قال وهو يقودنا ببطء إلى وسط الغرفة: "هيا بنا، لنرى معًا".

نهضنا من أماكننا وشاهدنا البَحار الصغير يرسم بحركةٍ رشيقة الخريطة على الأرضية الخشبية خارج السجادة، وكانت أطول منه حتى وهي مطوية.

حبستُ أنا وماثيو أنفاسنا عند رؤية خريطةٍ طولها ثلاثة أو أربعة أمتار مصنوعة من جلد حيوان.

سأل الريس بفضول: "هل رأيت مثل هذه الخريطة في بلادك يا تاركان؟".

أجاب ماثيو أنَّه لم يرَ مثلها على الإطلاق، كنَّا بالكاد نرى مثل هذا العمل حتى في المتاحف، إلى جانب ذلك، كانت هذه الخريطة جديدة.

قال القبطان مشيرًا إلى صور السفن التي تحمل أعلامها الملونة التي رُسِم عليها حتى الأشخاص الصغار: "السفن في اللاذقية جميلة".

اللاذقية هو الاسم القديم للبحر الأبيض المتوسط، وقد رُسم كما يبدو اليوم تقريبًا، كان مُفصَّلًا للغاية مع كتابة أسماء الموانئ المهمة ورسوماتٍ للقلاع والمدن بأسلوبٍ مصغّر.

قال بفخر: "لديَّ خريطة أخرى تظهر البحار الهندية والصينية"، ثم التفتَ لينظر إلى التحفة الملقاة على الأرض وقال: "لكنَّ كلَّ شيءٍ يصبح عاديًا بالمقارنة مع هذه".

عاينتُ جزر البحر الأبيض المتوسط، كانت هناك جزيرة سردينيا، وبجوارها جزيرة صقلية. نظرتُ إلى ساحل بحر إيجة والجزر الصغيرة، فرأيتُ إسطنبول، كانت لاتزال القسطنطينية عاصمة بيزنطة في ذلك

الوقت، ولم تصبح إسطنبول بعد. ثبتَت عيناي عليها لفترة، لم تكن عيناي تريان أيَّ مكانٍ آخر... هناك منزلي، اشتقت إلى منزلي كثيرًا.

عندما بدأت السفينة تهتز بهدوء، أبعدتُ نظري عن التفاصيل والكتابات التي كنتُ أحاول قراءتها.

التفت إليّ ماثيو وقال بالإنكليزية: "هل أنتِ بخير؟"، فتساءلتُ عما رآه على وجهي يا تُرى!

التفتَ إلينا الريس وعلياء اللذان كانا يتحدثان فيما بينهما بحرارة عن الرياح، وقال الريس: "إنها تهتز قليلًا أثناء العبور إلى إفريقية، لكن في هذا الموسم يكون البحر مسطحًا مثل سماء الصيف".

نتيجة اهتزاز رأسي قليلًا، أدركتُ لاحقًا أنَّه كان يقصد انتقالنا إلى القارة الأفريقية، والذي كان من الصعب جدًّا فهمه حتى في الحالة الطبيعية لأنَّ لهجته العربية كانت مختلفة عن تلك المنتشرة في القصر على أي حال.

قال ماثيو: "أعتقد أنه من الأفضل لأختي أن تستنشق بعض الهواء النقي".

ودّعناه بأدب قائلَين: السلام عليكم، وخرجنا، إذ أخبرتنا علياء سابقًا أنه من المعتاد قول ذلك عند الدخول والخروج من عند القبطان. نظرتُ إليها وأنا أغادر، لكنَّها كانت قد فتحت بالفعل كتابًا أحضرته معها، وأخذت تعرض شيئًا للريس.

كان من الواضح من مقصورته أن الريس أيضًا رجلٌ فضولي للغاية ومحب للعلم، لذلك أثار حماسته وجد الركاب على متن سفينته

التجارية، وخاصة طلاب الطبيب موسى، وبالذات ابنته، ولهذا أصرَّ على أن نتناول وجباتنا معًا وأن نكرمه بمحادثاتنا وصداقتنا كما قال.

عندما خرجنا، كانت الشمس قد فقدت تأثيرها إلى حدٍ كبير. أخذتُ نفسًا عميقًا عندما ضربت الريح المالحة وجهي، كان الهواء النقي جيدًا لي في ذلك الوقت.

لم يكن الخارج مهتزًا مثل الداخل، ربما شعرت بالارتياح لأنَّ الأمواج لم تكن كبيرة كما كنت أخشى ولأنَّني رأيت السماء صافية.

قال ماثيو: "إنها تهتز حتى الآن وهي تمر عبر جبل طارق"، ثم صحّح نفسه: "حسنًا، حتى العبَّارات الحديثة من زماننا تهتز عندما نمر من هنا، لكنَّ الأمر يستغرق بضع ساعات، وليس أيامًا".

ما قاله لم يحسِّن الوضع، بل زاد من حنيني للوطن وشعوري بالدُّوار، فأخذتُ نفسًا عميقًا على أمل أن يختفي هذا الدُّوار والغثيان.

حدَّقنا إلى الأفق بصمت لفترة ثم سألتُ بصوتٍ خافت: "هل تعتقد أننا أحرقنا السفن أيضًا؟".

عبرَ شيءٌ ما على وجهه قبل أن يجيب؛ عاصفةٌ من العواطف، ربما ذكريات، ربما مشاعر، ربما أحلام لم يستطع تحقيقها، ربما طفولته... أيًا كان هذا الشعور، فقد غمرنا كلينا منذ صعدنا إلى السفينة.

فكَّرتُ في طارق بن زياد؛ قائدٌ شجاع، مستقل، مثالي، بمجرد أن هبط في إسبانيا مع جيشه عام 711م، أشعل النار بكامل أسطوله البحري وأخبر جنوده أنَّه لن يكون هناك عودة. وتبع ذلك حركة فتحٍ كبيرة لإسبانيا دون انقطاع، واستمر الحال كذلك حتى نفاه السلطان الذي

يتلقى الأوامر منه، وهكذا أُطلقَ على هذا المضيق اسم جبل طارق.

قال ماثيو: "لن نعرف ما إذا كنا قد أحرقنا السفن أم لا، حتى نستخدم كل وسائلنا وفرصنا".

كان من الواضح أنه يحاول تشجيعي وتشجيع نفسه، وعندما رأى ترددي أجبر نفسه على الابتسام، لكنَّ عينيه لم يكن فيهما الوميض والابتسامة الصادقة التي رافقته في اليوم الأول الذي قابلته فيه خلال تلك الندوة.

بقيتُ صامتة أغلب الوقت على العشاء، إذ كان من الصعب اللحاق بمناقشات علياء والريس حسن المحتدمة حول مواضيع مثل الجغرافيا وعلم الفلك والأحداث الطبيعية، ولم تكن لغتي العربية كافية لذلك. حتى ماثيو كان يواجه مشكلة في مجاراتهما، وكان يتعرض للأسئلة من وقتٍ لآخر، لكنَّه لم يخض في التفاصيل معطيًا إجابات مدروسة حتى لا تُكشف هويتنا. وكان من السهل بالنسبة إليّ التركيز على طعامي في حين كان ماثيو يجيب على أسئلتهم.

اختفى البحر عندما عبرنا المضيق، وبدأنا في الإبحار بموازاة الساحل الأفريقي... كنت مستلقية على سريري طوال فترة ما بعد الظهيرة لتخفيف الغثيان والدُّوار الذي أشعر به عندما أقف، لكنَّ الاستلقاء لم يجدِ نفعًا، لذلك سُعدتُ بوجود الخبز الطازج والجبن واللحوم المقددة على العشاء. والحقيقة أن البطاطا المسلوقة هي أفضل طعام في هذه الحالة، ولكن في هذا العصر لم تكن البطاطا موجودة، وما زال هناك ما يزيد قليلًا عن قرن حتى تصبح أحد أطعمة الناس الرئيسية.

وفي كل الأحوال، فرحتُ لوجود الكثير من الفاكهة، والمعجّنات المجففة مثل البسكويت، والمشروبات الباردة التي شعرت بأنها جيدة لمعدتي.

علمتُ أنَّ الأندلسيين يحبون الجلوس ساعات طويلة بعد العشاء، وبعد الجلوس لبعض الوقت ذهبنا إلى المقصورة التي تشاركتها مع علياء؛ كانت صغيرة وضيقة، ولا يوجد سوى مسافة ذراع بين السريرين الفرديين المواجهين أحدهما للآخر. وكان من لُطفِ علياء أن أعطتني السرير بجانب النافذة، لكنَّ الأمر لم يشكل أهمية في الواقع، فالنافذة المربعة كانت صغيرة جدًّا، وبالكاد تسمح برؤية الخارج أو إدخال ما يكفي من الهواء عبرها.

بعد أن تقلّبت في سريري لفترة طويلة توقّفت عن محاولة النوم ونهضت، فوجدت علياء غارقةً في نومٍ عميقٍ، حيث كانت جفونها مغلقة ولا ترفُّ، ومحاطةً برموشٍ جميلةٍ. لا بدّ أنها تعبت من المناقشات الفكرية المكثفة اليوم، عدا عن أننا سافرنا خلال الليلة السابقة على ظهور الخيل حتى الصباح، وبالكاد نُمنا، بل كنا متيقظين للمخاطر، واضطررنا إلى المغادرة في أسرع وقت ممكن.

كنت أشعر بالصداع بسبب قلّة النوم، وفي نفس الوقت كان جسدي يرفض النوم، والحجرة الضيقة تضغط على روحي وتُضيّق نفسي، فخرجتُ ماشية على أطراف أصابعي. كان الريس دقيقًا جدًّا بشأن سفينته، فلم يكن خشب الأرضية متشققًا، على الأقل في هذا الجزء من القارب.

استنشقتُ الهواء النقي الذي أصاب وجهي، وشققتُ طريقي إلى الجانب الأيمن الذي يطلق عليه البحَّارة اسم الميمنة، وبعد أن راقبت البحر لفترة عدتُ إلى سطح السفينة، وحسب ما رأيته من الأعلى فقد كان بعض البحَّارة ما يزالون مستيقظين ينتقلون من مكانٍ إلى آخر، كانوا يعملون حتى في هذه الساعة.

ألقى أحدهم شيئًا لم أتمكن من رؤيته من هنا على الحارس الجالس على أحد الأعمدة، فلم أستطع منع نفسي من الضحك عندما قفزَ الحارس النائم وفتح عينيه، كما ضحك أيضًا البحَّارة في الطابق السفلي.

"ألم تتمكني من النوم أيضًا؟".

قفزتُ من مكاني مرتعبة من الصوت الذي أتى من خلفي، وقلت: "ماثيو، لقد أخفتني"، وأنا أرى وجهه المألوف وشعره المجعّد الذي يحيط بوجهه مثل هالة سوداء في الظلام.

قال ماثيو مبتسمًا: "آسف، لقد كنتِ تضحكين وحدك".

عاد إلى طبيعته فجأةً، وقد أسعدتني عودته كما أعرفه مرةً أخرى، أدرتُ رأسي وأرحتُ ذراعي على الجدار الخشبي مرةً أخرى. كانت النجوم تلمع مثل كرات النار في السماء، لم أرَ هذا العدد الهائل من النجوم من قبل، كانت بالملايين.

وكان الجو والبحر هادئين والسفينة هادئة والليل هادئ، ولا يصل إلينا أيُّ صوت باستثناء الأصوات الإيقاعية للمجاديف التي تتصارع مع الأمواج.

قال ماثيو محاولًا أن يفتح حديثًا: "القبطان رجلٌ مثيرٌ للغاية".

أومأتُ برأسي وقلت: "لقد انسجمَ جيدًا مع علياء أيضًا".

قال ماثيو: "إنَّها فرصة جيدة أن يكون الطبيب موسى على معرفةٍ بالريس، فهو صديقٌ غني".

قلت: "لطالما كانت هناك مثل هذه الروابط في التاريخ"، توقفتُ قليلًا ثم أضفت: "الطبيب موسى رجلٌ طيب".

فكرتُ في كتب الأطفال العربية التي أصرَّ على وضعها في حقيبتي الصغيرة. وفكرتُ أيضًا أن السفر لمسافة الطويلة على متن هذه السفينة قد كلفَّ مبلغًا ضخمًا في العصور الوسطى؛ ربَّما دفعت علياء الأجر بالذهب الذي أرسله والدها، أو أنَّ الطبيب موسى كان لديه علاقةٌ طيبة وقوية مع الريس. على أيِّ حال، لم نفعل نحن شيئًا، ولم نكن وحيدَين، حتى الإسكندرية على الأقل.

قال ماثيو خافضًا صوته: "ما مقدار ما تعرفه علياء برأيك؟".

كان هذا السؤال يجول في خاطري منذ يوم أمس؛ ماذا أخبر الطبيب موسى ابنته عنا؟ ربَّما لم يتحدث على الإطلاق لأن رحلتنا كانت عاجلة للغاية، ربَّما قال إنَّنا مجرد ركاب، ربَّما كانت علياء تعرف سرَّ يوسف والإسطرلاب أيضًا، ربَّما كانت في كل مرة قدم ماثيو نفسه على أنه تاركان، تضحك علينا بداخلها، وربَّما تنتظر أن نثِق بها، ففي النهاية ستأتي معنا إلى الإسكندرية حيث ستسمع أسئلتنا هناك.

صرخ أحد البحَّارة فجأةً ممزّقًا هدوء الليل: "افتحوا الأشرعة!".

قرروا فتح الأشرعة التي جمعوها في المساء، ربَّما لأن اتجاه الريح كان قادمًا في الاتجاه الذي يريدونه. وفجأةً أصبحت هناك حركة على السطح، وتوقفت السفينة مؤقتًا بينما كان العشرات من الرجال المتعلقين بالحبال يرفعون الشراع المكون من قطعتين، ثم تابعَت السفينة الإبحار بسرعتها الجديدة.

شعرتُ بالنعاس وبدأتُ أتثاءب، فأخذني ماثيو إلى مقصورتي دون أن يقول أيَّ شيء، وغادر حين تأكد من أنَّني دخلت.

بعد أن كسب الأرق الذي أصابني الليلة السابقة المعركة، نمتُ نومًا عميقًا لدرجة أنَّ طعام الفطور فاتني في الصباح، إذ لم ترغب علياء بإزعاجي عندما رأتني فاقدةً الوعي، لكنَّها أحضرت بعض العنب والجبن والخبز حين عادت إلى الغرفة.

قالت علياء: "كانت هناك أنواع مختلفة من الزيتون على الفطور".

بينما كنتُ أتناول فطوري، بدأت علياء تروي لي بحماس ما رواه الريس حول الأهرام قائلة: "حدَّثنا الريس حسن عن الأهرام هذا الصباح، فقال: اعتقدتُ أنَّ قمة الهرم ستلامس السماء... عندما تتكون سحب من الغبار في القاهرة تظهر أشباح المومياوات".

وبينما كانت تواصل الحديث مطولًا، شعرتُ أنَّني جالسة معهم أتناول الفطور، فمن الواضح أنها لم تنسَ تسجيل أي تفصيل في ذاكرتها.

تخطّى الجميع الغداء، وكان ماثيو وعلياء مع الريس حسن، حيث كنتُ قادرةً على تصورهم أمام عيني؛ كان الاثنان ينظران بحماس إلى الكتب أو يستمعان إلى ذكريات الريس. وبالمقابل وجدتُّ لنفسي عند

حافة القوس ركنًا مرئيًا وخاليًا من الناس تقريبًا، فجلستُ ووضعتُ قدميَّ العاريتين في البحر على حافة السور الخشبي. كان هذا الركن بعيدًا عن كل من البحَّارة الذين يصدرون طنينًا على ظهر السفينة، والمجذفين الذين تُسمَع أصواتهم في الأسفل، وأسئلة الريس الغريبة. وعندما تأكدت من عدم وجود أي شخص هناك، خلعتُ غطائي وتركت نفسي للريح المالحة. وقد أحببت هذا المكان كثيرًا لدرجة أنَّني أمضيت اليومين التاليين على هذا النحو، حيث كنتُ أقرأ الكتب التي أعطاني إياها الطبيب موسى من وقتٍ لآخر. كما أنني كنت حين أشعر بالضيق من الحرارة الخانقة في المقصورة آتي إلى هنا لأجد نفسي في مهب الريح مرةً أخرى.

في المحادثات التي كنا نجريها كلَّ مساء على العشاء، كنَّا نجد الكثير مما يضحكنا بسبب شخصية الريس الملونة وما يقوله، وكنا نتحدث عن العديد من الموضوعات من السياسة إلى العلوم. كم رغبتُ بأن أخبرهم عن اكتشاف أمريكا والحروب والأمراض والاكتشافات في القرون التالية، لكنني كنت أصمت في كل مرة. لذلك وفي نهاية اليوم الثالث، كانت هذه اللقاءات مجرد مصدرٍ للترفيه بالنسبة إليّ، ولم يكن الأمر مثيرًا للاهتمام بنظري كما كان بالنسبة إلى ماثيو وعلياء.

في صباح اليوم الرابع، بدأت اليابسة تظهر بشكلٍ خفيف، الآن سأكون قادرة على رؤية أشخاص آخرين وأماكن أخرى ولمس الأرض بقدميَّ. أردتُ بشكلٍ خاص أن أذهب إلى الحمام، فعلى الرغم من أن الريس بذل قصارى جهده إلَّا أنَّ الموارد المائية على متن السفينة كانت محدودة.

قال ماثيو وهو يقف بجانبي يراقب وصول السفينة للميناء: "لقد وصلنا إلى طبرق".

كانت شواطئ البحر الأبيض المتوسط متلألئة ببريق الفيروز تحت شمس الظهيرة، وكانت المياه صافية لدرجة أنَّني تمكنت حتى من رؤية المنحدرات أسفلنا بعدة أمتار، فرغبتُ جدًّا بالسباحة في هذه الطقس الحار.

سألتُ هامسة: "ماذا كان اعتقادهم بشأن سباحة النساء في العصور الوسطى؟". لكنني كنت أعلم أن هذا لا يمكن أن يحدث، على الأقل وسط هذا الازدحام... لم نتمكن من التجوال بمفردنا في هذه المدينة غير المألوفة والتي قد تكون مليئة بالمخاطر، وكان الريس حسن قد أخبرَنا بالفعل أنَّنا سوف نتحرك مع حلول المساء، فشعرتُ بالأسى لأنَّنا لن نقضي الليلة في الميناء.

كان البحَّارة الغارقون في عرقهم، يُنزِلون الشراع، ويحاولون ربط الحبال بالشاطئ. استغرق الأمر نصف ساعة لبدء تفريغ الحمولة بالكامل من قبل أولئك الموجودين في الميناء، وفي غضون ذلك، علمتُ أنَّ هذه المدينة الساحلية الساحرة القريبة جدًّا من تونس هي وجهةٌ متكررةٌ للأندلسيين، وكانت على وجه الخصوص نقطة مهمة بالنسبة لتجارة المرجان. قمنا بتفريغ البضائع واستلمنا بضائع غيرها، وعندما رأيتُ لون البحر شعرتُ بالفضول لمشاهدة الشعاب المرجانية.

قلت مرةً أخرى شاعرةً بالحنين: "البحر يبدو جميلًا".

في ذلك الوقت، خرجت علياء من الداخل، وبيدها حزمة ملفوفة بقطعة قماش قطنية، قالت: "سيأخذنا إلى الحمام"، مشيرةً إلى البحار

الصغير الذي كان مع الريس حسن. سُعدت بسماع ذلك، وكنت آمل أن يكون الماء في الحمام باردًا في هذا الطقس الحار، لكنَّني سأقبل أيَّ نوعٍ من الماء العذب في هذه الأثناء.

ذهبَ ماثيو لاحقًا مع القبطان، وعندما دخلنا أنا وعلياء في ازدحامٍ مشابهٍ جدًّا لازدحام السوق بجوار المدرسة في غرناطة، أمسكتُ بيدها حتى لا تتيه إحدانا عن الأخرى، بينما كان البحَّار الصغير الذي يرافقنا يسير أمامنا وسيفه يتدلى من الأقمشة حول خصره. ربما لم يكن هذا المكان آمنًا كما كنا نظن، ومع ذلك فقد استمتعت برؤية كل أنواع الناس، والطرق المختلفة في ارتداء الملابس والتحدث.

كان الحمام رائعًا، غسلنا أنا وعلياء أنفسنا بالصابون ثلاث مرات، وبعد أن انتهينا، ارتدينا ملابسنا الجديدة؛ كانت هذه الملابس أكثر تواضعًا، وقطنيةً أكثر من الملابس التي أعطتني إياها صفيّة. قمنا أيضًا بغسل ملابسنا القديمة وعلقناها على السفينة كي تجف. ثم تجولنا في السوق؛ ننظر إلى الأقمشة، والأصداف البحرية الضخمة، والمرايا المصنوعة من العاج وصدف اللؤلؤ، والأمشاط والصناديق التي كانت النساء تحاول بيعها لنا.

كان الوقت متأخرًا بعد الظهر عندما عدنا إلى السفينة، وكان الرجال لا يزالون يعملون حتى ذلك الوقت.

لم نرَ الريس حسن لأنه كان مع زواره التجار الذين يتعامل معهم مجتمعينَ في السفينة، بينما ذهب ماثيو إلى الحمام مع الفتى الذي رافقنا، فقد أدركَ أنَّ عمل الريس لن ينتهي أبدًا... كان الميناء مشغولًا للغاية.

بعد الاسترخاء في المقصورة طوال فترة ما بعد الظهر، دُعينا إلى مقصورة الريس لتناول العشاء، أخبر ماثيو، الذي كان ينتظر عند الباب ويبدو نظيفًا جدًّا بعد الحمام، علياء أننا سنأتي قريبًا، ولكن كانت عيناه قلقتَين.

سألتُ بصوت خافت: "ماذا حدث؟".

أجاب ماثيو: "لا أعلم. كنت أفكر في هذا طوال اليوم، وأتساءل إذا نزلنا وهربنا، هل يمكننا الوصول إلى هناك عن طريق البر؟ هل سيكون هذا خطِرًا؟".

بعد أن نظرتُ إلى وجهه محاولة فهم ما إذا كان يقول هذه الأشياء بالفعل، وإدراكي أنَّه جاد، قلت: "لا تكن سخيفًا، سيستغرق الأمر شهورًا، ألم تسمع عن القبائل البربرية التي تحدثَ عنها طول الطريق؟ ماذا تعتقد أنهم سيفعلون بنا؟"، ثم نظرتُ إلينا نحن الاثنين وأضفت: "لا يمكننا حماية أنفسنا".

بعد أن صمتَ قليلًا، أومأ برأسه ولمس ذراعي برفق ثم قال هامسًا: "إنهم يتحدثون عن بعض الأشياء، لذا كنتُ قلقًا علينا".

ظهرت بعض التعابير التي لم أستطع فهمها واختفت في عينيه الكبيرتين.

وعندما سألتُه: "ماذا حدث؟" بدت على وجهه الجديَّة، وهمس قائلًا: "قراصنة".

الفصل الثالث عشر

صيف 1368م

كان عشاؤنا مختلفًا اليوم لأننا ما زلنا في الميناء، فامتلأت مائدتنا بالأسماك والأرز الساخن والعجين المقلي والعسل والحليب والحلاوة الطحينية، والتمور المختلفة، والزيتون والأجبان، واللحوم المقلية والمدخَّنة.. كانت وليمةً كبيرة.

قال الريس حسن بفخر: "تفضّلوا"، ثم لمعت عيناه وهو يُشير إلى الطاولة، وأضاف: "هدايا مُضِيفينا، لقد استلموا الكتب التي جلبناها بفرحٍ كبير".

آه لو كان الكتاب موضع تقدير وترحيب في عالمنا الحديث كما كان في العصور الوسطى، حيث كان يُعتبر كنزًا لندرته وللجهد الذي يُبذلُ في كتابته.

لقد مضى وقت طويل منذ أن أكلت طعامًا ساخنًا، ولهذا السبب شعرتُ بالسعادة عند رؤية الحساء الساخن مع الحمص وقطع اللحم، كان أيضًا مفيدًا جدًّا لمعدتي، على الرغم من أنني كنت قد اعتدتُ على البحر الآن.

بعد تناول الطعام أصبح الريس حسن جادًا قليلًا وانحنى إلى الوراء، ثم قال: "أمامنا يوم ونصف حتى نصل طرابلس، لقد قطعنا

الطريق الخطير، ولكنَّ القراصنة غزوا شواطئ طرابلس الآن، لذا من الجيد أن نكون على أهبة الاستعداد".

هذا ما كنتُ أخشاه!

تابعَ قائلًا وهو يداعبُ شاربه بعناية: "أعطانا السلطان قاربًا لمرافقتنا، وقد كلفني ذلك الكثير من المال، لكنه أفضل من القراصنة".

ثم تحول وجهه الجاد فجأةً إلى وجهٍ مرح، وبدأ يضحكُ وهو يسرد ذكرياته عن القراصنة، وكأنّ حياته لم تتعرض للخطر، بل على العكس كان الأمر ممتعًا كثيرًا بالنسبة إليه. لم أستطع التوقف عن الضحك على ما يقوله، وكنتُ أفكِّر أنَّه لو عاش في عصرنا لكان كوميديًا حقيقيًا.

عمَّ السفينة صمت شديد بعد أن غادرت الميناء مثيرة الضوضاء بأصوات القبطان والطاقم، وكان القارب المرافق لنا قريبًا بما يكفي لرؤية البحَّارة الجنود الموجودين على سطحه والذين يتابعوننا بصمت. غطست مجاديف كلتا السفينتين في البحر بتناغم بعضها مع بعض، وكانت المياه تتألق مثل اللآلئ تحت ضوء القمر في البحر المضاء بالنجوم.

قال ماثيو الذي كان يراقب السفينة الأخرى معي: "لقد كنتِ هادئةً جدًّا مؤخرًا".

فأجبت: "أنا فقط خائفة، فهذا العالم لم يعد يثيرني بقدر ما يثيرك أنت".

نظر بعمق إلى عينيَّ لدرجة أنني وقفتُ كما لو كنتُ مُنوَّمة مغناطيسيًا، ثم قال: "ربَّما يثيرك ولكنَّ خوفك يغلب عليك! ألقي نظرة حولك، واستمتعي بالعالم الذي نعيش فيه، لأننا سنعود بطريقةٍ ما".

حدّقتُ إليه وسألتُه: "هل تؤمن بذلك حقًّا؟".

ابتسم وأجاب: "بالطبع أؤمن به! لقد آمنا أيضًا بمجيئنا، وها نحن هنا... سوف نجد طريقًا".

كالعادة، تمكَّن من تهدئتي، وجعلني شيء ما في نبرة صوته أو في عينيه أفكر بذلك، لم أكن أعلم ما هو، لكنَّه جعلني أؤمن بذلك أيضًا.

قلت: "قراصنة"، وأنا أنظر خائفةً إلى القارب الذي كان يرافقنا لحمايتنا، فالاحتمالات التي خطرت ببالي بعد القصص التي سمعتها وقرأتها تقشعرُّ لها الأبدان.

قال ماثيو: "أنا متأكد من أنهم سيحموننا، هل تعرفين السيدة الحرة؟".

لم أسمع يومًا بها، فهززتُ رأسي مبينةً عدم معرفتي بها.

أوضح قائلًا: "إنها قرصانة مسلمة".

فتحتُ فمي على آخره، في حين كان مسرورًا بأنه تمكن من مفاجأتي، فابتسم وقال: "كيف لا تعرفينها؟".

قلت: "لا أعرف، لم أسمع بها من قبل، هل يمكنك أن تخبرني قصتها؟".

خفض صوته وقال: "لا أحد هنا يعرفها بعد، فعلى ما أذكر، وُلِدَت في غرناطة في ثمانينيات القرن التاسع عشر، ومع احتلال الكاثوليك غرناطة عام 1492م، هربت مع أسرتها إلى مدينة شفشاون المغربية".

قلتُ بحماس: "أعتقد أن قصة انتقام ستظهر من هذا".

أجاب ماثيو: "تمامًا! تزَوجَت أولًا من حاكم تطوان محمد المنداري، ونجحا بتقوية المدينة لفترةٍ طويلة وبناء الأسوار، وجعلا المدينة موطنًا للأندلسيين الفارين بإذنٍ من السلطان، وفي الوقت نفسه

أعدّا المدينة لمواجهة الإسبان والبرتغاليين، وعندما مات زوجها بعد سنوات تولت هي زمام الأمور".

توقفَ قليلًا ثم ضبط نبرة صوته ليجعلها أكثر تأثيرًا وتابع: "يسمونها الحرة، وتعني الملكة، المرأة الحرة التي لا تنحني لأحد، وكانت آخر حاكمة تستخدم هذا اللقب في التاريخ الإسلامي".

كنتُ مندهشة!

تابع قائلًا: "من خلال العمل مع بربروس خير الدين باشا في البحر الأبيض المتوسط لفترةٍ من الزمن، ساعدوا الأندلسيين على الهروب من الاضطهاد الكاثوليكي، وفي غضون ذلك قامت ببناء أسطولها البحري الخاص، وبدأت بالقرصنة، وأصبحت تتفاوض بشأن صفقات الفدية مع البرتغاليين والإسبان الذين كانت لهم الحاكمية في البحر في تلك السنوات، وهكذا أصبحت المدينة ثريةً بفضل هذه الإيرادات... ملكة قرصانة حقيقية".

كنت أنتظر بفارغ الصبر، فألقيت نظرة شجعته على الاستمرار.

تابع من جديد: "ثم تزوجت من ملك المغرب، لكنها رفضت مغادرة تطوان، وكانت تلك أول مرة في التاريخ لا يتزوج الملك المغربي في المغرب بل يأتي إلى تطوان، إذا لم أكن مخطئًا، لقد حكمت لمدة ثلاثين عامًا حتى تم خلعها من قبل ابن زوجها".

كانت قصة حياةٍ طويلةٍ مليئة بالنجاح والشجاعة، وربَّما كان وجودنا في هذه اللحظة على سطح السفينة وتحت تهديد القراصنة، هو السبب وراء امتلاء عينيَّ بالدموع أثناء الاستماع إلى هذه القصة.

همستُ قائلة: "لم أسمع بها من قبل"، وانتهى حديثنا عندما نظرتُ بعيدًا.

في ذلك المساء، بينما كنتُ أحاول النوم، ظللتُ أفكر في السيدة الحُرَّة، هل كانت تخاف كلما أبحرَت فوق الأمواج؟ وكلما قامت بهجوم؟ هل كانت دائمًا شجاعة؟

لقد علمتُ أيضًا من التفاصيل، التي قدمها ماثيو مُجيبًا عن أسئلتي، أنها كانت تتحدث الإسبانية والبرتغالية، وتتواصل مع القراصنة الذين اشتهروا في البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت، بما في ذلك بربروس، وكان لديها بالفعل قوة عسكرية كبيرة مع قواتها البحرية. لقد بَنَت مدينة من الصفر، وجعلت شعبها ثريًا، وكان لها الكلمة العليا في البحر الأبيض المتوسط، خلال أوائل القرن الخامس عشر الميلادي وهو العصر الذهبي للقراصنة. ومع ذلك لا أحد يعرف اسمها! حلمتُ بها طوال الليل وأبحرتُ معها على متن سفينتها.

أمضيتُ اليوم التالي في المشي لمسافات طويلة على ظهر السفينة والدردشة مع بعض البحَّارة، أردتُ أن أقابل أشخاصًا جددًا، وأن أجعلهم يشعرون بالسعادة ولو لقليل من الوقت في حياتهم الصعبة من خلال إعطائهم بعض المأكولات أو الدردشة قليلًا وبعض المزاح. وقد شتَّتَ الاستماع إلى قصصهم انتباهي وخفَّف من ترقبي المتوتّر لهجوم قراصنة مُحتمل.

استمع الجميع باهتمام عندما سردتُ بعضًا من هذه القصص على العشاء بما تعلمته من اللغة العربية، حتى أنَّ الريس حسن قال: "عليَّ أن أستمع لرجالي أكثر".

نمتُ قليلًا في تلك الليلة، وعند شروق الشمس كنا نقترب من مدينة طرابلس الواقعة الآن في ليبيا... لم يكن المرفأ هنا محصّنًا بل مفتوحًا، لذا بدأت السفينة تصارع الأمواج، وتهتز أكثر من الأماكن الأخرى، فاستيقظتُ في سريري نتيجة شعوري بالغثيان واستمر ذلك حتى وصلنا.

ومع ذلك، لم أفقد حماسي وخرجتُ لرؤية مدينة طرابلس، فهي مدينة مأهولة منذ القِدم، أسسها الفينيقيون قبل الميلاد، وحكمها الرومان لسنوات عديدة، وتحكمها السلالات الإسلامية منذ القرن السابع.

كانت البيوت البيضاء المبنية من الحجر تغطي المدينة بالكامل، فأدركتُ الآن لماذا أُطلقَ عليها اسم "المدينة البيضاء"؛ لا أعتقد أنَّ أيَّ مكان في العالم يستحق هذا الاسم أكثر منها.. وكان ميناؤها أكثر ازدحامًا من ميناء طبرق، كما لاحظتُ أثناء ذهابي إلى الحمَّام أن عدد سكانها كان أكبر أيضًا، وقد أخبروني أنَّ هناك الكثير من المهاجرين في المدينة، لكنَّ الناس يعيشون في وئام، والسكان مضيافون للغاية.

ألقى البحَّار الصغير الذي رافقنا في الطريق التحية على العديد من الناس، معظمهم من أصحاب المتاجر في السوق. وفي طريق العودة، لم يسعنا إلا إلقاء نظرة على المنتجات الموجودة في السوق، وكان بإمكاننا التجول أكثر لو لم يكن الطقس حارًا جدًّا، لكنّنا أردنا العودة إلى السفينة قبل أن نذوب تحت شمس الظهيرة.

أقمنا هنا مدةً أقصر، وأبحرنا بعد الغداء مباشرة، وقد علمتُ هذه المرة أن رحلتنا ستستغرق أربعة أيام ونصف، أما النبأ السار فهو أن خطر القرصنة ولّى نهائيًا، لذا لم يعد القارب الذي رافقنا موجودًا،

وكانت سفينة بركات تتقدم بمفردها من جديد.

على العشاء، أضحكتنا أحاديث الريس حسن مرةً أخرى، ربَّما كان في مزاج جيد لأنه كان يكسب أموالًا كثيرة.

بعد عشاءٍ لذيذٍ من السمك قدم لنا المشمش والكمثرى، وتذكرتُ حينها أنَّني لم أرَ تلك الفواكه كثيرًا في الأندلس، فهي نادرةٌ نظرًا لارتفاع ثمنها، لكنّها تُزرع كثيرًا في طرابلس. كانت عيون الريس حسن تلمع بسعادة وهو يقول إنه سيشتري بعض الصناديق لاصطحابها إلى الأندلس في طريق العودة، وازدادت السعادة في عينيه أكثر عندما أعطى علياء محفظة حريرية حمراء أخرجها من جيبه، ثم نظر إليَّ وكأنه تذكّر لتوّه وجودي هناك، فأخرج على عجل محفظةً برتقالية مصنوعة من الحرير وأعطاني إيَّاها قائلًا: "إنَّها لكِ".

كان يوجد داخل المحفظتين إبر فضية عليها أشكال زهور، فقالت علياء: "زينة للملابس".

أومأ الريس حسن برأسه وقال بسعادة: "نعم، إن حرفيي طرابلس مشهورون".

أعجبتُ بالحِرفية، ولكن علياء لم تظهر على محياها تعابير الرضا. شكرتُه بأدب، فمدَّ يده إلى شرابه وكأنَّ شيئًا لم يحدث، وفجأةً نهض من مكانه بسرعة، وبعد بضع ثوان قال: "دعوني أريكم الخنجر الذي اشتريته لنفسي".

ثم أخرج خنجرًا من حزامه وأعطاه لعلياء، فانتبهتُ أن غمده عمل فني حقيقي؛ كان مرصعًا بعِرق اللؤلؤ الرائع، وكان المقبض مزينًا

بأحجار شبه كريمة، وكان الفولاذ لامعًا.

قال الريس مخاطبًا علياء: "لكنه يناسب سيدةً جميلةً مثلك أكثر"، وأضاف وقد بدا عليه بعض الحرج: "آمل ألا تحتاجينه أبدًا".

أصبح خدّا علياء ورديّين... كانت هذه هدية يمكن أن تقبلها بكل سرور؛ إذ أثار احتمال وجود قراصنة حماستها بدلًا من إخافتها، فكانت تراقب البحر طوال الليل مع المراقبين، لذا فإن هذا الخنجر ملائم لطبيعتها المحبة للإثارة والمغامرة.

وبينما كانت تنظر إلى الخنجر بإعجاب وتتمتم بكلمة شكرٍ مع ابتسامة، كنا أنا وماثيو نراقب وكأنّنا نشاهد فيلمًا... أصبح مساؤنا جميلًا.

نمنا جيدًا في تلك الليلة، ربَّما لأننا كنا جميعًا مبتهجين. وقضيتُ اليومين التاليين أتجوّل على ظهر السفينة، وأتحدث معهم خلال وجبات الطعام، أو أقرأ كتابًا، أو أتحدّث مع البحَّارة الآخرين.

وفي اليوم الثالث كنت أستمتع بالرياح المالحة والشمس، وقدماي العاريتان تتدليان باتجاه البحر في زاويتي الصغيرة عند القسم الأمامي من السفينة، حين جاء ماثيو قائلًا: "أنتِ هنا إذًا، بحثتُ عنكِ في كل مكان".

اعتقدتُ أن الحبال الضخمة كانت تخفيني عن الأنظار، لكن بعد بضعة أيام على السفينة، حفظَ كل ركنٍ من أركانها بالطبع.

ضحكَ عندما رأى قدميَّ تتدلّيان وشعري يتطاير بفعل الريح، وقال: "الآن أفهم لماذا تستمرين في الاختفاء، فالرياح تهب بشكل جيد هنا، كنتُ أتساءل في المساء أين تعرضتِ لحروق الشمس بهذه الشدة خلال النهار!".

كنتُ قد رأيتُ في مرآة علياء وجهي الذي أصبح أحمر اللون؛ والواقع أن أنفي ووجنتيَّ على وجه الخصوص كانت محترقة بسبب أشعة الشمس وبتأثير الملح أيضًا، لكنني لم أستطع منع نفسي من الخروج إلى السطح، فالجو كان حارًا جدًّا في المقصورة، بينما أشعر هنا على الأقل ببعض البرودة. كنتُ أحاول حماية نفسي باستخدام الأقمشة القطنية والبقاء في الظل قدر الإمكان، لكنَّ الشمس كانت شديدة الحرارة هذا الموسم.

لم تتأثر علياء ولا الريس حسن ولا حتى ماثيو بالشمس مثلي، فعلى الرغم من أنَّهم ينتمون إلى أجيال مختلفة، إلَّا أنَّهم أبناء هذه المنطقة، ولذلك فإنَّ بشرتهم أغمق ورموشهم أطول وأجسادهم معتادة على حرارة الشمس.

قلتُ بقلق: "ذُكِرَت بعض النباتات الواقية من أشعة الشمس في أحد الكتب التي أعطاني إياها الطبيب موسى، لا أتذكر سوى القليل منها، لذا سوف أسأل علياء، فربما حان الوقت كي أدهن وجهي بشيءٍ ما".

كنت منزعجة بما فيه الكفاية لعدم وجود واقٍ من الشمس في هذا العصر!

فاجأني صوت ماثيو: "مانوليا، أنتِ لا تستمعين إليّ، سألتكِ كيف كانت المدرسة؟ لم نتحدث قط عما رأيناه".

أخبرته كل ما رأيته من المدرسة والكتب وفنون الكتاب والخرائط باختصار، وربما أكون قد بالغت قليلًا في الوصف، وعندما انتهينا قلت: "رأيتُ قصر الحمراء بحاله هذا، وكان أجمل بكثير مما كنت أتخيل".

أوه، لقد رأيتُ تلك الغرف الفارغة مليئةً بالأثاث والسجاد والستائر والأشياء الثمينة والكتب الجديدة والرائعة...

تابعتُ قائلة: "أتمنى لو أنني رأيتُ السلطان وعائلته"، فضغط شفتيه معًا، وهو بالكاد يستطيع إخفاء تعابيره، توقفتُ وقلت بنظرات متسائلة: "لا؟ حقًا؟".

انفجرت أخيرًا ضحكته التي كان يحاول كبتها، وقال: "نعم، رأيتُ السلطان".

صرختُ قائلة: "لا أصدق ذلك!"، ولكمت كتفه: "ولا تخبرني بذلك إلى الآن؟".

بعد أن هدأ ضحكنا، أخذ يشرح لي: "رأيتهُ ذات مرة عندما جاء لتفقد الجنود، طويل جدًّا، مهيب، لحيته حمراء طويلة وعيناه مثل عينيّ النسر. يبدو مخيفًا، لكنني سمعت أنه رحيمٌ جدًّا".

سألته: "ماذا كان يرتدي؟".

جعله السؤال يفكر لفترة من الوقت، ثم قال: "في الواقع، كان هناك شخصان رأيناهما عندما أتينا لأول مرة إلى قصر الحمراء، هل تتذكرينهما؟".

تذكرتُ مسؤولي القصر، ربما من ذوي الرتب العالية، الذين رأيناهم قبل أن يقبض علينا عبد الله ورجاله.

أضاف ماثيو: "كان يرتدي مثل لباسهم، ولكن بسيفٍ كبيرٍ جدًّا يصل الى الأرض، وعلى رأسه عمامة عليها أحجار كريمة ضخمة تلمع مثل الشمس".

كان من الواضح أنه معجب جدًّا، وبينما كان يتحدث، عشتُ تلك اللحظة معه، ثم قلتُ عندما انتهى: "أنت محظوظ جدًّا".

نظرَ إلى البحر الممتد تحت أقدامنا بأمتار وقال: "ليس بقدرك... لم تذكري أبدًا صفيّة التي كنتِ تقيمين معها".

شعرتُ بالحزن عندما ذكر اسمها، وقلت: "آه صفيّة، اشتقتُ إليها كثيرًا، آمل أن يكون الطبيب موسى قد أوضح سبب اختفائي المفاجئ".

ثم أخبرته عن أيامي مع صفيّة وعائلتها وما عرفته عن أعيان القصر وحديقتها ونباتاتها.

وتابعت: "لا أعرف أي شخص يمكنه أن يعتني بيوسف أفضل منها، لكنني أتمنى لو استطعتُ توديعه هو وصفيّة".

قال مبتسمًا: "أود أن أودِّعه أيضًا، فقد وصلنا إلى هنا بسببه".

وافقتُ قائلةً: "لقد ابتكروا الكثير من الاختراعات وحققوا طموحاتهم فقط لحمايته... أنا أُقدّر ذلك على الرغم من أنَّه لا يزال لديَّ الكثير من الأسئلة في ذهني"، وبعد التفكير لفترة، تذكرت أخيرًا وصرختُ بحماس: "وجدته! قصة يوسف تذكرني بشخصٍ ما، ولكن من؟ ظللتُ أفكِّر طويلًا يا ماثيو، ووجدته أخيرًا".

كنت سأفاجئه الآن بقصة، وأنا متأكدة من أنه لا يعرفها. سألته: "هل تعرف كيف نجا السلطان محمود الثاني؟".

صُدِمَ بتحولي المفاجئ نحو التاريخ العثماني، فقلت لأعطيه تلميحًا: "إنه من عام 1808م..."، هزّ رأسه وهو يشعر بالارتباك وبالفضول أيضًا، كان من السخف بالطبع الحديث عن عام 1808م في عام 1348م، لكنَّه فاجأني سابقًا بقصة السيدة الحرّة، والآن حان وقت الانتقام.

تابعتُ قائلةً: "داهم الإنكشاريون القصر وقتلوا سليم الثالث، ثم دخلوا الحرملك، وهدفهم هو قتل محمود شاه زاده، الذي سيتولى العرش لاحقًا".

سألني ماثيو: "وهل دخلوا الحرملك؟".

كان دائمًا يسأل الأسئلة الصحيحة، فقلت: "سؤال جميل"، ثم تابعتُ وأنا ألمح استدارة عينيه: "حين دخلوا الحرملك جاءت حارسة شركسية وأنقذت محمود شاه زاده". توقفت لفترة طويلة لأجعله يشعر بالحماس كما فعل هو معي، وقد غمرتني السعادة لنفاد صبره، ثم أضفت: "أخذَت الحارسة الشركسية الأمير إلى السطح، ورمت الرماد على وجوه الرجال الذين يتبعونه فمنعتهم من الرؤية".

سألَ بحماس: "هل تنجو هي مع الأمير؟".

أجبت: "نعم، في ذلك الوقت يأتي مصطفى علمدار باشا مع رجاله وينقذهم، ولهذا السبب جعل السلطان محمود الشركسية أمينة صندوق الحرملك".

حققتُ هدفي عندما أدركتُ من تعابير وجهه أنه متفاجئ بقدر دهشتي من القصة التي أخبرني بها.

قال معقِّبًا: "أعتقد أن العثمانيين يدينون باستمرارهم لهذه الحارسة الشركسية، أتساءل كم من الناس يعرفون هذه القصة؟".

لن أنسى مظهر عينيه ونظرته في تلك اللحظة، نظرتُ إلى عينيه الداكنتين الكبيرتين بابتسامة ساخرة.

"التاريخ يعامل النساء بقسوة".

الفصل الرابع عشر

صيف 1368م

الإسكندرية كطائر العنقاء.

بتاريخها الممتد لآلاف السنين، كانت هذه المدينة القديمة خرابًا يتم إصلاحه حاليًا، إذ جئنا في الفترة الأكثر رعبًا لرؤية هذه المدينة، وبحسب ما رواه الريس حسن وعلياء، فقد تعرضت المدينة في العشرين سنة الماضية للعديد من المصاعب، كما أنَّ معاناتها تمتد لأكثر من ذلك؛ حدث زلزالٌ كبيرٌ في عام 1325م، ودُمِّرت منارة الإسكندرية، التي لا تزال تُعتبر واحدة من عجائب الدنيا السبع حتى في عصرنا، لم أصدِّق أنني أضعتُ رؤية أعجوبة الدنيا هذه بفارق ثلاث سنوات. بقدر ما أتذكَّر، يتم بعد بضع سنوات بناء قلعة قايتباي على أنقاض المنارة، وتختفي جميع آثار المنارة تمامًا، لذلك ألقيتُ نظرةً مطوَّلة على أنقاضها؛ المنارة التي من المفترض أن ترتفع نحو السماء من على بعد أمتار قليلة فوق أساساتها المربعة مهيمنةً على البحر الأبيض المتوسط انهارت تمامًا. كانت قد بُنيت في جزيرة فاروس على الجانب الآخر من المدينة التي أسسها الإسكندر الأكبر، في القرن الثالث قبل الميلاد، واستمرَّ وجودها لنحو ألف وستمائة عام، ودُمِّرت بالكامل منذ ثلاث

سنوات، حتى خرابها كان مهيبًا بما يكفي لرؤيته أثناء دخول الميناء الغربي للمدينة.

لم ينته الأمر بهذه الحادثة فقط، فقد ابتُليت المدينة بوباء الطاعون، والذي بدأ تقريبًا في عام 1348م حسب تقويمنا وفقًا لحساباتي مع ماثيو، واجتاح المرض المدينة لمدة خمسة عشر عامًا.

وكأنَّ ذلك لم يكن كافيًا، فبعد عامين من الطاعون، أي قبل وصولنا بثلاث سنوات، تعرضت المدينة للنهب من قبل الصليبيين... حتى أن رجلًا مثل الريس حسن ارتجف صوته وامتلأت عيناه بالدموع، أثناء حديثه عن هذه الحادثة.

قال الريس بمرارة: "لم يستطع أحد فعل أيَّ شيء، لم نتمكن من الوصول في الوقتِ المناسب. أخذ بطرس ملك قبرص، أسطولًا كاملًا من البندقية إلى الإسكندرية بشرط عدم نهبها".

كانت التجارة بين الإسكندرية والبندقية كثيفة للغاية، لذلك لم يرغبوا بأن يلحق الصليبيون أي ضرر بالمدينة، لكن لاحقًا، لم يفِ بطرس بوعده، وخدع قادة البندقية وترك الإسكندرية عُرضةً لنهب الصليبيين وتدميرهم لمدة أسبوع كامل.

ومثل كلِّ مدينة في العصور الوسطى، كان للإسكندرية سورٌ يحيط بها، فقاومت الأسوار الهجمات بشكل جيد، ولم تستسلم على الفور رغم أنها تضرّرت بشكل كبير أثناء عمليات النهب. شاهدنا بعض الإصلاحات طفيفة، ولكن لم يبق هنالك شيءٌ من أثرها القديم، كانت المدينة في حالة خراب، علاوةً على ذلك، كانوا يتوقعون هجومًا جديدًا في أيِّ لحظة.

سألتُ بفضول وأنا أعرف أن دولة المماليك هي التي تحكم مصر الآن: "ماذا عن السلطان؟".

أوضح الريس حسن أن السلطان كان صبيًا يُدعى زين الدين شعبان، وكان عمره حينها خمسة عشر عامًا. لم يستطع الريس احتواء غضبه عندما أخبرنا كيف أنَّ أسلاف المغول كان لهم الحاكمية بدلًا من السلطان، وأنَّ هذا المكان كان تحت قيادة الأمير الظَّالم يلبغا الذي فضَّلَ البقاء في العاصمة القاهرة أثناء الهجوم الصليبي، فاضطر أهل المدينة للقتال وحدهم ضد الجيش الصليبي.

ما سمعته ورأيته كان بعيدًا جدًّا عن مدينة الإسكندرية الرائعة التي تخيّلتها، ونتيجة الذهول الذي أصابني لم أستطع حتى أن أودِّع الريس حسن عند مغادرة السفينة، ولكننا شكرناه بالطبع على مساعدته وكرمه.

كان الريس سيبقى هنا الليلة ويغادر صباح الغد بعد لقاء التجار، وقد أبلغَنا بهذه المعلومات في حال غيرنا رأينا وأردنا العودة، إذ كان يعتقد أننا لن نستطيع البقاء في المدينة وهي بهذه الحال... فمن سوف يرغب بالبقاء هنا بعد رؤية غرناطة؟!... لكنني كنت مستعدة لفعل كل ما يتطلبه الأمر للعودة إلى منزلي، فأنا لا أريد أن أموت في غارةٍ صليبيةٍ أو هجوم قراصنة أو وباء طاعون.

عندما نزلنا من السفينة وعبرنا أسوار المدينة مع علياء، كنا قد لففنا أنفسنا بقطعِ قماش وغطَّينا وجوهنا، بما في ذلك ماثيو. وكان جميع من في المدينة في حالة تأهب، فلم يلقِ أحدٌ السلام على أحد، بل كان

الجميع يتبادلون النظرات بخوف... لقد أدَّت كل تلك الأحداث إلى تدمير الحالة النفسية للجميع.

على طول الطريق، رأينا أن بعض المتاجر والمنازل التي مررنا بها هي قيد الإنشاء، كانت هذه تطورات إيجابية. لكنَّ المتسولين أوقفونا عدة مرات في الطريق، ولم يذهبوا دون أن تترك علياء بعض المال في راحة كلٍّ منهم، كان هناك عددٌ لا يُستهان به من الناس النائمين في الشارع؛ من يدري ماذا حدث لمنازلهم، ومدَّخراتهم، وللأشخاص الذين يحبُّونهم... لقد تأثرتُ كثيرًا، فأنا لم أشهد في حياتي أبدًا الألم والخسارة والعودة المأمولة للناس ما بعد الحرب، تدفقت الدموع لاإراديًا من عينيَّ وبلَّلَت القماش القطني الواصل إلى أنفي، لكنَّ خوفي دفعني إلى السير خلف علياء بسرعة والدخول إلى مكان ما في أسرع وقتٍ ممكن، لذلك قررتُ أن أتعايش مع ما أراه بما أعرف، وليس بما أشعر به.

احتفظت شوارع الإسكندرية بمخططها الشبكي منذ العصر الروماني، حيث تمَّ تنظيم الشوارع على شكل مستطيلات متوازية بعضها مع بعض، لذلك من غير المحتمل أن يضيع فيها المرء.

مشينا كثيرًا حتى وجدت علياء المسجد الذي أخبرها والدها باسمه، وابتعدنا عن البحر كثيرًا. اشتقتُ الى حذائي الرياضي الذي تركته في منزل صفيّة، كانت هذه الصنادل لطيفة، لكنها لم تكن مريحة في المشي لمسافات طويلة.

توقفنا أمام مسجد حيٍ صغير، ولم يكن هناك الكثير من الناس حولنا.

سأل ماثيو: "هل أنتِ متأكدة من أنّنا جئنا إلى المكان الصحيح يا علياء؟".

لم يكن المكان كما توقّعنا، لسببٍ ما اعتقدنا أنَّ الطبيب موسى سيرسلنا إلى أكبر وأشهر مسجد في المدينة، وبحسب قوله فإنَّ مكتبات هذه المساجد ستكون ممتلئة بالكتب التي من الممكن أن تساعدنا.

أومأت علياء برأسها قائلة: "وصفُ والدي يتطابق مع هذا المكان الصغير".

كان المسجد مغلقًا والباب مقفلًا، فطرقنا الباب بقوة عدَّة مرات.

قلتُ بعد الانتظار بضع دقائق وعدم حصولنا على أي رد: "ألا يوجد أحد؟ هل حدث أيّ ضرر للأشخاص الذين يعرفهم والدك؟".

بينما كانت علياء تفكّر بهذا الاحتمال بحزن، فُتح الباب قليلًا، نظر إلينا شاب في نفس عمر ماثيو، لكن بشرته كانت أغمق، وعيناه غاضبتان.

سألَ بغضب: "من أنتم؟".

بعد إلقاء نظرةٍ على الشّارع والتأكُّد من عدم وجود أحد، اقتربت علياء من الباب وقالت هامسة: "أرسَلنا الطبيب موسى من قصر الحمراء".

بدا الرجل وكأنَّه لان قليلًا، لكنه من باب الحذر لم يفتح الباب بالكامل حتى الآن، بل سألَنا بنبرةٍ أكثرَ هدوءًا: "لماذا أتيتم؟".

أجابت علياء: "نبحث عن المعلم زيد".

اندهش الرجل للحظة وقال: "لا يوجد شخص بهذا الاسم هنا، لقد أتيتم إلى المكان الخطأ".

وعندما كان على وشك إغلاق الباب، أدخلت علياء يدها بسرعة، وقام ماثيو الواقف بجانبي بمساعدتها، ولكن لم تعد هناك حاجة لأن الرجل توقف بالفعل.

استغلَّت علياء هذه الفرصة وقالت: "المعرفة، المعرفة أكبر نعمة!".

لم يستطع أيٌّ منا فهم ذلك، ولكن من الواضح أنَّ الأمر كان يعني شيئًا لهذا الرجل الغريب، إذ تجمَّد في مكانه، وفتح الباب فجأةً على مصراعيه، مما يعني أنَّها كانت كلمة مرور، وبعد أن تأكَّد من عدم وجود أحد في الشارع، سحبنا من أذرعنا وأخذنا إلى الداخل، ثم أغلق الباب الضخم خلفنا بصوت عالٍ، أرعبنا مزاجه المتوتّر، تقدَّم ماثيو إلى أمامي قليلًا ودفعني نحو جدار الحديقة.

نظر الرجل بكثب إلى علياء كما لو لم نكن نحن هناك، وقال لها: "أين سمعتِ ذلك؟".

أنزلت علياء القماش عن وجهها برفق وقالت: "أنا ابنة الطبيب موسى، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

حتى في مثل هذا الوضع كانت نموذجًا حقيقيًا للشجاعة، تحملُ نُبل صفيَّة وحكمة والدها. كنتُ فخورةً بعلياء، وحريصةً عليها في نفس الوقت.

قال الرجل بخيبة أمل: "أين كنتم كلَّ هذا الوقت؟"، ثم التفتَ إلينا وسألَنا بدهشة: "من أنتما؟".

كان طويلًا ونحيلًا جدًّا في الوقت نفسه لدرجة أنَّه بدا مثل جذع شجرة؛ كانت عظام وجهه بارزةً، وخداه غائران، ربَّما بسبب ضعفه.

قال ماثيو وهو يشير إلينا: "لقد أتينا من الدولة العليا العثمانية، أنا تاركان وهذه أختي مانوليا".

حدقت عيناه بي لفترة من الوقت ثم قال: "يا له من اسم غريب"، لكنَّه لم يسأل المزيد من الأسئلة، بل قادنا إلى المسجد صغير.

سألَنا: "لم يتبعكم أحدٌ في الطريق، أليس كذلك؟".

أوضحت علياء أنَّه لم يتبعنا أحد، بينما كنا أنا وماثيو نتبادل النظرات بقلق من حركات الرجل الغريبة.

عندما دخلنا أغلق باب المسجد خلفنا، فاستغرق الأمر وقتًا حتى تعتاد عيناي على الظلام في الداخل، حيث تم إغلاق نوافذ المسجد المواجهة للطريق، ولكن سُمح لبعض ضوء الشمس بالتسرّب من خلالها.

جعلَنا الرجل ننتظر حتى وصل إلى شمعته المتوهجة الضعيفة نصف المحترقة في المنطقة الحجرية، وقبل أن نطأ السجادة انحنينا لخلع أحذيتنا لكنه منعنا، ثم تقدم أمامنا واستدار على الفور جهة اليمين.

مشينا على طول الجدار في صفٍ واحد، وكان هناك باب يشبه النافذة مغلقًا بالمسامير، ومُموَّهًا بشكلٍ جيد لذا لم يبرز عن الأبواب الأخرى، فتح الباب ليأخذنا إلى حديقةٍ صغيرة، صغيرة جدًّا بحيث لا يمكن أن تنمو أي نباتات في مساحة من الأرض تُركت للمرور بين مبنيين، بينما يقع الجانب الآخر من هذه الحديقة القاحلة بيت أبيض صغير، لا يمكن أن نقول أنه منزل، فهو يتكون من غرفةٍ واحدة، تم

فصلها إلى أقسام باستخدام ستائر قماش بهدف المحافظة على الخصوصية، وأمكننا فورًا ملاحظة أنَّ الممتلكات والمنزل على وشك الانهيار.

لاحظتُ على الفور الرجل العجوز الذي طوى سجادة الصلاة المطرزة وتركها في الزاوية، ثم مشى ببطء وجلس على الوسادة في الزاوية البعيدة.. كان كبيرَ السن بحق، لا بدّ أنَّه بلغ التسعين بالتأكيد، بدا مهيبًا جدًّا، وكان حضوره يملأ الغرفة. كان رأسه منحنيًا، وذقنه تلامس صدره، ولحيته تصل إلى بطنه، وقد وضع عمامته بشكلٍ مدروس فلم تسقط عندما رفع رأسه لرؤيتنا.

قال الرجل الذي أحضرنا "المعلم زيد"، مشيرًا إلى الرجل العجوز، وقدَّم نفسه قائلًا: "أنا تلميذ".

تساءل الرجل العجوز: "من جاء يا يونس؟"، خرج صوته واضحًا بالنسبة لعمره، لكنه كان غير قادر على رؤيتنا جيدًا رغم أنَّه كان ينظر إلينا من حيث يجلس.

اقتربنا قليلًا من الحاج بإشارة يونس، فلم يتغير تعبيره عندما رآنا... عرَّفه يونس بأسمائنا، ولما سمع اسم الطبيب موسى تجعّدت جبهته، وقال بتمعّن: "إذا كنتم قد جئتم لتتعلّموا مني، فليس لديَّ كتب بعد الآن"، وأشار إلى المكان، ثم تابع: "أما في المنزل فلم يبقَ أيُّ شيء تقريبًا".

قالت علياء مرعوبة: "هل أخذها الصليبيون؟".

هزّ المعلم رأسه بهدوء، في حين تكلم يونس بدلًا عنه قائلًا: "كان الأمر أشبه بتدمير المكتبة".

أدركتُ أنَّه يشير إلى حرق مكتبة الإسكندرية الشهيرة. آلاف السنين من الخبرة للمصريين واليونانيين، مع عددٍ لا يُحصى من المخطوطات؛ مكتبةٌ مذهلةٌ من العلوم والفلسفة والهندسة والاختراعات والتاريخ... على الرغم من المزاعم في بعض كتب التاريخ أنَّه تم حرقها أثناء الفتح العربي، إلَّا أنَّه في الحقيقة جرى حرقها من قبل المسيحيين خلال الحرب الأهلية التي نشأت بسبب نشر العقيدة الوثنية. كانت واحدة من أعظم حوادث التدمير في التاريخ، إلى جانب المكتبة الأندلسية... دُمِّرت العصور القديمة مع أسرارها.

سأل المعلم بهدوء: "ما الذي أتى بكم إلى هنا من أرض الأندلس؟".

شعرتُ في صوته بالفضول الذي لم يستطع إخفاءه، ونظرتُ إلى علياء، فهي من أحضرتنا وقادتنا إلى هنا، وتوقعت منها أن تجيب، لكنَّها كانت تنتظر مني أن أتحدث. في تلك اللحظة أدركتُ أنَّها تعرف كل شيء، وأنَّ والدها أخبرها بالأمر، ولم أعلم لماذا لم تقل أو تسأل أو حتى تلمِّح لنا على متن السفينة، لكنَّني أخذت دور الحديث الذي أعطتني إياه بهدوء، على الرغم من عدم معرفتي ماذا أقول، وكيف أشرح، ومن أين أبدأ في شرح مثل هذا الموقف؟ أخرجتُ الإسطرلاب الذي أدخلته في حزامي فوق ثيابي داخل غطائي الخارجي، وركعت أمام المعلم، ثم سلَّمتُه مفتاح كل شيء.

لم يفهم في البداية، حدَّق إلى الإسطرلاب لبضع ثوان، ثم نظر إليّ وإلى ماثيو مرةً أخرى، كان الأمر كما لو كان يرانا للمرة الأولى الآن.

قال ماثيو من حيث كان يقف فوق كتفي: "نريد أن يعمل هذا بشكلٍ معاكس".

كانت هذه الجملة واضحة وغامضة بنفس الوقت، لم نتمكن من الوثوق في يونس على الفور.

قال المعلم في البداية: "أنا... لا أعرف".

ما زال لا يستطيع التغلب على دهشته، وبعد التفكير لفترة، أخذَ نفسًا عميقًا، بينما ركع ماثيو وعلياء عندما أشار إلينا بالاقتراب، وبعد أن أغلق يونس الباب وجاء، بدأ المعلم بالحديث قائلًا: "لديَّ نسخ متبقية من المكتبة، تم نقل القليل من أوراق البردي التي تم انتشالها من حريق المكتبة الكبير إلى الكتب، فانتقلت من المعلمين إلى الطلاب لمئات السنين".

أوه، كان ذلك مذهلًا، تمّ الاحتفاظ بمعلومات من تلك المكتبة القديمة ونقلها عبر القرون، كان ذلك إنجازًا رائعًا حقًّا.

وتابع: "لقد أرسلتُ الكتب إلى أماكن مختلفة في حالة موتنا من الطاعون، أصفهان، تبريز، سمرقند، بغداد، المغرب..." جعلنا توقفه للحظة ونشعر بأنَّنا الآن في المكان الذي سيساعدنا فيه، ثم أضاف: "والمدرسة في غول شيهير، المرصد الذي بناه السيد جاجا".

غول شيهير؟ السيد جاجا؟ كانت هذه أسماء مألوفة، أرضي، بلدي! بدأ قلبي يدق من الإثارة، فنظرت إلى ماثيو بفرح.

سأل ماثيو وهو يشاركني حماسي: "كيف يمكننا الوصول إلى هناك؟".

لو لم يكن هناك أشخاص حولنا، لربَّما رقصنا وقفزنا الآن، ومع ذلك، عندما طُرق الباب بعنف قبل أن يتمكّن المعلم من الإجابة، تلاشت سعادتنا بسرعة لمعانها، فتقدمنا جميعًا كما لو كنا نريد حماية المعلم، تقدم يونس، وتبعته عليا، انتظرت أنا وماثيو بجانب المعلم لبضع دقائق بدت وكأنَّها أبديَّة، في غضون ذلك نظرتُ حولي وبحثتُ عن أدوات لحماية نفسي، لكن لم يكن هناك سوى الأواني الفخارية، على الرغم من أنَّها ستكون مفيدة في حالات الطوارئ، لكن... حاولتُ مسح السيناريوهات السيئة من رأسي.

سأل المعلم كاسرًا حاجز الصمت في الغرفة: "هل يأخذ المسلمون القسطنطينية؟".

لم أكن أتوقع هذا على الإطلاق، خاصةً في مثل هذه اللحظة العصيبة، كان من المثير للاهتمام أنه لم يطرح هذا السؤال أمام الآخرين، والأمر الأكثر إثارة هو أنَّه كان يشعر بالخجل كما لو أنَّه ارتكب خطأً، لم يكن يجب أن يتساءل، ما كان يجب أن يسأل، لكنَّه فعل. كان بإمكاني رؤيته يخوض معركةً مع نفسه، لقد كرَّس نفسه لسنوات للتعلم والتعليم والحفاظ على المعرفة هنا وفي كلِّ مكان آخر، فأعطى الأولوية لحماية المعلومات وليس لحياته الخاصة. الآن سأكون قادرة على إعطاء هذا الرجل الحكيم الإجابة التي لا يعرفها والتي ليس لديه أدنى فكرة عنها، الإجابة غير الموجودة في أيِّ مكتبة حتى الآن، اعتقدتُ أنَّني مدينة له باسم الإنسانية.

همستُ وأنا أنظر إلى عينيه: "نعم"، هل كان ما أفعله مخالفًا للقواعد؟

ابتسم المعلم بارتياح طفيف إلّا أنّه لم ينظر إليّ، بل نظر إلى السجادة، كان لديه الكثير من الأسئلة والأجوبة على أسئلتنا، ولكن ما نفتقر إليه جميعًا هو الوقت.

شعرنا بالارتياح عندما عاد يونس وعلياء مع شخصٍ مألوف، كان هذا الشخص هو البحار الصغير مساعد الريس حسن الذي رافقنا في السفينة.

ولّت تمامًا الاحتمالات السيئة التي خطرت ببالي...

قالت علياء للبحار الذي كان يلتقط أنفاسه بسرعة: "كيف حدث ذلك؟ هل أنت متأكدٌ من صحة الأمر؟".

هزّ الصبي رأسه خوفًا وأجاب: "طلب مني رئيسي القول إنّه كتب ذلك في رسالته، لقد حفظتُها كلمة كلمة".

وقف ماثيو مُرتعبًا، بينما نهضتُ خائفة وقلت: "ماذا حدث يا علياء؟".

توسَّعت عيناها وأجابَت واسعة: "يوسف".

عرفتُ من عينيها أيَّ يوسف تقصد، فوضعتُ يدي على قلبي وحبست أنفاسي.

"تُوفِّي"!

الفصل الخامس عشر

صيف 1368م

آه، يوسف...

يوسف الصغير اللطيف، صاحب الخدَّين الممتلئَين، والوجه المبتسم، كان سبب وجودنا هنا، ولكن بعد ذلك... ارتبطنا به جميعًا، بما في ذلك الجد. وهل يمكن أن يراه أحدٌ ولا يحبه؟! كان يجعل الجميع يحبه؛ ذكيٌّ وممتلئٌ بالحب. كان يمسكُ يدي بإحكام، ويستمع لي جيدًا، ويعانقني وهو في أحضاني... شعرتُ بضيقٍ في قلبي.

سألت بقلق: "اغتيال؟".

أسوأ احتمالٍ يمكن أن أفكِّر فيه هو انكشاف هوية يوسف، وهذا من شأنه أن يعرِّض صفيّة للخطر أيضًا، والتي أعتقد أنها علمت كل شيء من الطبيب موسى بعد مغادرتنا. إذا تمَّ اغتيال يوسف، فلن يسلم كلُّ من حَفِظَ سرَّه.

قالت علياء: "انزلقت قدمهُ وسقط".

كان من الواضح أن علياء تحاول إقناع نفسها وهي تخبرنا... كما لو أنَّه الجزء الوحيد الذي لم تفهمه.

فاجأني ذلك أكثر، فقد نجحنا في إحضار يوسف إلى هنا، لكنَّنا لم نتمكن من حمايته... غطَّيتُ فمي بيدي لإخفاء الحازوقة المليئة بالألم، وكان ماثيو منهارًا أيضًا. عندما وضع يده على كتفي محاولًا مواساتي، أسندتُ رأسي على كتفي وتركت الدموع تتدفق.

لا بدّ أنَّ صفيّة تشعر بالأسى والحزن الآن، لم يكن لديَّ أدنى شك بعد أن غادرت أنَّها تحبُّ يوسف بقدر حبها لولدها الذي فقدَته، وها هي الآن تعاني للمرة الثانية ألم فقدان ولدها. ليتَ علياء كانت مع أختها خلال هذه الأوقات الصعبة، فعلى الرغم من أنَّها لم تكن تغادر المدرسة مطلقًا أثناء وجودنا في غرناطة، لدرجة أنَّنا لم نلتق بها تلك الليلة الأخيرة، إلا أنَّها لكن لم تكن لتترك أختها وحدها في مثل هذه الحالة.

عندما تمكَّنتُ من السيطرة على مشاعري، مسحتُ دموعي وعدت إلى حقيقة العالم الذي أعيش فيه؛ كان الجميع يشاركونني الحداد، حتى يونس والمعلم زيد شعرا بالأسف على الطفل الصغير الذي لم يعرفاه.

التفتنا إلى البحَّار الصغير وهو يتحرك نحو الباب كأنه يغادر، فأوقفته علياء وقالت له أن ينتظرها في الخارج كي لا يشعر بثقل الخبر في الغرفة.

عندما غادر البحَّار أخرجت علياء ثلاثة أكياس من المال، فهمتُ ذلك من الأصوات التي تصدرها النقود، ووضعت أحدها على الطاولة مشيرةً إلى يونس، وأعطتنا الاثنين الآخرين، ثم قالت: "طلب والدي مني أن أعطيها لكم".

هل كانت تودّعنا؟ لقد أرسل الطبيب موسى علياء إلى هنا لتكون طالبة بجانب المعلم زيد.

سأل ماثيو متفاجئًا مثلي: "ألن تبقي هنا؟".

جعلها السؤال تتجمّد قليلًا، كأنّها تحارب نفسها، فتبعناها حين خرجت لتسير إلى الحديقة الصغيرة بين المسجد والمنزل.

أجابَت: "هذا ليس ما أريده"، مشيرةً بحزن وشيءٍ من الخجل إلى منزل المعلم. بدت مصدومة ومصابة بخيبة أمل، حتى أنّها كانت غير قادرة على قبول القرار الذي اتّخذته، "أنا..." حاولت استجماع قواها وتابعت: "أريد الانضمام إلى سفينة الريس حسن".

بدا لنا أنا وماثيو وكأن عينيها ستخرجان من محجريهما.

تابعت قائلةً: "أريد استكشاف أراضٍ مختلفة، رؤية القراصنة..."، وأضافت بسرعة: "وسيكون لديَّ متّسعٌ من الوقت للقراءة".

علياء الشجاعة والمغامرة... من المؤكد أن حياة سيدة حرة أكثر ملاءمةً لشخصيتها، ولكنني خِفتُ فجأةً من مواجهةِ حقيقةِ أنّنا سننفصل عنها. لم أثق في يونس كثيرًا، وكان المعلم زيد قد تقدم في السن، إذا انفصلنا عن علياء، فسنكون قد غادرنا غرناطة أيضًا. امتلأت عيناي مرَّة أخرى بالدموع... كان ما مررت به ذا تأثير كبير عليَّ.

أردتُّ أن أقول: "علياء، لا تتركينا هكذا"، لكنّني بدلًا من ذلك سألت: "هل يعلم والدك؟"، خرج السؤال من فمي بنبرة بدوتُ معها غاضبة قليلًا.

احمرَّ وجهُهَا بالكامل، وأجابت: "سأتزوج الريس حسن".

كبح ماثيو ضحكته في اللحظة الأخيرة، وقد فاجأني ردّ فعله، وبدّل حالتي العاطفية. وعلى الرغم من أنَّه كان مضحكًا بالنسبة إليّ، إلَّا أنَّني قمت بحبس ضحكتي، واستطعتُ بالكاد التحكم في تعابير وجهي وأنا أحاول الضغط على زوايا شفتيَّ بشدَّة.

قلت لها: "مُبارك".

يمكن اتخاذ قرارات الزواج بهذه السرعة في هذا العصر، لم يخطر لي أبدًا أنَّه سيمكنني الضحك بعد خبر وفاة يوسف، لكنَّ وقوف علياء مثل الشمندر أمامي الآن، وقرار الزواج هذا، ورد فعل ماثيو المفاجئ خلقت لحظةً مضحكة، إذ لم أكن أتوقع أن أرى مثل هذه الفتاة الفخورة والتي لا تتزعزع وهي على هذه الصورة.

قالت علياء: "اسمحوا لي أن أشكر المعلم".

ثم مرت بجانبنا بسرعة ودخلت، تبادلنا أنا وماثيو النظرات ضاحكَين وأسرعنا بالاندفاع إلى الداخل كيلا نقع في الحرج.

بينما كانت علياء على وشك أن تسأل المعلم: "كيف يمكنهم الذهاب إلى غول شيهير؟"، كنا قد جلسنا على ركبتينا أمام المعلم.

فكَّر المعلم لبعض الوقت قبل أن يجيب قائلًا: "أعتقد أن أفضل طريقة هي الذهاب إلى إمارة منتشة عن طريق البحر".

بلدي الغالي، أرضي الغالية! بغضِّ النظر عن السنين، كان وجودي هناك سيُشعرني بالراحة، فأرضي يمكن أن تكون بيتي في كل العصور.

سألتُ علياء: "هل تستطيع السفينة الذهاب إلى هناك من الإسكندرية؟".

ربَّما كان سبب الحماس الذي لم يلحظه سوى ماثيو في نبرة صوتي هو ضغوط السفر أو نفاد الصبر، لا يهمني، بيتي... بيتي... كنت أقولها من أعماقي "بيتي".

أجابت علياء: "لا أعرف، لكن يمكنني أن أسأل الريس حسن وأعرف الإجابة وأنتم هنا".

هززنا رأسينا بامتنان، بينما استدارت ونالت مباركة المعلم، ثم ودَّعته وغادرت بسرعة. وعندما اختفى يونس عن ناظرنا مغلقًا الباب خلفه بقينا نحن والمعلم بمفردنا.

قلت: "يوسف..." وأنا أتذكر الخبر بألم، لكنَّ الواقع صدمني، فتابعتُ قاصدةً مسار التاريخ: "إذًا لن يتغير شيء!".

رفع المعلم زيد رأسه ونظر إلينا برهة، ثم قال بصوتٍ عميق: "من يعارض القدر الذي كتبه الله؟ هل يتغير القدر؟".

سألتُه بصوت خافت: "ماذا حدث ليوسف؟".

لا يبدو أنه يريد مواساتي، كان الأمر أشبه بإلقاء إحدى محاضراته المعتادة، فقال: "ما كان مقدرًا حدث، كان مقدرًا له أن يموت؛ لا يهم هنا أم هناك، فالقدر لا يتغير".

لم يكن هناك شيءٌ أقوله، في حين استجمع ماثيو أفكاره وقال: "نحن... أتينا من مستقبلٍ بعيدٍ جدًّا".

رفع المعلم حاجبه، فتابع ماثيو: "إذن لماذا أتينا؟ كيف أتينا؟ ماذا حدث ليوسف؟".

شعرت بالفضول القاتل لأعرف إجابات هذه الأسئلة التي لم

أُدركها حتى قالها ماثيو، والتي تدور حول سبب وجودي هنا الآن، لكنَّ المعلم سألنا عن الزمن، كأننا لم نسأل أيًا من هذه الأسئلة.

أذهلَنا هذا السؤال تمامًا؛ كان الزمن شيئًا لا يمكننا استيعابه، لم نفهم من أين وإلى أين وكيف جاء، هل هو عدو أم صديق؟ نعرف أنه موجود لكننا لا نراه ولا نلمسه.

رفع يديه المرتعشتين في الهواء وتظاهر بحمل كرة غير مرئية ثم قال: "الزمن ليس مادة يا أولادي، الزمن صورة روحية"، أدارَ إحدى يديه إلى اليمين والأخرى إلى اليسار كما لو أنَّه يقوم بتدوير الكرة غير مرئية وتابع: "ها هو ذا، لا يمكنكم أن تتحكّموا به، ولا يمكنكم تغيير مساره".

قلتُ موافقةً وهو يُنزل يديه: "نعم، لم نتمكن من تغيير المسار، كيف وصلنا إلى هنا إذًا؟ ألم نأتِ متحكمين بالزمن؟ ألا يجب أن نكون هنا؟".

نظرَ حوله وقال: "هل تعتقدان أنكما تسافران عبر الزمن؟"، ثم أمسك بالورقة الموجودة على الطاولة، فدهشتُ جدًّا عندما مزَّق الورقة، لسببٍ ما لم أكن أتوقع مثل هذه الحركة المفاجئة.

تابع المعلم بهدوء: "انظرا، مزَّقتُ الورقة وكان ذلك قبل ثانيتين، ولا يمكنني إعادتها، ولكن يمكنني التدخل الآن؛ ربَّما أقوم بلصقها"، ثم قام برمي القطعتين على وجوهنا قائلًا: "الثواني لن تكون كما كانت من قبل"، وبعد وضع الأوراق على الطاولة أضاف: "الوقت صورة روحية، والسفر عبر الزمن وهم".

في تلك اللحظة جاء يونس، فجلس بجانبنا وسألَنا: "ألم تقرؤوا كتابات ابن عربي عن الزمن؟".

بالطبع كنتُ قد قرأتُ بعض إصدارات القرن الحادي والعشرين، ولكنَّني لم أستطع فهم معظمها. كان لكل شخصٍ آراءٌ مختلفة، وبما أنني لم أفهم الكثير من الفلسفة، فقد كنت أركزُ على التاريخ فقط، ولكنَّني الآن موجودة بالفعل داخل فلسفة، غموض... ولولا ماثيو بجانبي لظننت أنني فقدت عقلي حقًّا وأنَّ كلَّ هذا مجرد حلم، كنتُ سأصدِّق ذلك مع الزمن.

قلتُ متجاهلةً ما إذا كان يونس معنا أم لا: "كيف وصلنا إلى هنا؟".

لم أستطع ضبط نفسي، وربَّما لاحظ بالفعل أن هناك خطبًا ما... كنت متأكدة أننا لا نبدو مثل المسافرين العاديين، إن كان هناك معيارٌ معيّن لهم، وكان من الواضح أننا لم نأتِ من غرناطة أو الدولة العثمانية، ومن المؤكد أن لدينا جوانب عديدة تثير الانتباه والفضول، فعلى سبيل المثال، كان اسمي هو أول ما يتبادر إلى ذهني، وكان أمر عدم قدرة ماثيو على استخدام أو حمل أدوات مثل السيوف والسكاكين مثيرًا للدهشة.

عندما نظرت إلى يونس، تفاجأ لبضع ثوانٍ، ولكن بعد ذلك أدركتُ بأنَّ ردّ فعله عادي، هل كانت هذه الانتقالات الزمنية شائعة حقًّا ومُتوقَعة في هذا العصر؟

فقد ماثيو صبره مثلي، وأشار إلى الإسطرلاب الذي تركه أمام المعلم زيد من قبل، ثم قال: "كيف يمكن أن يجلبنا هذا إلى هنا؟".

قال المعلم وهو يمسح لحيته مفكِّرًا: "عندما يجتمع العلم مع المعرفة، لا يوجد بابٌ لا يمكن فتحه؛ إلَّا أنَّنا نحن البشر لا نستطيع الوصول إليه بشكلٍ كامل. تلك هي الأسرار الأبدية للكون، ولكن لا يمكننا العثور إلا على جزء محدودٍ جدًّا منها"، ثم أخذ الإسطرلاب وقال: "هذا هو واحدٌ منها".

قال يونس بتمعّن: "السفر بين الأكوان... رحلة روحية... الأبعاد..."، حتى لو لم يفهم ذلك سابقًا فقد فهمَ الآن؛ كان ينظرُ نظرةً عميقة، كما لو أنَّه يريد أن يتذكر كتابًا ويحاول قراءته. ربَّما في مكانٍ ما، تم كتابة هذه الرحلات، وتجارب من صنعوها وأداروها.

قال المعلم: "كثيرًا ما يذكر ابن عربي في كتاباته الحديث الشريف: الناسُ نيامٌ فإذا ماتُوا انتبَهوا".

أومأنا جميعًا برؤوسنا في نفس الوقت، فقد عرفنا هذا الحديث المألوف، بينما واصلَ كلامه: "نحن بالفعل في عالم الأحلام، الأبعاد والأوقات ليست نفسها".

وفقًا لهذا التفسير، كان علينا أن نموت من أجل الانتقال جسديًا إلى بُعدٍ آخر، هل كان استنتاجي خاطئًا؟ كان ذهني مشتَّتًا تمامًا.

بدأ المعلم زيد من جديد: "يحكي ابن عربي عن الرحلة الروحية في العديد من كتبه، فعلى سبيل المثال، يسافر الصوفيون روحيًا، كيف ذلك؟ هل تعلمون؟".

كان هذا أحد الأشياء التي لطالما تساءلت عنها، فقد كنت معجبة جدًّا بمراسم الحَضرة الصوفية، وتابعتُ بشكلٍ خاص تعابير وجوه

المجذوبين الصوفيين، متوقعةً أن أرى ردود أفعالٍ مختلفة، لكنَّ ما رأيته كان دائمًا تعبيرًا سلميًا يستمر حتى نهاية المراسم. كنتُ أتعلم سبب ذلك في المكان المناسب وفي القرن المناسب، بدأ قلبي ينبض بسرعة، كيف كان من الممكن لأرواحهم "الخروج من نفسها" من خلال مراسم الحَضرة مع الموسيقى؟

تابع المعلم: "أُسُس بَدنِ الصُّوفي هي التراب والماء والهواء والنار، تتحول الطبيعة إلى ماء وهواء ونار، ونتيجةً لذلك، فإن الروح فقط ترتفع وتذهب لتحصيل المعرفة".

ربَّما هذا هو بالضبط ما عشناه، لم نكن علماء، ولم نكن مجذوبين صوفيين، لم نكن أحدًا، كنا مجرد أناس عاديين تمكنوا من تشغيل الإسطرلاب.

قلت: "نحنُ، نحنُ لسنا صوفيين".

فابتسم المعلم وقال: "لو كنتم صوفيين لما كنتم هنا على أي حال"، ثم تغيرت تعابير وجهه، وقال وهو ينظر إلى المطبخ: "يونس، فلتقدم الطعام لضيوفنا".

كانت المحادثة قد انتهت هنا، ومن الواضح أنه لن يقول شيئًا آخر، قبلتُ هذا الوضع بخيبة أمل ووقفتُ مع يونس، حيث مدَّ قطع الجبن التي احتفظ بها باردة في قدرٍ فخاري وضعه على الأرض، وأحضر رغيف خبزٍ دائريٍ كبير. وبما أنَّ المعلم لم يستطع النهوض من مكانه، فقد أزاح طاولة الكتابة من أمامه واستبدل بها طاولة مستديرة، وضعَ الخبز عليها بينما وضعتُ أنا الجبن.

خلال الساعة التي تناولنا فيها الوجبة الخفيفة، تحدَّث المعلم مع يونس حول مواضيع اعتيادية، كأنَّنا لم نكن هناك، فكان يسأل عن أسماء بعض الأشخاص في المدينة وماذا يفعلون، متابعًا الإصلاحات في المدينة ومحاولًا معرفة ما إذا كانت هناك أي علامات حرب أو وباء.

ولدى الانتهاء من الوجبة قدَّم لنا يونس الماء في أوانٍ فخارية بعد إعادة طاولة الكتابة إلى مكانها، فلم أدرك كم كنت عطشى حتى شربت.

عندما بدأ المعلم أخيرًا بطرح الأسئلة علينا، كنتُ آمل أن تبدأ محادثتنا مرةً أخرى، فربَّما تكتسب المواضيع التي لم أفهمها معنى أكثر بقليل حينها، ولكن بدلًا من ذلك جَعلَنا نتحدث عن رحلتنا، وسألَ عن غرناطة والطبيب موسى، واستمع إلى آرائنا حول القصر وما كنا نفعله هناك... لم يسأل سؤالًا آخر عن المستقبل، ولم أعرف إن كان ذلك بسبب عدم رغبته في السؤال أم لأنَّ يونس كان معنا، ولكنه لم يُقدِّم أي جوابٍ آخر للأسئلة التي تدور في أذهاننا، كان الأمر كما لو كنا ضيوفًا عابرين حقًّا، أما الشيءُ الوحيد المميز فهو أنَّنا أتينا من بلدٍ آخر.

نظرتُ بحزن إلى السماء من النافذة الصغيرة تحت السقف، كان المساء قد حلَّ، بينما كانت عيناي في حالة تأهب تنظران إلى الباب خشية أن يرنَّ الجرس ولا أسمعه. هل ستعود علياء بإجابة؟ هل يمكن للريس حسن أن يجد لنا سفينة؟ وهل يمكننا تحمّل تكاليفها؟

مع مرور الوقت، تحولت أسئلتي هذه إلى شكوك حول علياء؛ هل يمكن أن تكون قد تركتنا هنا؟ ولكنني مسحتُ هذه الفكرة من رأسي

على الفور؛ لم تكن فتاة يمكن أن تتركنا وراءها، إذا قالت إنَّها قادمة، فسوف تأتي بالتأكيد.

عندما قُرع جرس الباب، ارتعدتُ خوفًا، فالمساء قد حلَّ، ومن الممكن أن يحدث شيءٌ مشؤوم، وإلا ما السبب الذي يجعل يونس في حالة تأهب دائمًا؟ كما أنَّني رأيتُ حالة الشوارع عندما أتيت، ولا بد أنَّ ماثيو يفكر مثلي، لأنَّه سبق وأن مرَّ بالمسجد مع يونس.

لفتَ انتباهي سكين الورق الرديء المُلقى على طاولة الكتابة، أود أن أحمي المعلم أولًا ثم أحمي نفسي.

عندما عادوا، شعرتُ بالارتياح لرؤية علياء والبحَّار الصغير معهم، فركضتُ وعانقت علياء التي تفاجَأت في البداية ثم عانقتني أيضًا.

قالت علياء: "لديَّ أخبارٌ جيدة لكم! أجرى الريس حسن بعض التعديلات الطفيفة، سيأخذكم، أعني... نحن سنأخذكم".

كنت سعيدةً جدًّا لأنَّنا لن نصعد على متن سفينةٍ أجنبية، بل مع أشخاصٍ مألوفين ما يمنحنا الشعور بالأمان. نظرتُ بسعادة إلى ماثيو، فوجدتُه مرتاحًا مثلي. الآن يمكننا مغادرة هذه المدينة سالمين.

لم تكتفِ علياء بذلك بل قالت إنهم يريدون نقل المعلم ويونس إلى مكانٍ آمن.

قال يونس قبل أن يتكلم معلمه: "هذا بيتنا! إذا غادرنا، فلن يتبقّى أحدٌ يُحيي التقاليد".

أجاب المعلم دون تردد: "أيُّ مدينةٍ بدون علم، محكومٌ عليها بالفناء".

على الرُّغم من أنَّ علياء أخبرتهم بإمكانية عودتهما متى أرادا، إلَّا أنَّهما أصرا على البقاء، إذ كانا يعتقدان أنَّ كلَّ شيء سوف يتحسن قريبًا، وأنَّه قد بدأ في التحسن بالفعل، وأنَّه مع المال التي أعطتهما علياء إياه سيعيشان بشكلٍ مريح لفترةٍ طويلةٍ جدًّا.

قبل أن أغادر، تركتُ حقيبة النقود التي أعطتها لي علياء على الطاولة متجاهلةً النظرات العابسة لرفاقي في السفر واعتراض يونس.

قلت لهم: "بالنسبة لي، رمّموا المسجد عندما تحينُ لكم الفرصة".

وهكذا، لم أعد أشعر أنَّني مَدينة بأموالٍ ليست لي، فنحن لم نجنِ أيَّ أموال لأنَّنا لم نَعش في هذا العصر. كان الطبيب موسى قد فكَّر في ذلك فأرسل لنا المال مع ابنته، وإذا كانت هذه حصَّتي حقًّا، فإنني مرتاحة البال الآن، وعلى استعداد للسير من إمارة منتشة إلى غول شهير، والواقع أنَّ حصَّة ماثيو كانت تكفينا لأشهر، وربما لسنوات.

كنتُ أشعر بتحسن عند خروجي بعد أن شكرتهم على كلِّ شيء. أخفيتُ الإسطرلاب في حزامي مرةً أخرى، واستعدنا أشياءنا التي كانت ملفوفة في حزمة؛ كانت ثلاث أو خمس قطع أحضرناها معنا من السفينة.

نظرَ إلينا المعلم للمرة الأخيرة عند خروجنا من الباب، مناديًا "أبنائي!"، فتوقفنا وانتظرنا بفضول.

تابع قائلًا: "لا شيء في الحياة بلا سبب، أحيانًا تتساقط الثلوج على الصحراء".

الفصل السادس عشر

صيف 1368م

أن تكون مجدّدًا بين أناس تعرفهم هو أمرٌ جميل.

عندما وضعنا أقدامنا على السفينة قادِس[1]، ألقينا سلامنا على الجميع.

عدتُ إلى الأجواء المألوفة؛ مقصورة الرُّبان، وزاويتي المخفية، ومائدة الريّس... تناولنا الفاكهة مساءً، وقدَّم الريّس حسن لنا البلح الواصل حديثًا.

قلت بشعور من الحزن والامتنان: "لقد غيّرتم طريقكم من أجلنا".

أصلح شاربه بخفة وقال: "كلا، أسافر إلى هذا الميناء دائمًا"، ثم ألقى نظرة خفية على علياء، وتابع قائلًا: "وبهذه الطريقة نكون قد ذهبنا إلى القسطنطينية أيضًا".

شرح بعد ذلك ما رآه في رحلاته السابقة، وكيف أجرى اتفاقات تجارية مع البيزنطيين. كان الريس حسن ذا علاقات جيدة، ومن أفضل التجار المعروفين في منطقة البحر الأبيض المتوسط، لذلك راودني الفضول: لماذا لم يشترِ سفينة او اثنتين من أجل أن ينشئ أسطولًا

(1) سفينة حربية عثمانية قديمة كانت تُستخدم في البحر الأبيض المتوسط.

تجاريًا؟ ربَّما الأمر المهم بالنسبة إليه أن يبقى في حركةٍ دائمة. ولهذا السبب وبدلًا من أن يبني بيتًا مستقرًا لنفسه وإدارة أسطوله عن بعد، فضَّل أن يحدَّ من حركته لتقتصر على سفينته فقط.

مساءً، كانت السفينة هادئة عندما طلبنا الإذن أنا وعلياء وذهبنا إلى مقصورتنا، حيث نزل الجميع إلى المدينة لأننا كنا سنغادر في صباح اليوم التالي. ومن حينٍ لآخر كانت تأتي أصوات الأمواج الخفيفة التي ترتطم بالسفينة.

قالت علياء وهي تمشط شعرها الطويل الممتد حتى خصرها، بلونه الأسود الليلي: "سُررت أننا لم نفترق، فقد اعتدت عليك يا مانوليا".

ابتسمت بفرح، فشعورها كما أحسّ به شيء جميل جدًّا. وبدوري شعرتُ بالدفء تجاهها، ربَّما لأننا متقاربتان في العمر، وربَّما لأننا متقاربتان في الشخصية أيضًا. في النهاية، لم أستطع منع نفسي من الغوص في مغامرة لم أؤمن بها أبدًا.

قلت لها: "لا أعلم كيف يجب عليَّ أن أشكرك، بعد أن ساعدتني بكل صبر في تعلم اللغة".

ما زالت حتى الآن تصحِّح لي الأخطاء عندما أتكلم، فتعتني بحديثها وتتكلم ببطء كي أفهم ما تقوله، وكان ذلك وحده أمرًا قيِّما جدًّا بالنسبة إليّ، رغم أنَّها ساعدتني في أمور أكثر.

قلت لها: "أوصلتِنا حتى هذا الحد، ومع ذلك ما زلتِ تساعدينا. وقد طلبتِ من الريس حسن أن يبدل مساره، أعلم ذلك".

تبسَّمت، ولكنَّها لم تقل شيئًا، بل مدَّت مشطها لي، وكالعادة وضعته على المنضدة التي بيننا بدل أن أمشِّط شعري. جلستُ محاذيةً لها، وكانت مقصورتنا صغيرة جدًّا لدرجةِ أن ركبنا تتلامس تقريبًا عندما نَجلس على أسِرَّتنا متقابلتَين.

قلت لها بهمس: "كنتِ تعرفين منذ البداية؟"، لم يكن هذا سؤالًا في الحقيقة! عندما هزّت رأسها موافقة سألتها: "لماذا لم تقولي شيئًا لي أو لماثيو؟".

عبست وأجابت بسؤالٍ دون تردد: "هل أنتما كاثوليكيان؟".

يا إلهي، كان الموضوع يذهب إلى مكان آخر تمامًا.

أجبت على الفور: "لا، لا، نحن لسنا كاثوليكيين، هذان فقط اسمانا الحقيقيان".

نظرت إليَّ بتمعّن وقالت: "نعرف يوسف والإسطرلاب. وقد أحضرتموه سليمًا، بالرغم من أن النهاية لم تكن كما خططنا لها.."، شردَت للحظة وحدَّقت إلى نافذة المقصورة إلا أنها استجمعت نفسها وأكملت قائلة: "أبي وأختي وثقا بكما، وكذلك أنا. لقد خاطرتم من أجلنا، وحان الدور علينا الآن للمساعدة".

كانوا يعتقدون حقًّا أن تطوير هذه التقنية غير المحكمة سيمكنهم من حماية يوسف ورفعه سرًا ليصعد على العرش. وقد حقّقت تصاميمهم ما يريدونه إلى حدٍّ ما، ولكن النظام الذي بنوه كان فيه الكثير من الثغرات.

أوقفتني عندما فتحت فمي لأتكلم وقالت: "أعلم بأن لديك الكثير من المشاكل، وأنا لديَّ كذلك. قرأت في المكتبة أن الأشياء التي يُقال

إنها لا يمكن أن تحدث قد حدثت بالفعل قبل آلاف السنين"، وحين رأت التعابير المعقّدة على وجهي أوضحت قائلة: "على سبيل المثال؛ مصر القديمة، وقارة أطلنطس الضائعة. قرأت العديد من المقالات حول هذه الحضارات.. لا يمكن للعقل تصديق التكنولوجيا التي كانوا يملكونها، لذا ينبغي كشف الكثير من الأشياء"، ثم استقامت كأنَّ شيئًا قد حدث لها وقالت: "حتى في العصر الذي أتيتِ منه".

فردَت يديها وشدَّت تنورتها قائلة: "وعدت أبي بأنني لن أسألكما أيَّ سؤال، يجب عليَّ أن لا أعرف".

كان من الغريب أنهم لم يسألوا أيَّ شيءٍ عن المستقبل!

تابعَت: "لا أستطيع أن أكبح شعوري بالفضول، ولكنَّني سأتمالك نفسي".

ابتسمت بحزن وقلت: "من يدري.. ربّما من الأفضل ألَّا تعلمي"، الكثير من الحروب، والمجاعات، والأمراض، والإنسانية الميتة... لا بدّ من وجود التكنولوجيا الرائعة، والفن والثقافة، ولكن بعد الذي رأيته من معلومات وثقافة في هذا العصر، لا يمكنني أن أتوقف عن التساؤل؛ هل تقدمنا حقًّا أم على العكس تمامًا؟

سألتني بفضول: "لماذا تودّين العودة إذًا؟". ما أجمله من سؤال..

أجبتُها: "الأهم من كل شيء هو أن عائلتي هناك".

كان سببًا منطقيًا بالنسبة إليها، فهزت رأسها متقبلة بشكل متفهم، بينما أكملتُ قائلةً: "ما زلت لم أفقد إيماني بالناس، فشخص واحد قادر على تغيير العديد من الأشياء يا علياء". لم يشمل ذلك المساهمة في

المجتمع كمهنة فحسب، بل شمل أيضًا تعليم بيئتي وعائلتي المستقبلية ليكونوا أشخاصًا صالحين ومفيدين، فتعليم المرء أن يكون "إنسانًا" هو أكثر أهمية من أي شيء آخر.

تقديم المساعدة، عدم كسر الخواطر، الثقة وعدم خيانة الثقة، إعطاء القيمة للعلم وللثقافة، أن تكون بشوش الوجه، أن تكون محترمًا... كان الناس الذين رأيتهم هنا مختلفين.

سألتها لأغير الموضوع: "هل الريس حسن لديه علم؟".

فأجابت: "لا، فهو يشعر بأنكما غريبا الأطوار بعض الشيء، ولكن لن يخطر بباله شيء كهذا بالطبع". ثم أخذت بيديَّ داخل يديها وأضافت: "لا تقلقي، سوف يذهب هذا السر معنا حتى المقبرة. وحتى لو لم تستطيعا العودة يمكنكما أن تبقيا معنا دائمًا، لا تنسي ذلك".

لم أكن أود أن أفكر بالأمر، ولكن سماع هذه الأشياء أراحت داخلي نوعًا ما، فنمت تلك الليلة بسلام، واستيقظت في الصباح على صوت صراخ على ظهر السفينة.

كانت سفينتنا تغادر الإسكندرية عندها، فارتديت ثيابي بسرعة وخرجت، وأنا أقول لنفسي إن حداثة المدينة مختلفة حتى وإن كانت خرابًا، وبقيتُ أنظر إليها وهي تبتعد حتى أصبحَت صغيرةً جدًّا.

لم تكن الحياة على متن السفينة طبيعية، إذ استمر الركض والصراخ حتى رُفعت الأشرعة فوق البحر وبدت مثل الملاءات المزينة.

بعد ذلك تناولنا فطورًا من الجبنة والزيتون والحليب الطازج في مقصورة الريس حسن. كانت اللحوم المقددة والسمك والفواكه

الطازجة المحملة من الميناء ستصاحبنا لمدة يومين ونصف أو ثلاثة أيام في وجهتنا الجديدة. ظننت في البداية أننا سنغادر اليابسة لنرى أهم الموانئ في البحر الأبيض المتوسط، ولكن عند مغادرة الإسكندرية صعودًا باتجاه بحر الجُزر، أو بحر إيجه، كنا سنصل إلى جزيرة كريت.

في اليوم الأول جلستُ إلى ما بعد الظهيرة على سطح السفينة محاولةً قراءة دفتر الملاحظات الذي كتبه الريس حسن السنة الماضية والذي استعرته منه. كانت كتب الريس حسن بالمجمل تقنية جدًّا وكنتُ على ثقة بأنني لن أستطيع قراءتها بالمستوى الذي أنا عليه، ولهذا السبب أعطاني دفتر السجلات هذا والمكتوب بلغة بسيطة، فهكذا سأستفيد من تطوير لغتي، وبما أن البحر لا يزال ساكنًا فقد اغتنمتُ تلك الفرصة.

كانت فترة المساء صعبة جدًّا، لأننا كنا في منتصف سواحل البحر الأبيض المتوسط، وبدأت سفينتنا تهتز. تركت القراءة لتناول بعض الأطعمة الخفيفة من أجل ألا تصاب معدتي بالغثيان، ثم ذهبت إلى زاويتي السرية، وبقيت أنتظر أن تتبلّل قدماي في كل مرة كانت السفينة تنزل وتصعد وسط الأمواج، وهو ما كان مستحيلًا بالطبع لأنني كنت على ارتفاع أمتارٍ عن الموج، ولكن الانتظار شغل وقتي.

كانت عيناي تلمحان من حينٍ لآخر السفن البعيدة، وكنت في البداية أتحمّس من احتمال أن يكونوا قراصنة، ولكن عند عدم حدوث أي شيء خطير وجدت نفسي أتنبأ بحياة الأشخاص هناك.

كان من الغريب أن أحدًا لم يخرج للبحث عني في وضح النهار، ولهذا السبب بقيتُ وحيدةً تمامًا مع أفكاري.

في المساء كان البحر أكثر سكونًا فتناولنا غداءنا بشكلٍ مريح، ولكنني لم أخرج يومها من مقصورتي بعد الأكل، وفضَّلت النوم مباشرة لأن الشمس والبحر كانا قد أتعباني.

في اليوم التالي استيقظنا مبكرًا لأن الجو بدأ يسخن مجددًا في المقصورة. وبعد الفطور، وعندما انسحب الجميع إلى زواياهم، اخترتُ الذهاب أيضًا إلى مكاني، حيث أشاهد السفن والبحر في جو لطيف وبارد. بدأت تظهر الجزر البعيدة اعتبارًا من اليوم، وبدأت حركة السفن بازدياد، وبالتالي فإن الوقت سيمضي بشكلٍ أسرع.

"لقد هربتِ!".

عند سماعي صوت ماثيو استدرت إلى الخلفِ مباشرة وأنا مذهولة؛ كانت الشمس والغذاء الجيد وجو البحر جميعها مفيدة، فأخذ يبدو كالأندلسي الصحي تمامًا، وهو يتلألأ في الشمس.

عندما جلس بجانبي لم أستطع إبعاد نظري عنه، فقلت وأنا أبتسم: "أقوم ببعض العلاج لنفسي".

ضحك بصوت عالٍ قادم من صدره قائلًا: "أنتِ بارعةٌ في الاختباء خلال الآونة الأخيرة"، ثم تغير شيءٌ في عينيه وقال: "كدت أفكر أنكِ تهربين مني".

أجبته: "هل كنت أفعل ذلك؟ لا يا عزيزي!"، ثم أضفتُ: "لنقل إنني أردت البقاء مع نفسي أكثر، ومشاهدة السفينة وما حولها".

غيَّر موضوع الحديث بعد أن دقّق في تعابير وجهي بعناية قائلًا: "قرأت الملاحظات التي أعطاني إياها يونس، وتعلمت منها الكثير".

يونس طالبُ الأستاذ زيد، أعطى بعضًا من ملاحظاته القديمة إلى ماثيو. لم تكن مجرد هدية، بل اضطُررنا إلى قراءتها لمعرفة المزيد من المعلومات. فقد فهم على الأرجح من حديثنا السابق معه بأننا لا نجيد الكثير من المعلومات عن تعاليم تلك الفترة.

بدأ بالشرح قائلًا: "هل تتذكرين الأرقام السبعة التي في الحمراء؟ لقد قرأت العديد من الأشياء في ما يتعلق بها، فعلى سبيل المثال؛ كانت أول كلمات الخَلق (كُنْ فيكون) تتألف من سبعة حروف. أول كلمة قيمتها الرقمية عشرون، والثانية خمسون، ما يعني أنَّ مجموعها سبعون".

بقيَ فمي مفتوحًا، بينما كان سعيدًا كما في كل مرة يذهلني فيها، وأكمل حديثه بحماسٍ زائد قائلًا: "يُعتقد بأن الأبجدية العربية خُلقت سبعًا سبعًا وكلٌّ منها تمثل مجموعةً ما في الكون. سبعةُ كواكب، سبعةُ أنبياء، سبعةُ أعضاء في جسم الإنسان، سبع قارات، سبعة بحار، سبع جنات، طبقات العالم السبعة وعناصره الأساسية السبع".

سألته بعد أن أطلقتُ النفس الذي أمسكته: "ماذا عن الهواء، والماء، والنار والأرض؟".

هزّ رأسه قائلًا: "والسواد، والضوء، والدخان".

نظرتُ بعيدًا قائلةً: "تم تنظيم كل شيء إذًا قبل مئات السنين وفقًا لهذه التعاليم".

قفزتُ متفاجئةً حين صدر صوت قادم من خلفنا قائلًا: "أيُّ لغة هذه؟"، ولكنَّني ارتحت عندما رأيت أن علياء هي القادمة.

قالت: "كنت أبحث عنكم من أجل غداء الظهيرة".

نهضت من مكاني على الفور آخذةً بيدها، وسرنا نحو مقصورة الريس حسن. وفي هذه الاثناء أوضحتُ لها اللغة التي كنا نتحدث عنها، إلّا أنّني لم أعطها الفرصة للسؤال عن اللغة التي نتكلمها بالأساس، وذلك عن طريق طرح الأسئلة حول الجزر التي كنا نمر قربها. كنتُ أحاول حماية ماثيو، ولم أستطع التنبؤ برد فعلها في حال عَلِمت أن اللغة الإسبانية هي لغته الأم.

عندما دخلنا مع ماثيو من الباب قالَ الريس حسن: "نحن على وشك دخول بحر الجزر، وسوف نصل غدًا عند الظهيرة تقريبًا".

جلستُ إلى المائدة متبسمةً، وجلست علياء بجانبي على الفور. كانت فرحة الريس في وقتها تمامًا، إذ أضفى مرةً أخرى طابعًا من البهجة على طعامنا بسرده لقصصه المضحكة. وهكذا فُتحت شهيتنا جميعًا، وأكلنا الكثير من الطعام.

أما بعد الظهيرة، وعندما سطعت الشمس، بقيت وقت القيلولة نائمةً في مقصورتي. ثم قرأت القليل من دفتر السير، وجلستُ أنظر إلى الخارج.

وحين بدأت الشمس تغرب أخبرتني علياء أنها أخذت الإذن باستخدام الحمام الصغير الخاص بالريس حسن، فقابلتُ هذا الخبر الجميل بفرح، وعلى الفور أخذنا أشياءنا وذهبنا إلى المقصورة التي فُرِّغت من أجلنا. كانت المياه العذبة والصابون ذو الرائحة العطرة جيدَين للغاية، فقلت لها: "إن السفينة مريحة جدًّا في الحقيقة، فقد فكَّر الريس حسن بكل شيء يمكن أن يلزم... وذلك بالطبع لأنه يستخدم المكان كالبيت".

تورَّد وجهها خجلًا حتى جذور الشعر، فأحببتُ كونها خجولة أمامي، لأن ذلك يتيح لي المزيد من ممازحتها. وبالكاد أمسكتُ نفسي كي لا أضحك.

قالت مبتسمةً: "سيصبح الأمر مختلفًا عندما تلمسينه بيدك"، ثم ألقت عليَّ وعاءً من الماء.

قلت بين ضحكاتي: "لا ينبغي أن يرى الريس حسن ذلك... لو يعلم فقط كيف تهدرين الماء!".

استمر مزاحنا اللطيف في مقصورتنا، ثم بدأت تمشط شعري بكل خبرة بعدما انتهت من تمشيط شعرها، فأحسست بالراحة وهي بجانبي وكأنَّني أعرفها منذ زمن بعيد. في حين نظرَت إلى شعري الواصل حتى كتفي والذي يعتبر طويلًا في زمننا وقالت: "لماذا شعرك قصير إلى هذا الحد؟".

أجبتها: "لأن النساء من حيث جئت يفضلن الشعر القصير، وفوق ذلك فإنه..."، لم أعلم كيف سأشرح لها بلغتها فقلت بلغتي: "موضة".

كررَت بعدي قائلة بحركة فم ثقيلة: "موضة، ماهي الموضة؟".

زممتُ شفتيَّ وأجبتُها: "الملابس والأزياء وعادات التجميل التي يتم تحديدها كل بضع سنوات".

أنهت تصفيف شعري وتساءلَت: "كيف ذلك؟ هل يحدد شخص ما الذي سوف ترتدونه من ملابس وكيف ستقصرون شعوركم؟".

ضحكتُ قائلة: "لا، لا"، على الرغم من أن وجهة النظر هذه كانت مثيرة للتفكير، إلا أنها ربما كانت كذلك. تابعتُ كلامي: "مع مرور

الوقت يتطور هذا بشكل عفوي أحيانًا، فعلى سبيل المثال، تتمتع المرأة الأندلسية دائمًا بشعرٍ طويل، لذا لا تقصين شعرك".

قالت: "الآن فهمت، هذا يعني أن قص شعوركم هو أيضًا موضة".

لم أكن أعلم كيف يمكنني الشرح أكثر، إذ كان من الواضح على وجهها أنها كانت مرتبكة بالفعل، فأجبتها: "يمكننا القول إنها كذلك".

أكملَت قائلة: "سأفكر في المسألة بعض الشيء"، ثم توجهَت نحو الباب وقالت: "هيَّا بنا نذهب لتناول الطعام".

كان الريس حسن يعطي جلوسنا جميعًا على مائدة الطعام قيمةً عاليةً، ولهذا ذهبت معها على الرغم من أنني كنت أعرف أنني لن أستطيع تناول شيء منه، فانضممت إليهم مع نيتي الاكتفاء بأشياء خفيفة.

عندما ذهبنا إلى المقصورة، رأيت أن الخريطة الضخمة التي أرسلها الطبيب موسى كانت مبسوطة على الأرض، ولم أكن رأيتها منذ وصولنا، فتوجّهت نحوها بحماس. كان الريس حسن يشير لماثيو إلى موقعنا على الخريطة، فنظرت إلى موقعنا على الفور. كانت الخريطة كما أتذكرها تمامًا، ولم يخني ذهني، ما يعني أنَّني حفظتها بشكلٍ جيد عندما نظرت إليها المرة السابقة.

تساءلتُ وأنا أشير إلى الخطوط التي لم أرها من قبل: "ما هذه؟".

نظر حيث أشرت وقال: "نصف النهار".

عندها أصبح الأمر أكثر منطقية؛ كانت هذه الخطوط عمودية وكانت تُقسم الخريطة عموديًا.

عندما تأكد ماثيو من أنهم لا ينظرون إلينا قال محركًا شفتَيه: "ميريديان (خط الطول)".

هززت برأسي، فقد حفظت الأرقام في ذهني.

لم أنم تلك الليلة بعد الطعام، وألقيت بنفسي خارجًا عندما تأكدتُ أن علياء نائمة. كان البحر وسطح السفينة هادئين، وبدَت الليلة مدهشة حيث كانت النجوم منذ ملايين السنين تضيء لنا طريقنا.

ذهبت إلى مكاني الذي لم يعد سريًا بعد الآن، وبدلًا من الجلوس والتأرجح بقدمي استلقيت على ظهري هذه المرة؛ كانت رؤية السماء مريحة.

نهضت حين سمعتُ صيحة صغيرة: "علمت بأنكِ لن تنامي".

كان ماثيو يحدق إليّ بنظرات وجهه ذي الملامح الحادة والتي أضاءها نور القمر، وهو يضحك ضحكاته الجذابة، وكان شعره الطويل المجعد مثل هالة داكنة حول وجهه.

قلت له وأنا أربط ما بين دقات قلبي المتسارعة وخوفي: "توقف عن التسلّل ورائي".

جاء إلى جانبي وجلس قائلًا: "كنت أعلم أنكِ لن تنامي بعد أن رأيتِ الخريطة، فأنتِ تفكرين بها، أليس كذلك؟".

كيف فهمَ ما الذي سوف أفكرُ فيه؟ هل بدأت عقولنا تعمل سويةً إلى هذا الحد؟ أصبحنا قادرَين على التفكير بنفس الطريقة عندما ننظر إلى شيءٍ ما.

أجبتُه قائلةً: "كانَ خط الطول الأول يمر عند أيا صوفيا، وكان السيد جاجا يأخذ مكانًا بين الصفر وخط الطول الأول"، ثم أرحتُ

رأسي بين يدي وقلت: "أنا أُفكر، وأحاول أن أتذكر. خط الطول الأول بعد أن كان غرينتش.."، لم أصدق الشيء الذي كنت أقوله قبل أن أقوله: "أعتقد أنه خط الطول الرابع والثلاثين"، وأكملت: "يا إلهي! هل تقول إن أربعة زائد ثلاثة تصبح سبعة؟".

وبعد أن نظرت اليه طويلًا قلت: "لم أكن أقصد ذلك... أعلمُ أن العثمانيين كانوا غير مرتاحين لكون غرينتش أول خط طول، ولكن كان عليهم قبول ذلك في ظل ظروف معينة".

ختم حديثي بقوله: "أتساءل ما إذا كان هذا واحدًا منهم... فالحمراء على خط الطول الثالث، وفقًا للإصدار الجديد".

"لا أعرف، هل تم تعيينهم عمدًا؟ وهل كان لكل شيء حقًّا نسق رياضي؟".

وقفنا صامتَين لفترة من الوقت نستمع إلى الأمواج.

"لا أعرف ماذا أفكر حول هذه الأرقام أيضًا، ولكن من المؤكد أنَّهم كانوا يهتمون بنمطٍ من الأرقام".

فرك لحيته الطويلة قليلًا بيده وقال بتمعّن: "كانت هناك قصيدة لابن عربي في دفتر ملاحظات يونس؛ إنه يشرح كيف خُلق الكون في سبعة أيام، ولماذا يتألف الأسبوع من سبعة أيام".

أطلقتُ أنفاسي بقوة، واستلقيتُ على ظهري وأنا أنظر إلى السماء مجدّدًا، ثم قلتُ هامسةً: "يبدو كل شيء أكثر تعقيدًا مما كنا نظن".

لقد استسلمت.

الفصل السابع عشر

صيف عام 1368م

كان ميناء بالاط أكثر حيوية وازدحامًا وامتلاءً بالحياة مما كنت أتوقع. توجد قرية بالاط، والتي هي جزء من آيدن في يومنا هذا، بالقرب من منطقة سوكه، ولكن ما رأيتهُ كان مدينةً ضخمة قائمة منذ أيام البيزنطيين. وكان الجزء الأكثر إثارة للاهتمام هو الذهاب إلى الميناء، حيث تصل أشجار الصنوبر الكثيفة إلى البحر. وكان الوصول إلى المدينة، التي تقع في القسم الداخلي، يتم بالدخول عبر النقطة التي يصب فيها نهر مندريس الكبير في البحر.

كانت المدينة عاصمة أكبر مما كنت أتوقع، مشرقة تحت شمس بحر إيجة برخامها الأبيض ومبانيها الحجرية بين الغابات الخضراء الكثيفة.

قدَّم الريس حسن بعض الشرح: "كانت المدينة قريبة من مدينة ميليت التاريخية، ولكن عندما فقد هذا المكان أهميته السابقة، اكتسبت بالاط الأهمية، ويشاع أن اسمها مستوحى منها".

كانت هذه بوابة الغرب لمنتجات الأناضول، وكانت هناك شبكة تسوّق وتجارة مكثّفة خاصة مع سكان البندقية وجنوة، لدرجة أن سفير البندقية كان يعيش في المدينة، وكان يوجد فيها كنائس.

قال الريس حسن: "منذ بضع سنوات، قسَّم السيد منتشه إبراهيم الأرض بين أبنائه قبل أن ينتقل إلى رحمة الله"، ثم أوضح أثناء مرورنا عند مصب النهر قائلًا: "لقد بقي هذا المكان لسيدي موسى".

في المدينة، كانت هناك تماثيل من العصور القديمة، ومسرح ضخم، وفنادق حديثة البناء، وحمامات، ومدارس، لا يزيد عمرها عن مائتي أو ثلاثمائة عام. كانت المدينة مزدحمة للغاية وتعج بالنشاط.

قلت قبل النزول من السفينة مباشرة: "شكرًا، لقد أوصلتنا إلى هنا".

وكالعادة قام الريس حسن ببرم شاربه قليلًا وقال: "سنشتري نحن أيضًا بعض الحبوب".

وما السيئ في ذلك؟ كنت متأكدة بكل الأحوال من أنه لن يتعرض للأذى في أي مكان، فهو قادر بذكائه التجاري أن يحكم دولًا.

ضحكت وعدتُ إلى علياء... كنت أترقبُ هذه اللحظة بخوف منذ أن انطلقنا في طريقنا، وقد حان وقت الانفصال.

امتلأت عيناي بالدموع؛ كانت رفيقةَ دربٍ رائعة، كاتمةً للأسرار، مقربة وداعمة لي.

بعد أن تأكدتُ من انغماس ماثيو والريس حسن في الحديث قلت بإعجابٍ وفخر: "أنتِ أشجع امرأةٍ رأيتُها في حياتي".

نظرَت إليَّ بابتسامة كبيرة قائلة: "أنتِ من تقول هذا؟".

تبادلنا العناق بعد أن ابتسمنا بخجل، وهمسَت في أذني: "إذا حدثَ شيءٌ غير متوقع، يمكنكِ دائمًا الانضمام إلينا".

من المريح في احتمالٍ كهذا أن يكون لدي شخصٌ يطفئ نار قلبي، ويمنعني من التساقط كورقةِ شجر.

أومأت برأسي، وأجبتها قائلة: "لن أنساكِ أبدًا".

فقالت وهي تعدني: "أنا أيضًا لن أنساكِ".

وهكذا، غادرنا السفينة قاديس التي أمضينا فيها أيامنا، ثم ركبنا خيولنا وانطلقنا برفقة شاب اسمه حسين، أحضره الريس حسن ليرافقنا.

ونظرًا لأننا انطلقنا ظهرًا دون انتظار فترة المساء، كان الطقس حارًا وكانت المدينة مزدحمة، ولكن الجزء الأكثر إثارة كان تحدثهم باللغة التركية.

مررنا بسرعة بالحمامات الحجرية والمدارس الدينية والمساجد والقصور الخشبية التي تحيط بالمدينة، فقال حسين: "نحن ذاهبون إلى الطريق الرئيسي، إنه طريقٌ صعب لغير المعتادين عليه".

بعد تحذيره، أعددت نفسي، إلَّا أنَّ الأمر لم يكن صعبًا بالنسبة إليّ على الإطلاق، عدا عن أن الركوب على ظهر الخيل كان صعبًا بعض الشيء مع الانحناءات والطريق الصخري، ولكن ذلك لم يستمر لفترة طويلة قبل أن نتجه نحو طريق التجارة والذي دعاه الطريق الرئيسي.

قال كأنه يطمئننا: "هذا الطريق آمن".

ألم أكن أعرف طرق التجارة الآمنة في الأناضول، والخانات والحمامات حيث كانت القوافل تأتي وتذهب بسهولة إليها.

حاولت قضاء الوقت في التحدث مع حسين على طول الطريق، وأنا أتمهل من أجل تخفيف شوقي لعلياء وسفينتنا، وخوفي من ترك كل

ذلك والذهاب إلى المجهول. لكن حسين لم يكن كثير الكلام... علمت أنه يتيم في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، وأنه يقوم برعاية إخوته. أراد الذهاب إلى المدرسة، لكنه لم يكن ناجحًا للغاية، فوجد الحل من خلال كسب لقمة العيش كمرافق للقوافل أو كدليل للأجانب مثلنا. تحدث قليلًا عن السفن التجارية، والسكان غير المسلمين والحياة اليومية في المدينة.

بعد ساعتين، أصبح التقدُّم على ظهر الخيل أكثر صعوبة، ولأننا ننتمي إلى جيل نشأ في عصر الطائرات والسيارات، بدأنا أنا وماثيو نطلب من حسين التوقف للاستراحة بشكل متكرر، إذ عانينا من حروق شديدة في الساق ومشاكل التشنج.

قال أخيرًا بفارغ الصبر: "سيدتي، يبدو أنك لستِ معتادة على ركوب الخيل، ولكن ماذا عن سيدي؟ ألم يركب حصانًا من قبل؟".

لم يفهم ماثيو واكتفى بالعبوس، بينما تظاهرت بالتفكير في شيء ما لكسب الوقت وأجبت: "لم يسافر كثيرًا، فقد كان يذهب دائمًا إلى المدرسة".

في هذا العصر، كان من المتوقع أن يركب الرجال الخيولَ بسهولة، لأنه لم تكن لديهم فرصة للسفر بأي طريقة أخرى.

قال في نفسه: "كان من الأجدى إخباري أنه طالب يسافر سعيًا وراء العلم".

بعد أن مشينا قليلًا وفردنا أرجلنا، عدنا إلى ركوب الحصان. لم نكن هذه المرة نتشارك حصانًا واحدًا كما كان الحال في غرناطة، بل كنا

نتبع حسين على حصانين. ولحسن الحظ، كانت خيولنا مروَّضة، حيث أخبرَنا حسين أنها كبيرة في السن، ولذلك تُستخدم لتعليم الأطفال الصغار كيفية الركوب.

بين الحين والآخر، كنت أمد يدي وأتلمس حصاني، وأداعب بطنه، وأعتذر عن الوقوف على ظهره في نهاية كل استراحة.

على طول الطريق، رأينا عربات الخيول وحتى قوافل الجِمال التي تستخدم الطريق الرئيسي مثلنا، والتي يتم نقل الأحمال عليها تحت الأغطية.

رأينا جنودًا يقومون بدوريات بين الحين والآخر، فقام حسين بإلقاء التحية على عددٍ قليلٍ منهم. ولكن الطريق الذي كان يبدو مألوفًا وآمنًا حتى الآن أصبح مهجورًا بعض الشيء بعد غروب الشمس.

قال حسين: "انسحبَ الجميعُ إلى الخان، لأنه لا يمكن السفر في الليل".

بدأتُ أيضًا أتوتّر عندما تبدّلت الجبال والغابات وشجرة الزيتون والبحيرة بظلامٍ حالك. كنت جائعة، وجسمي يتمرد على رحلة غير معتادة، وكانت عيناي متعبتين من محاولة عدم مغادرة الطريق الرئيسي ومتابعة حسين في ضوء القمر.

وعدتُ نفسي وحصاني بأن أحظى بنوم رائع الليلة، وحفَّزتُ نفسي للوصول إلى المكان الذي كان حسين يقول عنه خلال الساعات الثلاث أو الأربع الماضية: "سنصل في غضون دقيقة".

عندما قال: "وصلنا إلى الخان"، ذهب كل توتّري. كان نُزُلًا صغيرًا متواضعًا، ولم تكن عيناي في حال تستطيع معها رؤية شيء، فتلقيتُ

دعمًا فعليًا من ذراع ماثيو وسحبت قدمي إلى غرفةٍ ما. لا أتذكر كيف استلقيت على السرير! استلقيتُ بملابسي وغرقتُ في النوم.

عندما حاولوا إيقاظي في الصباح، اعَترضتُ في البداية، فأخذ ماثيو ينقر على كتفي مردِّدًا اسمي بقوة أكبر في كل مرة.

كان رأسي ينبض عندما استيقظت أخيرًا، فقد أتعبتني الحرارة والرحلة والجوع طويل الأمد، وكانت معدتي أيضًا تعاني من غثيان شديد.

سألت ساخرةً: "كم ساعة نمنا؟ ساعتان؟".

بدا صوتي مثل صوت الضفدع، وعلى الرغم من أن ماثيو كان أكثر درايةً، إلا أنه بدا مذهولًا بالفعل بشكل واضح.

شربت بعض الحليب الذي أحضره حسين وأكلت الجبن والخبز، وقلت وأنا أمسك بطني: "أنا بحال سيئة حقًّا، أعتقد أن صداعي انتقل إلى معدتي".

قال ماثيو وهو يضع ظهر يده على جبهتي ليتأكد من الحمّى: "أخشى أن أصاب أيضًا بالمرض".

أذهلتني لمسة يده، والتقَت عيناي بعينيه، وبعد لحظة تحول نظري إلى أغراضي الموجودة على السرير، فاستلقيت على الفور مرتبكةً.

أذهلت حركتي المفاجئة ماثيو وسأل بخوف: "ماذا حدث؟".

لم أستطع الإجابة؛ كانت هناك أربعة أقراص مسكنة للألم في الجيب الصغير المزود بسحاب في حقيبتي. لقد جاءت معي...

قلت: "آه، معجزة الطب الحديث. مسكنات الآلام الخاصة بي".

باعتباري شخصًا لا يحب تعاطي الأدوية إلا في حالة الضرورة القصوى، يمكنني القيام باستثناء اليوم. رحلة اليوم ستكون أصعب من الأمس، ولن أستطع أن أقوم بهذه الرحلة مع الألم الذي أعانيه، سواء بسبب جسمي أو رأسي، وبعد ساعات نوم قليلة.

قلت بعد أن ابتلعت الدواء بقلق مع كوب من الماء: "أنتَ على حق، ليس علينا أن نمرض من أجل الوصول إلى هناك بسرعة، وهذه الرحلة ستكون أصعب مما توقعنا".

عندما جاء حسين وأخذ أغراضنا، رأيتُ أن الشمس قد أشرقت للتو، لكن الخان الصغير كان نشِطًا للغاية.

أوضح حسين: "تخرج القوافل مع شروق الشمس وتحتمي إلى مكانٍ ما عند غروبها".

حاولت أن أبتسم قائلة: "من فضلك دعنا نسترحْ الليلة".

هزّ رأسهُ قائلًا: "لا تقلقي سيدتي، سنكون قد وصلنا بحلول الليل".

وهكذا سافرنا لأكثر من اثنتي عشرة ساعة، متوقفين بين قرية وأخرى. حصلتُ على استراحةِ غداءٍ طويلة في مرج على جانب الطريق، حيث كنتُ أسير كثيرًا أو أجلس وساقاي ممدودتان، وأنا أشعر بالألم في ظهري وأقدامي.

أحببتُ حصاني المسكين، وكنتُ أطعمهُ العشبَ بيدي. أما ماثيو فكان أفضل مني، وعند كل مرة كنت أتوسل فيها للحصول على قسط من الراحة، كان ينظر إلى تعبير وجهي المثير للشفقة ويسخر مني هو وحسين. لم يكن ذلك يهمني، لأنني كنت أهدف إلى إتمام يومي بشكلٍ سليم.

عندما بدأ مسكن الآلام يفقد تأثيره في فترة ما بعد الظهر، وأصبح التعب أكثر وضوحًا، أخذتُ أحلم بماء ساخن وسرير ووجبة لذيذة.

نفد صبري عندما كانت الشمس تَغرُب...

حين وصلنا إلى مكان مثل القلعة، كنت على وشك أن أفقد وعيي فوق الحصان وأسقط على الأرض. وعندما ترجلت أخيرًا، لم تحملني ساقاي، فبدأتا ترتجفان لدرجة أنني كنت سأقع لو لم يمسكني ماثيو. استندت إليه لفترة، في انتظار عودة القوة إلى ساقيَّ، وكنتُ على وشَكِ البكاء.

عندما استعدُتُ حواسي وفتحت عينيَّ، رأيت حسين قد فتح باب المكان الذي يشبه قلعة عملاقة، فأدركتُ أين نحن؛ هذا واحدٌ من خانات القوافل.

منحَتنا أسوار البناء العالية شعورًا بالأمن والدفء. وبمجرد أن دخلنا، جاء رجلٌ وأخذَ خيولنا، بينما سرنا باتجاه الجزء الخلفي من الخان وخرجنا من القسم المغطى إلى الحديقة. في وسط هذه الحديقة، أو بالأحرى الفناء، كان هناك مسجد مربع الشكل من طابقين.

سرنا باتجاه الطرف الأيمن، حتى وصلنا إلى إحدى غرف الزوار القائمة حول الفناء.

قال وهو يدخلنا إلى غرفة كبيرة: "هذه غرفتك".

كانت الغرفة مؤثثة بسريرَين كبيرَين متقابلين ومريحَين، وطاولتين للقهوة ومدفأة، وكان فيها إبريق لغسل اليدين.

أضاف مشيرًا إلى البطانيات الصوفية الممدودة على السريرَين: "الجو بارد هنا في الليل".

كنتُ في الواقع أرتجف قليلًا تحت ملابسي الصيفية، إذ حافظت أجواء المكان الذي كنا فيه، والجدران الحجرية السميكة في الخان، على برودة الداخل.

سألتُ بفضول: "أين ستنام أنت؟".

أجاب مشيرًا إلى المكان الذي يقيم فيه فتية الإسطبل: "هناك، مكاني هناك، يا سيدتي".

كنتُ بالأمس فاقدةً للوعي لدرجة أنني لم أعرف من ينام وأين، وكيف يعمل الخان الذي بقينا فيه. أما اليوم فكنتُ أكثر حذرًا، كما نبهتني علياء سابقًا.

لم يعد بإمكاننا الآن وهُنا الادعاء بأن ماثيو كان تركيًا، كما هو الحال في الأندلس. ولهذا السبب قالت علياء إننا متزوجان؛ ماثيو طالب أندلسي وأنا زوجته التركية، وإننا ذاهبان إلى مدرسة السيد جاجا بعد الانتهاء من تعليمنا في الأندلس.

قال: "سأرسل لكم الطعام بعد قليل. هناك حمام صغير، أمامكِ جهة اليسار".

فوجئت جدًّا عندما أخبرني أنه بالإضافة إلى الحمام العام الخاص بالنساء، يوجد أيضًا حمام صغير، وأن هناك العديد من النساء في القوافل، على طرق التجارة، ما أثار دهشتي. بل إنه سألني ما إذا كان الرجال يتولون دائمًا زمام الأمور في القوافل من حيث أتيت، ونظرًا

لأنني لم أكن متأكدةً من الإجابة، فقد قمت بتغطية جهلي بإجابات مراوغة.

بعد أن غادر حسين، عمَّ صمت غريب الغرفة، بينما وضعتُ أشيائي ببطء على حافة السرير.

قال ماثيو: "من الأفضل أن أذهب إلى الحمام حتى يأتي حسين".

أومأت برأسي... وكنت سأذهب بدوري أيضًا بعد العشاء، وبالتالي لن تكون الغرفة فارغة أبدًا. ولم يكن سبب خشيتي هو حدوث شيء ما لثلاث أو خمس قطع من ممتلكاتنا في هذا المكان الشبيه بالقلعة، إلا أن الحقيبة التي أحضرتها من زمني كانت لا تزال معي، وقد أُضيفت إلى أشيائي الثمينة فيها مجموعة أمشاط ومرآة فضية من علياء. ومن ناحية أخرى، كان لدى ماثيو دفتر ملاحظات يونس، والخريطة الصغيرة التي أعطاه إياها الريس حسن، والتي حملها في حقيبته الجلدية مع بعض الملابس. أما ملابسي، أو بالأحرى ملابس علياء، فكانت موضوعة في حزمة.

والواقع أن الملابس على الطراز الأندلسي مماثلة لتلك الموجودة هنا، ولكن خلال الرحلة، كنت أفضِّل الفساتين القطنية البيضاء الأكثر راحة، لأنها على الأقل لم تكن تجعلني أتصبّبُ عرقًا، كما أن علياء زينتها بالورود التي صنعتها بحرفية رائعة.

مثلما فكرتُ تمامًا عندما كان ماثيو في الحمام؛ أحضر لنا حسين الطعام، وكاد لعابي يسيل وأنا أشاهده يحمل صينية مستديرة عليها حساء البقول الساخنة وطبق اللحم والأرز والحلاوة والفاكهة، ويضعها على طاولة أعلى قليلًا من الأرض.

سألته: "هل أكلت؟" ودعوته للجلوس إلى الطاولة. تفاجأ في البداية، ثم قال إنه أكل في الطابق السفلي.

بعد أن غادرَ الغرفة، لم أستطع مقاومة الروائح الجميلة، وغمرتُ نفسي بسعادة في الطعام، حتى شعرت أن قوتي بدأت تعود ببطء. كنتُ أكافح من أجل الحفاظ على جهازي المناعي المنخفض حتى أتمكن من اجتياز رحلة الغد.

قال ماثيو من حيث كان يتكئ على الباب: "لقد بدأتِ المأدبة مبكرًا". قمت على الفور بترتيب نفسي ومسحت يدي بوساطة القماش الذي كان بمثابة مناديل، وسألته بخجل: "منذ متى وأنت هناك؟".

كان من المحزن رؤيتي آكل مثل الوحش الجائع!

ضحكَ قائلًا: "ما يكفي أن أسخرُ منكِ لبقية حياتك".

رميت قطعة القماش التي مسحتُ يدي بها، لكني لم أستطع منع نفسي من الضحكِ أيضًا. وعندما جاء وجلس أمامي رأيتُ وجهه على ضوء الشموع؛ كانت آثار التعب قد تلاشت قليلًا، إلا أن هذه الرحلة أضعفته، فبدا خداه غائرين قليلًا وبدت عظام وجنتيه بارزة. وعلى الرغم من أن الهالات السوداء كانت أفتحُ قليلًا، لكنها ما زالت تؤطر عينيه الداكنتين الكبيرتين. ونظرًا لأنه حلقَ لحيته تمامًا كما هي العادة في عصرنا، فقد تمكنتُ من رؤية بشرته التي لم أرها منذ فترة طويلة، والتي كانت على متن السفينة محترقة تمامًا من الشمس، فلاحظتُ أن بشرته الداكنة بالفعل داكنة أكثر. أما شعره فكان لا يزال رطبًا، لذا لم يستعد بعد شكله المجعّد الضخم.

سألني وهو يأخذ قطعة من اللحم: "هل انتهيت من تدقيقك؟".

قمت على الفور بتثبيت نظري على طبقي قائلة: "كنت أتساءل عما إذا كانت هذه الرحلة تجعلك متعبًا بقدر ما أتعبتني"، ثم غيرتُ لهجتي على الفور وقلت بشكل هزلي، "لكنك لست في وضع يرثى له مثلي".

هزّ كتفيه بخفة قائلًا: "عندما كنتُ صغيرًا، كانَ جدي يأخذني لركوب الخيل، وواصلتُ ذلك حتى المدرسة الثانوية".

هذا ما يفسر سبب كونه أكثر صلابةً مني، ولكنه لا يزال مبتدئًا. اكتفيتُ بهزّ رأسي فقط دون أن أعرف ماذا أقول، فسادَ صمت غريب بيننا مرة أخرى. لم أكن أعرف سبب هذا الصمت، لكنه أصبح أكثر تواترًا مؤخرًا، وكان يحدث من وقتٍ لآخر أثناء محادثاتنا على سطح السفينة ليلًا عندما لا يستطيع النوم أيضًا. هل كان ذلك بسبب ثقل تجاربنا والأسرار التي تشاركناها يا ترى؟

تجاهلت تسارُع نَبضات قلبي، ونهضْت للذهاب إلى الحمام.

قال بسخرية وهو مستاءٌ في داخله: "عليكِ على الأقل الانتظار حتى أنتهي من الأكل".

لم ألتفت إليه حين كنتُ أقوم بفرز الأشياء التي ستلزم في الحمام من الحزمة، بل قلت: "من الأفضل أن أذهب في أقرب وقت ممكن".

ثم خرجت من الغرفة بعد أن أخذت أغراضي.

بقيت في الحمام لفترةٍ طويلة كما ظننت، حيث كان الماء الساخن مفيدًا جدًّا لعضلاتي، وكان قادرًا على إرخاء جسدي المتشنج بسبب الركوب على ظهر الخيل.

كان الحمام فارغًا في هذا الوقت المتأخر من الليل، لذلك كنت بعيدة عن أعين المتطفلين.

غسلتُ جسمي بالصابون، فشعرت بالراحة، وصرفت انتباهي عن صمتنا المحرج ونظراتنا أنا وماثيو، وركزتُ على غرناطة وصفيّة... هل تخطت مسألة موت يوسف يا تُرى؟

عندما خرجت، قمت بتمشيط شعري، بالمشط الذي أعطتني إياه علياء، في القسم البارد من الحمام، وحاولت تجفيفه بلفه بقطع القماش القطنية قدر المستطاع.

افتقدتُ مجفف شعري، فمن المؤكد أن شعري المبلل سيكون سببًا في تشنّج رقبتي وسط هذه البرودة، وبالطبع لن يكون ذلك مفيدًا لمقاومة جسدي الذي كنتُ أحاول حمايته.

عندما دخلت الغرفة، كانت الغرفة مظلمة بعد أن خفتَ ضوء الشموع. واختفت صينية الطعام، ولم يتبقَّ في مكانها سوى الفاكهة والماء.

أما ماثيو فكان متمددًا على سريره، وقد ظننت في البداية أنه يرتاح، ولكن بعد أن سمعت صوت أنفاسه الناعمة أدركت أنه يغط في نومٍ عميق.

وهكذا أطفأت كل الشموع باستثناء الشمعة المزدوجة الموضوعة بين السريرين، وذهبت إلى سريري على أطراف أصابعي، محاولةً عدم إصدار أي صوت.

كانت الغرفة باردة نوعًا ما، فقمت بفرد إحدى البطانيات فوق الملاءَة الرقيقة. وبمجرد أن استلقيتُ، تحولت أنظاري إلى ماثيو النائم مثل طفلٍ صغير على السرير المقابل.

كانَت الملاءة قد انزاحت حتى منتصف بطنه، وبهذا الشكل فإنَّه لا بدّ أن يمرض. قمتُ مرة أخرى لأغطيه وأنا أحاول ألَّا أُحدث أيَّ ضجيج، فوضعتُ فوقه البطانية التي كانت مطوية عند قدميه وصنعت منها غطاءً مزدوجًا. ثم توقفتُ للحظة ونظرتُ إليه؛ كان يبدو أثناء نومه وكأنهُ ملاكٌ هادئ.

عبست حين تذكرتُ تعليقاتهُ الساخرة، وابتساماته الساخرة، والطريقة التي جعلني أتعرق فيها عندما طرح أسئلته في الندوة... لم يكن من السهل التعامل معه وهو مستيقظ!

عندما استلقيت على سريري، سلَّمتُ نفسي لذراعيّ الراحة. كانت معدتي ممتلئة، ولديَّ سقف دافئ فوق رأسي، ووصلتُ اليوم إلى حيث أردت بأمان. أغمضتُ عينيّ بعد أن شكرت الله بصمت على كل هذه النعم وعلى بقائي على قيد الحياة.

عندما كنت على وشك النوم سمعت ماثيو يهمس: "مانوليا".

بدا الأمر وكأنه حلم يأتي من بعيد، فلم أستطع معرفة ما إذا كان يناديني حقًّا أم أنني كنت أحلم.

ولكن حين قال: "أريد أن أتحدث معك، هل أنت مستيقظة؟"، أدركتُ أنه كان واقعًا وليس حلمًا.

لم أتحرك، ولم أفتح عينيَّ أيضًا؛ كنت متعبة بشكلٍ لا يُصدق، وأُفضِّل أن أنام ولو دقيقة زيادة... لم تكن لديَّ القدرة ولا الشجاعة للتحدث معه.

الفصل الثامن عشر

صيف عام 1368م

كان اليوم التالي متعبًا أكثر من اليوم السابق، ولكن السفر على ظهر الحصان كان في الواقع بمثابة العلاج حرفيًا، خاصة أن الطُّرق كانت مستقيمة وذات مناظر خلابة، فأحسستُ بشعور جميل بعد الأحداث الغريبة والمليئة بالتساؤلات التي مررنا بها.

ولكن ذلك الشعور بدأ يُستَهلك شيئًا فشيئًا، وبدأ جسمي يتمرد، لأن الجلوس على ظهر الحصان لساعات بات يؤلم قدميَّ وظهري. كما أن شمس الصيف، التي تعرضت لها طوال اليوم، ضربتني بشدة أيضًا.

لم أصر على أخذ قسط من الراحة كما كنت أفعل من قبل، حتى ينتهي الطريق في أسرع وقت ممكن، لكنَّني كنتُ أتطلع إلى كل استراحة بفارغ الصبر، وأنا أتعرّق من الحر، وأشعر بالبرد مع الرياح الباردة العرضية على ظهر الحصان.

أما ماثيو فبدا أفضل مني قليلًا، ربما لأن اعتياده على ركوب الخيل عندما كان طفلًا أعطاه بعض الراحة، فأصبح منفتحًا على الأمر ومعتادًا عليه في يومنا الثالث. ومن جانبي، كانت عائلتي قد اصطحبتني أيضًا لركوب الخيل عندما كنت صغيرةً، لكن ذلك اقتصر على بضع مرات،

بينما كان من الواضح أن ركوب ماثيو للخيل استمر لسنوات عديدة.

قُرب المَساء، بدأت أشعرُ ببرودةٍ أكبر مع شدة الريح، فازدادت الآلام، وصار جسدي أكثر خمولًا.

خلال استراحة بعد الظهر، لم أستطع تناول الأطعمة الخفيفة والمقرمشات بمقدار ما تناولت على الغداء، إذ كنت أتطلع إلى الوصول إلى الخان في أقرب وقت ممكن.

سألني ماثيو وهو ينظر إليَّ بقلق: "هل أنتِ بخير؟ تبدين شاحبةً بعض الشيء".

عبست قائلةً: "لا يا عزيزي، ليس بهذا القدر. أنا فقط متعبة قليلًا".

ثم قلتُ مشيرةً إلى حسين: "هل يمكنني أن أسأل كم تبقّى؟".

كنت أنسى بعض الأحيان أنه لا يعرف لغتنا، وعندما سألته أجاب كالعادة: "بعد استراحة"، ما يعني فترة زمنية غير معروفة؛ قد يستغرق الأمر من ساعتين أو ثلاث ساعات إلى أربع أو خمس أو حتى ست ساعات.

ردَ ماثيو بتنهيدة غاضبة قليلًا: "لا تعجبني الحال التي أنتِ عليها".

قلتُ مرة أخرى محاولةً طمأنته: "أنا بخير".

لكن بعد حوالى ساعتين، شعرتُ بالإرهاق الشديد، وبدأت عيناي تنغلقان. كان كل ما أردته هو أن أذهب تحت الغطاء لأنام... لم أستطع أن أفهم كيف أصبحت فجأة هكذا؟

قفزت بخفّة عندما أوقف ماثيو الخيول فجأة، وسألتُه بقلق: "ماذا حدث؟".

بدا صوته أكثر قلقًا وصرامة مما سمعته من قبل وهو يقول: "لا يمكنكِ الاستمرار على هذا النحو بعد الآن؛ أخشى أن تفقدي وعيك".

قلت: "لن يَحدث لي شيء"، لكن صوتي خرج ضعيفًا لدرجة أنه لم يبدُ مقنعًا حتى بالنسبة إليّ.

لم أكن شخصًا هشًّا يمرضُ كل دقيقة، بل كنتُ شخصًا في غاية الصلابة والقوة... ربما تأثرتُ قليلًا بتغير الطقس، هذا كل شيء.

اقترب بحصانه ووضع يده على جبهتي وقال: "لديك حمى!".

دون أن أعرف ما يجري، أمسك بي من خصري وأجلسني أمامه على حصانه، وألقى بمقاليد حصاني إلى حسين الذي كان ينظر بعينين قلقتَين.

لم يكونا بحاجة إلى معرفة لغة بعضهما البعض في تلك اللحظة، إذ فهم حسين قلق ماثيو، فهزّ رأسهُ قليلًا وأسرع بحصانه.

استرخت العضلات المتشنجة في ظهري قليلًا، لأنه لم يعد عليَّ الانتباه الشديد من أجل توجيه حصاني. كان ماثيو يقطع الريح ويلف جسدي البارد بقطعة قماش تتدلى من ذراعيَّ. مع تأرجح الحصان بخفة، غرق جسمي في أذرع النوم المريحة، وبعد ذلك فقدت إحساسي بالوقت.

بين الحين والآخر، كنتُ أرتجف وأشعر ببرودة شديدة، وعندما أفتحُ عينيَّ، أرى النجوم وشعر ماثيو المجعد، فأحاول إثبات أنني بخير من خلال تركيز النظر عليه. ولكن عينيَّ بدأتا تنغلقان، حتى غرقتُ في النوم مرة أخرى.

ثم سمعت صراخًا، وتوقف الحصان، وشعرتُ بأحدهم يحملني. تبع ذلك أصوات أبواب تفتح بسرعة، وأحاديث حماسية، بعضها باللغة العربية. هل كان ماثيو هو الذي يصرخ؟

لا أدري! كان كل شيء ضبابيًا جدًّا.

ابتسمت بسعادة وشكرته عندما لامس ظهري السرير الناعم، أو ربما ظننت أنني فعلت ذلك. استيقظت مرة عندما زادت قطعة القماش الرطبة الموجودة على جبهتي من ارتجافي.

همست قائلة: "ماثيو".

أجاب على الفور وهو بجواري: "أنا هنا".

رأيته من زاوية عيني، فبدا أضعف وأكثر شحوبًا، وقد اسودّت عيناه السوداون أكثر، وجعل ضوء الشموع الباهت بشرته داكنة أكثر.

سألته بقلق: "ماذا حدث لك؟ لقد اسودت بشرتك!".

ثم حاولت إلقاء نظرة خاطفة داخل الغرفة؛ كانت نفس الغرفة التي أقمنا فيها الليلة الماضية.

سألته من جديد بارتباك" "هل عدنا إلى الأمس؟".

وضع ماثيو قطعة قماش جديدة على جبهتي، ثم وضع يده على رأسي وقال: "حرارتكِ مرتفعة جدًّا، ذهبَ حسين ليجلبَ طبيبًا".

كان يحاول تهدئتي بنبرة صوته، لكن الخوف على وجهه كان يقول العكس تمامًا.

قلتُ مبتسمة: "لا تقلق، لن أموت؛ أريد فقط الحصول على قسط من النوم. هل يمكنك إشعال الموقد؟ الجو باردٌ جدًّا في الداخل".

كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي أتذكرها، فقد نمتُ بالفعل مرة أخرى عندما كان يقول شيئًا عن مدى خطورة حتى نزلة البرد البسيطة في هذا العصر.

شعرتُ بغضب شديد حين أجبرني شخصٌ ما على الاستيقاظ، ففتحت فمي لأعبِّر عن غضبي، ولكن الأستاذ ألتاي كان أمامي، وهو يعطيني كوب ماء ساخن كريه الرائحة.

هززت رأسي وغطيت فمي بإحكام، وقلت من خلال شفتي المشدودة: "أستاذ، أنا لن أشرب هذا الشيء".

لماذا كان شديد الإصرار؟ تمتمتُ قائلة: "هل هذه من الأعشاب الغريبة التي في حديقة صفيّة؟".

صدر صوتُ ضحكة مكتومة من الغرفة، فصرختُ قائلةً لماثيو: "ألا يسمعني الأستاذ ألتاي؟ لا أستطيع أن أشرب!".

دفنت رأسي في الوسادة؛ وأدرتُ وجهي إلى الطرف الآخر. كانت هناك محادثات بعيدة، لكنني لم أستطع سماع ما يتحدثون عنه.

عندما فتحت عينيّ مرة أخرى، بقطعة القماش المبللة على جبهتي، رأيت ما حولي بشكلٍ غير واضح لأول مرة. لكنها اتضحت في ثوان. كان ماثيو جالسًا على السرير المقابل، غافيًا ورأسه على الحائط. لماذا بدا شديد التعب؟

سألتُ بقلق: "هل قمنا برحلة جديدة عبر الزمن؟".

فتح عينيه على الفور، وركع بجانبي، وبأسرع من دقة قلب وضع يده على جبهتي. ثم قال بنبرة صوته القلقة التي لم تتغير: "ما زلتِ تعانين من الحمى".

بدأتُ أشعرُ بالغرابة، فأنا لم أره من قبل بوجه جاد إلا لبضع ساعات. كان ماثيو المرح والساخر والمشاغب مألوفًا أكثر، وكان الوجود قربه مريحًا أكثر، لذا كان مظهره الحالي يجعلني متوتّرة حقًّا.

قال لي: "لو أنك تناولت كل الأدوية لكنتِ أفضل حالًا".

فقلت بأمل: "إن مسكن الآلام موجود في حقيبتي، وهو أيضًا خافض للحرارة".

اختفى على الفور، وعاود الظهور بعد دقيقة وبيده الدواء وكوب ماء، وهو يتمتم لنفسه: "ليتني فكرتُ في الأمر من قبل".

حين أعدت رأسي للخلف مرة أخرى بعد تناول دوائي، وضعَ قطعة قماش جديدة على جبهتي دون أن يغادر مكانه بجانبي، وكنت متعبة جدًّا لدرجة لا تسمح لي بالاعتراض.

كيف يمكنني أن أنام مرة أخرى بعد دقائق معدودة؟!

عندما فتحت عيني في المرة التالية، كان يغفو من جديد في سريره، ومظهره مثل بدو الصحراء، لدرجة أنني لم أتعرف عليه للوهلة الأولى. رأيت الهالات السوداء حول عينيه، تحت أشعة شمس الصباح التي كانت تتسرب من النافذة.

فتحَ عينيه كما لو أنني طعنته، فقلت بحزن: "أرجوك استمر في النوم".

اقترب مني مرة أخرى وعاين حرارتي، فبان الارتياح على وجهه، وقال: "انخفضت حرارتك... كيف تشعرين الآن؟".

استجمعت نفسي، وأنا أشعر بأن الآلام في جسدي قد اختفَت، لكنني علمتُ أنَّ ذلك كان بسبب الدواء، وأن الآلام ستظهر من جديد في

أول فرصة. وبالمقابل لم أكن في حالة يمكنني معها رفع ذراعي، كما لم تكن معدتي في حالة جيدة أيضًا.

ضحكَ عندما قلت: "أشعر أنني عُدت إلى الوراء ألفًا وخمسمائة عام وأصابني تغير الطقس".

حين رأيته يضحك أخيرًا، بدا الأمرُ كما لو أن عقدة قد انحلت بداخلي، فنسيت حتى أنها كانت موجودة، وابتسمت بارتياح.

قال بغضب: "لقد أخفتِنا كثيرًا".

واريتُ نظراتي قائلة: "أنا حزينة".

فأضاف: "ارتفعت درجة الحرارة لديك لدرجة أنكِ بدأتِ تعانين من الهلوسة، وعندما ناديتِ للطبيب المسكين باسم الأستاذ ألتاي، ارتبك الرجل ولم يدرِ ما الذي يجب القيام به وأنتِ تهلوسين". ثم نهض عن الأرض وعاد إلى سريره قائلًا: "للحظة، شعرتُ بالرعب من أنكِ ستقولين شيئًا ما"، وتوقف لبرهة قبل أن يتابع: "ولكن لا شيء من ذلك يهم".

بدأ ذلك الصمت المحرج بيننا مرة أخرى. لم أعلم ما يجب عليَّ أن أقول، فسألته من أجل تغيير الموضوع وكسر ذلك الصمت: "أين نحن؟".

أجاب وهو يختبئ تحت الغطاء: "يسمون هذا المكان خان سعد الدين".

همستُ: "خان سعد الدين".

كنا في واحد من أروع الخانات في الأناضول، والذي بناه الوزير السلجوقي سعد الدين كوبك، بالقرب من قونية. ربما لهذا السبب جاء الطبيب بهذه السرعة، لأنه حتى خلال هذه الفترة المضطربة في الأناضول، كانت القوافل وطرق التجارة والعلوم والصحة لا تزال تعمل بسلاسة بفضل الانسجام الصامت بين الإمارات.

بدأت الحركة في الخان، فقال بعد أن وضع رأسه على الوسادة: "إنه الصباح... لقد أبلغ حسين صاحب الخان أننا سنبقى هنا اليوم أيضًا، لذا يمكنكِ أن ترتاحي".

رفعت رأسي عن وسادتي للاحتجاج على عدم متابعة المضي في طريقنا، لكن جسمي اعترض بالفعل من خلال الخفقان الذي أصابني، وبالتالي لم تكن هناك حاجة إلى نصيحة ماثيو الذي غطَّ بالفعل في نومٍ عميق. كان من الواضح أنه لم ينم طوال الليل، لذا استدرت نحو الحائط في محاولة لعدم إصدار صوت، وغفيتُ بدوري في نوم عميق مرة أخرى.

لم يكن لدي أي فكرة عن عدد الساعات التي مرَّت عندما استيقظتُ على أصواتِ طقطقة في الغرفة. نهضتُ قليلًا، بينما أخذ ماثيو صينية الطعام التي أحضرها حسين إلى جوار الباب، ووضعها على الطاولة الخشبية في منتصف الغرفة، بين السريرين.

عندما نهض، رأيتُ وجهه أفضل مما كان عليه في الصباح. كان مرتاحًا، وقد قص شعره، فبدا شديد الترتيب وقريبًا من مظهره المعتاد.

سألني وهو يتجه نحوي: "كيف حالك الآن؟".

خجلتُ قليلًا وأجبته: "أنا أفضل بكثير".

أشار إلى الطاولة قائلًا: "أنتِ بحاجة لتناول شيء ما الآن".

تغيرَت تعابير وجهي، فقد كانت معدتي مستاءة تمامًا لأنني لم أتناول الطعام منذ فترة طويلة، وتناولت الكثير من الأعشاب الطبية والأدوية الحديثة.

قالَ بلُطف بينما كنت أستعد للاحتجاج: "ستحتاجين إلى حشد قوتك قبل أن نتمكن من المضي قدمًا في اليوم الثالث".

تذكرتُ هدفنا في تلك اللحظة؛ كان محقًّا، لذا أجبرت نفسي على النهوض من السرير ببطء. كانت ساقاي، اللتان اعتادتا على الراحة لفترة طويلة، تؤلمانني قليلًا، حتى كدت أنهار بجانب الطاولة.

قال لي: "الخالة الطباخة سيدة مرحة، وقد حَاولت إخباري بشيء لكنني لم أفهم بالطبع"، ثم أشار إلى وعاء نحاسي يخرج البخار منه وأضاف: "كانت تصر على أن أشرب هذا الحساء منذ الليلة الماضية".

كان الحساء عبارة عن مرق يحتوي على برغل وحمص وقطع لحم وأعشاب مختلفة لم أستطع شمها والتعرف إليها.

ابتسمتُ وشكرتُه ثم قلت بعد أن تناولتُ ملعقة من الحساء: "هل جعلت الجميع يستنفرون؟".

أجاب قائلًا: "لم أكن بحاجة إلى فعل أي شيء"، ثم عبس وأضاف: "عندما أتيت كنتِ مُشتعلة وترجفين، وفاقدةً للوعي، فلم تسمعينا، وقد شعر حسين بالخوف الشديد".

انتابني إحساس بالخجل، وقلت دون أن أرفع عيني عن الطبق: "لا أعرف كيف انجرفت فجأة إلى هذا الحد. أعتقد أن آخر مرة مررت فيها بمثل هذا الوضع كانت في المدرسة الإعدادية".

كنت أشعر بالمزيد من التحسن كلما أكلت أكثر، فأخذت قطعة من الخبز الساخن.

واصل الحديث: "أحضرَ صاحبُ الفُندق طبيبًا من القَرية مع حسين، بينما ذهبت زوجته إلى المطبخ وصنعت لكِ هذا الحساء ليلًا".

وبعد أن وضع ملعقة كبيرة من اللبن في فمه أضاف: "لحسن الحظ، كان الطبيب يعرف اللغة العربية ما أتاح لنا أن نتفاهم. وقد تصادف وجود تاجر يقيم في الخان يعمل في تجارة الكركم من الهند إلى القسطنطينية، وعندما رآكِ من خلال الباب، أحضرَ لكِ قطعة منه. قال الطبيب إنه كان ذا فائدة كبيرة في تخفيض الحمى".

قلتُ: "لا بدّ أنها باهظة الثمن!"، فأنا أعرف قيمة البضائع المنقولة على طريق الحرير، وخاصةً التوابل التي جاءت من تلك المسافات البعيدة.

أجابني وعلائم الدهشة ما زالت واضحةً عليه: "لم يقبلوا أن يأخذوا أي نقود".

كان الناس في هذا العصر يواصلون إدهاشنا بمساعدتهم وتضحياتهم وكرم ضيافتهم وثقتهم بعضهم ببعض.

أضاف متفاجئًا: "كانت إقامتنا في الخان مجانية أيضًا لمدة يومين، وهم يفعلون ذلك لدعم التجارة. ولكن إذا كنتِ تريدين المساهمة

كتبرع، يُمكنكِ ذلك بالطبع. لذا سأترك بعض المال بالتأكيد عندما أذهب".

أومأت برأسي على الفور دعمًا لقراره؛ كان علينا تقديم المساعدة المالية، وتقديم الشكر للجميع مرارًا وتكرارًا. كنا في قرن مختلف، لكن هؤلاء الناس جعلونا نشعر بالأمان كما لو كنا في منزلنا، حتى أنني لم أرغب بمغادرة الخان.

بعد تناول وجبة الطعام ابتلعتُ حبة أخرى من الدواء وعدتُ إلى النوم. وعندما استيقظت في فترة ما بعد الظهر، قابلت الطاهية زوجة صاحب الخان، التي ذكرتني بجدتي، والتي أحضرَت لي بدافع الفضول طبقًا آخر من الحساء وأجبرتني على شربه. علاوة على ذلك، كانت لهجتها التركية أقرب إلى حديثي، لذلكَ تمكنتُ من التواصل معها بشكلٍ أفضل من تواصلي مع حسين.

أخذتني هذه الخالة العجوز، التي علمتُ أنَّ اسمها عائشة، إلى الحمام وحممتني بيديها باستخدام الصابون، لاعتقادها أن المرض لن يخرج من جسمي إلا بهذه الطريقة، وعندما عدنا إلى الغرفة قامت بتغيير شراشفي أيضًا.

سألتُ نفسي: ماذا سيفعلون إذا شاهدوا في حقيبتي دوائي الذي جاء معي بالصدفة؟ لقد قالت العمة عائشة بالفعل إنها فوجئت كيف انخفضت الحمى بسرعة، بعد أن اعتقدوا لعدة أيام أنها لن تنخفض، مما جعل ماثيو قلقًا للغاية، إذ كان يعلم أنه في ظروف هذا العصر، تكون المعاناة من المرض شديدة وطويلة.

جعلني الاستحمام أشعر بتحسن، وازداد تحسني كثيرًا الآن بعد أن تناولت العشاء، وقد ارتديتُ طبقات من الملابس حتى لا أصاب بنزلة برد بين الجدران الحجرية السميكة في أُمسيات الصيف الباردة وسط الأناضول. وعلى الرغم من استمرار بعض التعب، إلَّا أنَّ الحمى لم تعد.

كان الحساء جيدًا، فتناولت طبقًا آخر، كما أكلت بعض الفاكهة لإعطائي المزيد من الطاقة، وكان اللبن رائعًا، لم أتذوق مثله في حياتي. وقد أشعرني كل ذلك بأنني أصبحتُ أقرب خطوة من المنزل.

جعلني ماثيو أشرب دواء آخر حتى لا أُصاب بالحمّى في الليل، وأعطتني العمة عائشة، التي جاءت لتأخذ صينية الطعام، الخلطة العشبية التي أسمتها "دواء"، فشربتُها أيضًا، ثم ذهبت إلى الفراش باكرًا.

استيقظتُ صباح اليوم التالي، عندما بدأ النشاط في الخان مع صلاة الفجر، وأنا أشعر أنني أكثر راحة. كان اليوم هو اليوم الكبير، والذي سننطلق فيه مرة أخرى.

نهض ماثيو أيضًا وقمنا بحزم أغراضنا، ثم بحثتُ عن صاحب الخان والعمة عائشة وسط صخب القوافل التي بدأت لتوها في الانطلاق، فشكرتهما على كل شيء وقبلت أيديهما.

عندما أحضر حسين الخيول، تفحَّصَني قليلًا، وبعدما تأكد أنني بخير، تمنى لي التوفيق وسلَّم ماثيو مقاليد الحصان.

أمسك ماثيو زمام الأمور وقال: "لقد أرهقتك الرحلة، سأجعل الأمر أسهل قليلًا"، وفجأة ارتفعت قدماي عن الأرض، حيث حملني لأجلس على سرج حصانه.

سألتُ بقلق: "أين حصاني؟".

بدلًا من الإجابة على سؤالي قال: "يمكنك الحصول على قسطٍ كبير من الراحة على طول الطريق".

لم أعترض عندما خطا حسين أمامنا وبدأ ماثيو في ملاحقته. من الواضح أنه كانت هناك شراكة هادئة بينهما، ولن يؤدي الإحتجاج إلا إلى استنزاف طاقتي.

قررت الاستمتاع بالرحلة الهادئة، بإسناد رأسي ومراقبة المنظر.

مكتبة الطفل

t.me/book4kid

إحدى قنوات

مكتبة

الفصل التاسع عشر

صيف 1368م

عندما وصلنا إلى مدينة كره شهير (المدينة الرمادية) والمعروفة حاليًا بمدينة غول شهير (مدينة الزهور)، كان الوقت بعد الظهيرة.

المكان هنا أكبر من قرية بقليل، حيث تحيط بيوت من حجر وأزقة ضيقة بجامع علاء الدين. وبين الفينة والأخرى تظهر أمامنا أبنية ذات أشكال أسطوانية وفوقها قبعات مخروطية، ونصادف أناسًا ذوي وجوه طيبة.

كان مبنى المدرسة والمرصد الذي أنشأه "جاجا بيك" يحتل موقعًا مهمًا في المدينة، وكان له باب كبير ملون على شكل تاجٍ، يلفت النظر، وفوق هذا الباب توجد كرات تمثل الشمس والقمر والكواكب كما يُعتقد. أما في الخلف فهناك برج مراقبة طويل على شكل منارة، وللوهلة الأولى يبدو هذا المخروط الذي فوقه أسطوانة عاديًا، ولكن عندما تمعن النظر تجد رسومات تشبه صواريخ أُطلقت من الأرض إلى الفضاء. وبالطبع فإن هذه مجرد تكهنات على ضوء ما وصلنا اليه من التطور، ولكن المهندس المعماري الذي صممها هو وحده مَن يعلم حقيقتها. والحقيقة أن ذهن الإنسان لا يستطيع أن يتوقف عن إسقاط

تصوراته السابقة على الأشياء التي يعجز عن تفسيرها. وبالمقابل، فربما تكون هذه الأشكال التي نفذها المعماري ليست سوى نتاج نظريات لها علاقة بمرصد "جاجا بيك"، مثل أن يكونوا قد شاهدوا فضائيين!

بدأن أشعر بالتحسن لأنني أمضيت الطريق إما نائمةً أو مستلقيةً، وتمنيت اليوم بالتحديد لو أني أستطيع الذهاب إلى المنزل لأكون أكثر سعادة.

حين ودعتُ حسينًا كنت متوترةً وقليلة الصبر، وفي تلك الأثناء وصلنا إلى نهاية الطريق.

إما أن ينتهي هنا كل شيء وإما أن يبدأ من جديد!

فتحنا الباب ودخلنا، وكان أول ما لفت انتباهي هو الإضاءة الموجودة في الداخل، حيث توجد فتحة كبيرة في سقف الفسحة، عند المكان الذي يُفترض أن توجد فيه قبة؛ كانت فتحة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ولم يكن فيها زجاج.

همس ماثيو قائلًا: "أوكلوس"، وهي كلمة تعني "العين" باللغة اللاتينية، وكانت عنصرًا معماريًّا مشهورًا في روما. حيث كان الضوء يدخل إلى المعابد في روما من مكان واحد، ولكن اللون يختلف باختلاف الرخام الذي يسقط عليه الضوء، فكأن هذه الفتحة التي يدخل منها هي ساعة تتحرك مع تغير الوقت.

إلا أن الأمر كان مختلفًا هنا، فالعين كانت أوسع، إضافة إلى وجود حوض من الرخام في الوسط، وهو حوض كان يوجد مثله أيضًا في العديد من مدارس الأناضول، ويُستخدم لمشاهدة انعكاس السماء على

الماء. ومن الأمثلة على ذلك مدرسة "ياغباسان"؛ أقدم مدرسة معروفة في الأناضول، والتي فيها عين ضخمة.

كان تحيط بالمركز مساحات على شكل مستطيل، تُشكِّل غرفًا صغيرة تحتوي على حلقات من الطلاب.

حاولت جاهدةً، أثناء بحثي عن أكثر المعلمين خبرة هنا، ألا أسبب إزعاجًا للآخرين، لذا كنت أمشي على رؤوس أصابعي.

نظرت حولي، ولكن لم تكن لدي في الواقع أدنى فكرة عمن أبحث أو عن ماذا أبحث، سوى صورة في مخيلتي تشبه الطبيب موسى والأستاذ زيد قليلًا؛ أستاذ ذو لحية بيضاء يبدو عليه العلم.

همست أسأل طفلًا في العاشرة من عمره مرّ من أمامي: "أين أستاذكم؟"، فأشار بيده إلى الغرفة أقصى اليسار.

كانت يداي تتعرقان أثناء المشي مع ماثيو، وكان شعوري بالتوتر والراحة في آنٍ واحد يبقيني متماسكةً.

فور دخولي أصابني الذهول مما رأيت؛ لم يكن الأستاذ كما توقعت، ولم يكن يبدو عليه أنه تجاوز الأربعين من عمره، لكن عمامته الكبيرة جعلته يتميز عن الآخرين في المدرسة. كان يجلس متربعًا، وأمامه طاولة للكتابة يخط على أوراق فوقها.

أول رد فعل بدر مني كان تقطيبةً من حاجبيَّ؛ هل يستطيع هذا الأستاذ الشاب أن يساعدنا؟

رفع رأسه حين رآنا وسلَّم علينا، فردينا السلام وجلسنا في المكان الذي أشار اليه. اجتزنا التعريف عن أنفسنا لعدم معرفتنا بكيفية

ذلك، وسألته مباشرة: "ألا يوجد عالِم في هذه المدرسة"، محاولةً أن أكون لطيفة قدر الإمكان، مع الأخذ بالاعتبار أنه لم يكن لدي وقت لأضيعه.

"انتقل أستاذنا إلى رحمة الله قبل أسبوعين. أنا طالبه مراد".

بعد أن قدمنا التعازي، قلت له بخيبة أمل: "يوجد موضوع نريد الاستشارة فيه".

على الرغم من كون مراد صاحب أعلى نفوذ وأكثر علم هنا، إلا أني كنت أشك في قدرته على معرفة ما سنسأل عنه.

التمعَت عيناه بلونٍ أزرق رمادي كحبات الثلج، وقال بفضول: "تفضّلوا، يسرني مساعدتكم".

قلت له وأنا أحني رأسي إلى الأمام قليلًا: "أستاذي، لقد قطعنا مسافة طويلة، لذا أرجو ألا تسيؤوا فهمي، ولكن لا أظن أننا سنجد إجابتنا هنا... دعونا لا نأخذ المزيد من وقتكم".

ثم هممتُ بالقيام فنظر اليَّ نظرة جعلتني أتسمَّر في مكاني، وأطال النظر، حتى ظننتُ أنه يرى نقي عظامي.

قال بصوت عميق: "أنا أنظرُ إلى قلبك".

كانت إجابته توحي وكأنه سمع ما يدور في ذهني، ما جعل الشَّعر في مؤخرة رأسي يقف.

"هل سألتِ ما يختلج في صدرك قبل أن تصدري حكمك عليَّ؟".

اجتماع هذه النظرات العميقة مع هذا الصوت المهيب خلق عندي خليطًا من المشاعر بين رغبة في الهرب راكضةً من هنا ورغبة في البقاء.

"من الواضح أنكم أتيتم من مكان بعيد... أنتِ تتحدثين لغتنا ولكن بشكل مختلف".

اكتفيت بهزّ رأسي لخوفي من الإجابة، في حين سأل بنظراته الثاقبة عن ماثيو: "من أين هو؟".

كنت في حيرة من أمري؛ هل أشرح حكايتنا الآن؟ ولكنني اكتفيت بالقول: "من الأندلس"، وأعتقد أنني لم أُخطئ في تقديري.

بدأ الأستاذ حينها يتحدث باللغة العربية وتعرَّف على ماثيو من جديد، وإثر سؤاله عن الطريق وعن كيفية مجيئنا خف الاحتقان في الجو.

"أرسلَنا الطبيبُ موسى. والواقع أننا أتينا من الإسكندرية، بتوجيه من الأستاذ زيد".

خلل أصابعه في ذقنه التي كانت طويلة بعض الشيء، والتي لم يشبْها البياض بعد، وقال بعد تفكير: "جزى الله علماءنا خيرًا، ولكن ما الذي أعلمه أنا ولا يعلمونه؟".

تنحنحت وبدأت بالقول "أنتم"...

كان يثبت نظراته الباردة على وجهي، فأحسست أنني متجمدة في يوم صيفي حار. لمَ كنت خائفة إلى هذه الدرجة؟ لمَ خجلتُ من الكلام معه هكذا؟ لا أعلم... ولكن كان فيه شيء غريب؛ كأن عمره مائة وأربعون وليس أربعين، كأنه اطلع على أسرار الكون ويعلم ما سنقول قبل أن نقول. أنا أؤمن بوجود طاقة عند البشر، وهذه الطاقة تُظهر نفسها دائمًا عندما يدخل المرء إلى وسطٍ ما.

بدا الأستاذ مراد معقّدًا للغاية، فهو عالم وشاب وطالب ومعلم في نفس الوقت... كان من الواضح أنه مليء بالأضداد. ألهذا السبب أصبح أستاذًا في هذا المرصد الوحيد بمنطقة الأناضول على الرغم من كونه شابًا؟

أعدت قولي "أنتم... يُعتقد أنكم تستطيعون المساعدة من خلال أحد ابتكاراتكم".

انتظر لسماع المزيد، فتبادلت نظرات قصيرة مع ماثيو اتفقنا من خلالها. وسرعان ما أخرج ماثيو الإسطرلاب من حقيبته الجلدية، وقال: "لقد سافرنا باستخدامه بشكل من الأشكال".

أخذ الأستاذ ينظر إلينا مرَّةً وإلى الإسطرلاب مرَّةً، ثم أخذه وقلَّبه في يده قبل أن يضعه أمام ماثيو من جديد قائلًا: "لقد تم صنع الإسطرلاب للاستدلال به على الطريق".

رأيتُ أثناء ذلك العواصف التي مرت لثوانٍ قليلة في عينيه، قبل أن تعود إلى شكلها الأصلي.

انحنيتُ قليلًا إلى الأمام وهمست: "من زمن آخر".

بدأت حينها كل الجُدُر التي كانت بيننا تزول، ولم يكن متفاجئًا بل ظهرَت عليه حماسة لا يمكن إخفاؤها. وبعد أن نظر إلى الباب خلفنا لمعرفة إن كان هناك أحدٌ قادم، قال بصوتٍ منخفض: "وجدوا هذا في الأندلس إذًا؟".

لخص ماثيو قصتنا بإيجاز، ولم يقل إننا جئنا عن طريق يوسف في المقام الأول. وقد تفهمتُ خياره، لأنها كانت معلومات يمكن أن تلحق

الضرر سياسيًا بالدكتور موسى وعائلته. ولكن حين أراد الأستاذ مراد أن يعرف كل شيء بالتفاصيل، اضطر إلى التحدث عن يوسف وعن اختراع الإسطرلاب.

عندما سمع بوفاة يوسف تغير وجهه فجأة، وقال متأثرًا كأنما يحدث نفسه: "لا يمكن لأحد أن يتدخل في عمل الله، ولا يمكن تغيير القدر".

ركزتُ على نقطة محددة؛ وهي أنه ربما يمكنه إعطاء فكرة عن عودتنا من خلال التفاصيل في قصتنا. وعلى الرغم من أنني توقعت منه أن يعيدنا اليوم إلى عصرنا، إلا أن الأمر كان سيستغرق وقتًا طويلًا "للتفكير". فقد جئت إلى هنا على أمل أن يكونوا قد اخترعوا آلة الزمن.

قال وهو يختار كلماته بعناية: "لقد أنجزنا بعض الأمور، هذا صحيح. ولكن هناك دائمًا شيء مفقود، ومازلنا نحاول".

بعد ذلك ألقى كلمة طويلة عن علم الفلك والكون والأبعاد، وكان متعمقًا لدرجة أن أيًا من لغتي العربية أو لغتي التركية لم تكن كافية لفهم ما يقول.

ما إن قلت له: "أستاذي!" حتى عاد يرمقني بتلك النظرات المخيفة مرة أخرى لأنني قاطعتهُ، فاستدركتُ: "أعتذر، فأنا لا أفهم أي شيء. هل يمكنك إعادتنا إلى عصرنا؟".

قفزت مذعورة حين ألقى فجأة عبر الغرفة بالقلم الذي كان قد أخذه من على الطاولة. لم أتوقع شيئًا كهذا أبدًا، حتى أن صرخة صغيرة خرجت من فمي.

فقال بانفعال: "هل يمكن لهذا القلم أن يعود إلى ما كان عليه قبل قليل؟ لا يمكن أن يكون بعد الآن كما كان قبل ثانية".

ابتلعت ريقي، ولبثتُ صامتةً.

نظر إلي وإلى ماثيو بعينيه اللامعتين وأضاف: "ما لا تفهمانه هو أن هذه الرحلة من المستحيل القيام بها. إنها مستحيلة فيزيائيًا".

كنت خائفةً من السؤال لكني لم أستطع منع نفسي: "إذًا، نحن لسنا هنا حقًّا؟".

استند بهدوء بعد أن أخذ نفسًا عميقًا وقال: "يا ولديّ، هل تعرفان قصة الجوهري؟".

ثم بدأ يشرح دون انتظار ردنا: "حالما دخل الجوهري نهر النيل، رأى نفسه أنه في بغداد، وأن لديه زوجة وأطفالًا، عاش معهم لمدة ست سنوات"، وأكمل بعد سعال خفيف: "ولكن عندما استيقظ، كانت قد مرت لحظة واحدة فقط على وجوده في النهر".

وأضاف بعد نظرة استفهامية من ماثيو: "بعد ذلك، رأى في شوارع مصر المرأة التي كانت زوجته وتعرف إليها".

تملكَتني دهشة شديدة.

"هذا ما يُطلق عليه اسم *طي الزمان*".

التفتَ إلى طاولة الكتابة ونظر إلى الأوراق قائلًا: "هناك أشياء نعمل عليها... سوف يكتمل القمر الليلة، ونحن نحاول تشغيل الإسطرلاب وفقًا لمواقع النجوم".

ثم رفع رأسه ونظر إلى أعيننا وقال: "إذا وصلتما إلى هنا، يمكنكما العودة بإذن الله". عاد إلى الأوراق، وحين لم يرَ رد فعل منا على كل

هذا، استمر في الحديث: "هناك بعض النواقص؛ النجوم التي لا يمكننا تحديد مكانها، والمسافات التي لا يمكننا قياسها... تلك أمور يلزم العمل مئات السنين للحصول عليها".

عظيم. كيف سنصنعها الليلة إذًا؟

نهضت قليلًا ونظرت نحو الطاولة؛ كانت الأوراق مقسَّمة إلى مربعات صغيرة، مليئة بمخططات الكواكب، والكثير من الملاحظات المدونة على الجوانب، والأسوأ من ذلك كله، علامات استفهام مكتوبة بقلم أحمر.

لفتَت انتباهي ورقة سميكة مطوية تحت الأوراق... بدا الشكل الذي عليها مألوفًا، إذ كان النظام المتشابك مثل تروس العجلة، مرتبطًا بشكل مثير للاهتمام بمخططات الكواكب.

عندما مددت يدي بشكل لا إرادي، تصرف المعلم قبلي وأخفى الورقة تحت الأخريات، فخفت وسحبت يدي على الفور متمتمةً: "آسفة، لقد بدت وكأنها مجرد شكل رأيته من قبل".

توقف لدى سماعه كلامي، وسأل بصوت قلق: "أين رأيتها؟".

وضعت يدي على جبهتي وقلت بخيبة أمل: "أنا... لا أذكر".

في تلك اللحظة، جاء صبي يحمل بيده صينية صغيرة، عليها طعام العشاء. كم يمر الوقت سريعًا! فبينما كنا نخبره عن مشاكلنا، ويخبرنا عن ملاحظاته، حلَّ المساء.

بناء على طلب المعلم، أحضر لنا الولد الطعام... رحبتُ بعشاءٍ متواضع من حساء القمح واللبن والتمر، إذ كانت معدتي فارغة، وكانت

آثار المرض الذي أصبت به وتعب اليوم قد بدآ بالتناقص تدريجيًا.

انغمستُ في تناول طبق الحساء دون خجل من الأستاذ، بينما كانا يتحدثان، وأخذتُ أحدّق إلى حبات القمح الطافية، الحبات التي تشبه شيئًا ما.

صرخت: "وجدتها!"، وألقيت بالملعقة التي أصدرت صوتًا مرتفعًا، فاستدارا نحوي جفلَين.

تناولت حقيبتي على الفور؛ كان فيه ثلاث قطع من جلود الحيوان مطوية بجانب جواز سفري. فتحتها بحرص، فهي أمانات من الأستاذ ألتاي وضعتُها في هذا المكان الآمن لأهميتها، وحافظت عليها كما أحافظ على عينيَّ، ولكنني نسيت أنها كانت هناك طوال الطريق، حتى الآن.

قلتُ بفضول: "هل ستساعدنا هذه؟".

كان المعلم قد ترك ملعقته بالفعل وبدأ بقراءة الأشكال والتعبيرات المرسومة على الجلد، ثم تساءل: "ما هذه اللغة؟".

أوضح ماثيو قائلًا: "إنها اللغة الإسبانية، أستطيع مساعدتك".

وعندما بدأ في الترجمة، تغير وجه المعلم. كان يتابع الأرقام من ناحية، وكان من ناحية أخرى يدون الملاحظات بسرعة على الأوراق.

قال بحماس: "إنها معجزة! ها هي إجابات أسئلتنا".

يا إلهي. كدت أعتقد أن الأستاذ ألتاي كان يعمل مع هؤلاء المعلمين قبل مئات السنين. ولكن كانت هناك مشكلة!

قلت وأنا أعلم أنني أقوّض فرحته: "النص من القرن الرابع عشر".

لا يطرح العلماء أسئلة عن المستقبل، ولا يريدون معرفة أي شيء، لأن رؤية شيء من المستقبل والاحتفاظ به مخالفٌ لكل مبادئهم.

قال بنبرة غامضة: "ألم تفهما بعد؟! لا يوجد شيء يسمى السفر عبر الزمن، حتى ولو بعد مليون سنة، لن يتم اختراع السفر المادي لأزمان".

تردد قليلًا ثم تابع بعد أن تأكد من استيعابنا للمسألة: "لذا فالسفر عبر الزمن مجرد وهم... وما يقوم به المسافرون الروحانيون عبر الزمن من هذه الرحلات هو من أجل الإدراك المعنوي، أي أنه يمكن اعتبار هذه الرحلة بمثابة حلم".

شرع في العمل فورًا على المعلومات الموجودة أمامه، وظلَّ يعمل مع ماثيو لساعات، لدرجة أنه أصبح من الصعب جدًّا متابعتهما. خشيت للحظة أن يستغرق ذلك أيامًا أو شهورًا أو حتى سنوات، ولكن هذا لم يكن ممكنًا مع الأستاذ مراد، فقد راقبته أثناء عمله؛ فهم كل شيء بسرعة، وطابقه بمعلوماته السابقة، وسرعان ما قام برسم الأرقام على الأوراق، وتدوين الملاحظات، حتى دون النظر إليها معظم الوقت.

عندها أدركت تناقضاته، وطاقته الغريبة، واللمعان الغريب والمتزايد في عينيه... كان الأستاذ مراد شخصًا عبقريًا!

وضع القلم جانبًا، ووقف على أقدامه برشاقة، وبعد التأكد من عدم وجود أحد في المدرسة، ذهب إلى البركة الرخامية تحت الفتحة الضخمة.

ثم قال وهو يأخذ الإسطرلاب: "انظرا، نفس النظام موجود هنا أيضًا... هناك سبب لوجود هذه الأحواض هنا".

كانت مياه البركة مظلمة مثل ظلام الليل بحيث بدت النجوم وكأنها سقطت في الماء.

أضاف وهو منشغل بالإسطرلاب قليلًا: "فكرا في روحانية الصوفيين وحركاتهم"، ثم رفع يده وصنع دوائر في الهواء عدة مرات وقال: "تغادر أرواحهم أجسادهم، أي أغلفتها، من خلال الدوران حول أنفسهم في نسق معين".

أومأتُ برأسي متحمسةً بينما تابع قائلًا: "هذه الآلية تجعله يعمل، ولكن فقط عندما تكون النجوم في الموضع الصحيح؛ الكواكب، دائرة الأبراج، وحتى الثقوب السوداء... كل شيء يجب أن يكون في لحظة مثالية".

سأل ماثيو: "ما هي اللحظة المثالية؟".

كان هناك في نظرة المعلم حماسُ عبقريٍّ فخور باختراعه، فأجاب: "الآن! اللحظة المثالية هي دائمًا الآن".

هززت رأسي وسألتُ بإثارة ممزوجة بالخوف: "ألا يمكن أن تأتي معنا أيضًا؟".

ابتسم قائلًا: "غير ممكن، فأنا أنتمي إلى هذا الزمان"، ثم أشار إلينا وقال: "أما أنتما فلستما كذلك".

بعد إجراء بعض التعديلات على الإسطرلاب، نظر إلى خريطة النجوم المتساقطة على البركة، وقام بتفحص أوراقه. وبينما كان يغمس يده في الماء، قال: "كدت أنسى"، ثم أخرج من جيبه أوراق الأستاذ ألتاي المكتوبة على الجلد، وأضاف: "هذه ليست لي".

أومأت برأسي ووضعتها بامتنان في حقيبتي الصغيرة.

أضاف وهو يُدخل الإسطرلاب في الماء: "تذكروا يا ولديّ، الماضي لا يعود، لكنه قد يتمثل أمامكما على شكل نسخة منه".

هذه هي تعاليم ابن عربي.

عندما نزل الإسطرلاب في مكانه، تردد صدى نفس الصوت الميكانيكي في نافورة السباع، ثم ملأت الضوضاء الميكانيكية آذاننا، مثل صوت سلاسل المسنّنات.

وقال وهو يرفع يده من الماء "لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال التذكر". *أيها الصوفيون لا تنسوا الجوهري.*

بدأت تلك الموسيقى مرة أخرى؛ لحن إيقاعي مشابه لقصر الحمراء، تنانير الصوفية البيضاء.. فغمرني شعور بالطمأنينة.

كان صوت الأستاذ يأتي من بعيد، من بعيد جدًّا: "الرحلة الروحية ممكنة، رحلة الروح".

أمسكت بيد ماثيو كما لو كانت الحقيقة الوحيدة الموجودة، فجثينا على رُكَبِنا معًا. اختلطت الأصوات والصور معًا؛ ما جعلني من الأشياء المرئية: أعضائي، صوتي، أنفاسي... وما جعلني من الأشياء غير المرئية: مشاعري، أفكاري، أحلامي، كل ما في داخل قلبي، ولكنه بالفعل غير موجود...

كل ذلك تفرق إلى أجزاء، ثم عاد والتحم من جديد.

الفصل العشرون

يوم الجمعة 27 تموز/ يوليو من عام 2018م

كان كل شيءٍ أسود حين فتحت عينيَّ، فخفتُ في البداية إذ ظننت أنني عمياء. ولكن بعد ذلك، عندما اعتِدتُ على الضوء، أدركت أنه كان خداعًا بصريًا.

الرخام، المنحوتات، صوت الماء، الأُسود.

همستُ وأنا أنظر إلى القمر الأحمر الضخم في السماء: "لقد فعلناها"، ثم أغمضت عينيَّ وقلت من كلِّ قلبي: "الحمد لله".

نهضتُ ببطء، بينما فتح ماثيو عينيه أيضًا وهو جالسٌ عند العمود المقابل ونظر إليّ بِحيرةٍ. بدا الأمر كما لو أنَّه لم يمضِ على وجودنا هنا سوى ثانية، وكأن كل شيء حدث بنبضة قلب، أو في غمضة عين. كان إرهاق الأسابيع ما زال في أذهاننا، أما أجسادنا فلم تكن على علم به.

لمحتُ حقيبتي الكبيرة لا تزال بجانب النافورة حيث تركتها، فتحركتُ لأصل إليها، ولكن سوادًا على الأرض لفت انتباهي.

هتفتُ خائفة: "ماثيو".

شعرتُ بالخوف والارتباك والدُّوار، فتشبثتُ بذراعه، وأشرت إلى السواد على الأرض.

ذُهل مثلي في البداية، وكان واضحًا من تعبير وجهه أنه لا يزال محتارًا، ثم قال وهو يتقدمني بخطوات قليلة: "لا تقتربي كثيرًا".

في غضون ثوانٍ، أدركتُ ماهيته عندما اقتربنا منه معًا بحذر.

صرختُ: "يوسف!"، وسقطتُ على ركبتيَّ عند رأسِ الجسدِ الصغير بجانب النافورة.

تابعتُ الصراخ: "يوسف، استيقظ!"، لكني كنت أخشى أن ألمسه.

بدأ ماثيو على الفور يفحصُ وجهه المتهدل على الجانب الآخر، فرأى الفرق الذي رأيته؛ كان وجهه مختلفًا، ولم يكن كما تذكرناه. إذ كانت شفتاه ورموشه وشعرهُ أكثر شحوبًا وبلا حياة، وكان خداه السمينان أضعف. والأهم من ذلك كله أنه كان ساكنًا بلا حركة، ولم يكن يتنفس؛ كان مثل المومياء، ولا تظهر عليه أي علامات للحياة، تمامًا مثلما وجدناه لأول مرة في تلك الغرفة الرخامية.

بدأت الدموع تتدفق من عينيّ مثل الشلّال، فأسندت ظهري إلى النافورة وبكيت، وأنا أفكر في كل هذه التجارب وما رأيته وما ربحته وخسرته، من قبل ومن بعد.

في المرة التالية التي أوصلني فيها ماثيو إلى فندقي، استمتعتُ بالماء الدافئ والسرير الناعم الذي كنت أتوق إليه منذ أسابيع. حتى ذلك الحين، كان كل ما مررنا به قبل هذه الليلة بمثابة حلم..

عندما استلقيت في سريري على ظهري، خطر يوسف الصغير أمام عينيَّ، حيث كان ماثيو يرفعه بلطف وعناية ويعيده إلى حجرة الدفن، بينما كنتُ أُشعل ضوء هاتفي ذي المظهر الغريب لكي ينير الطريق

أمامنا. تركناه على الحجر الرخامي في حجرة الدفن وصلينا، ثم وقفنا هناك لفترة من الزمن، نفكر بصمت في مئات السنين التي مرت، وبالإمكانيات والمستحيلات.

بدا يوسف وكأنه بلا حياة أكثر مما كان عليه حين رأيناه لأول مرة... وبعد أن تأكدنا من أنه لن يستيقظ، تركناه هناك ونحن مرتاحا البال. ثم صعدنا إلى الطابق العلوي، دون أن نضيع في المتاهة، بالاستفادة من النظام الذي ما زلنا نحفظه في أذهاننا.

عندما خلد القصر إلى الهدوء كان يوم السبت الثامن عشر من تموز قد حلَّ، وأفسحَ لونُ السماء الأسود الطريقَ أمام اللون الأزرق الفاتح، ولكن غرناطة الحالية لم تستيقظ في وقت مبكر كما كانت غرناطة القديمة.

وصلنا إلى فندقي عبر الشوارع الهادئة، وبدا الأمر كما لو أنني أرى كل شيء لأول مرة؛ وكذلك الروائح والأصوات... كانت الأحجار فقط هي نفسها، بل إنها تعرفت إلينا!

كنتُ متعبةً جدًّا، بل منهكةً، وكان حاله مثل حالي، فلم نفتح فمنا. شعرنا كأننا استيقظنا من حلمٍ مُتعبٍ للغاية، ولم نستفق إلا بعد أن ذهبنا إلى المطبخ وشربنا كأسًا من الماء.

عندما استلقيت على سريري، كنت أخشى لبعض الوقت أن أغلق عينيَّ اللتين تتصاعد منهما الحرارة؛ ماذا سيحدث لو أنني أفتحهما في منزل صفيّة؟ أو على سرير هزّاز في مقصورة الريس حسن الصغيرة؟ أو بين جدران سميكة في الخان؟ ماذا لو كان ما رأيته حقيقيًا وأنا في حلم الآن؟

أخبرني الأستاذ زيد أن حياتنا الحالية كالحلم. ما هي الحقيقة إذًا؟ من أين أتت ذكرياتي إن لم أكن هناك لأسابيع عام 1368م؟ كان مقاسي وملابسي والتاريخ والوقت على هاتفي هي نفسها. ما هو الوقت الآن وكيف مرّ؟ لم تكن معي هدية الريس حسن وعلياء والتي وضعتها في حقيبتي. فأين كنت؟ ما هي روحي التي جعلتني ما أنا عليه، وأين كانت؟ ما هو الذي عشته؟

عندما تفاقم دوار رأسي، لم أستطع مقاومة جسدي، فنسيتُ كل شيء ونمت، وأنا أتمنى أن أغرق في النوم إلى درجة لا أحلم فيها. وبالفعل، كان نومًا عميقًا لدرجة أنه غطّى على الواقع والأحلام، وكأنما وجدتُ من خلاله القطع الناقصة.

عندما استيقظت في اليوم التالي مع دفء شمس الظهيرة، كان ذهني صافيًا مثما استيقظت صباح أمس، ومثلما استيقظت في الخان وفي غرفتي بالفندق.

رأيت رسالة مائيو، والتي أخبرني فيها أنه ينتظرني في المنزل مع جده. نهضتُ واستحممت مرة أخرى، ثم شربت القهوة بسرعة. في الواقع، كنت قد شربتُها بالأمس، ولكن يبدو أن قرونًا مرت منذ آخر مرة شممتُ فيها هذه الرائحة.

ابتسمتُ لدى إحساسي بالتواصل مع المنزل... آه، كم يتملكني الشوق!

استقرَّ كلُّ شيءٍ ببطء... وعندما خرجتُ إلى الشارع بفرح، شاهدتُ الحجارة وأنا أسير إلى تلال البيزين. نعم، لم أشاهد الناس،

ولا المباني، بل الحجارة التي كانت موجودة منذ آلاف السنين، فهمست لها باحترام، ولمستها بيدي، وشعرت بالروح والسلام في كل منها. وجهت لها التحية على تحملها بكرامة ما رأته وعاشته وصمتت عنه في داخلها.

الناس...

كانوا مختلفين؛ لم يكونوا يركضون بعضهم حول بعض، ولم يكونوا يرون ما ينظرون إليه. كانوا أناسًا ذوي عيون باهتة، يرون الشكل الخارجي لا الروح، ويلتقطون صورًا للحجارة بلا روح. ربما لم يكن جوهر المدن هو الذي تغيّر، بل جوهر الناس.

عندما وصلتُ إلى المنزل وطرقتُ الباب، شعرت بإثارة غريبة بداخلي. فتح ماثيو الباب الكبير، وكأنما توقفت عجلة الزمن، فوقفنا للتو في ذلك الفناء بجوار حوضِ الزينة الصغير حيث كان يوسف يلعب بالأمس، وتبادلنا النظرات.

أصوات المارة الإسبان المبتهجين، أصوات مجموعات السياح الفضوليين، رائحة الزهور والفواكه الآتية من الحدائق، ما نرتديه، كيف نبدو، الساعة، التقويم... كل شيء توقف. لم يكن هناك سوانا نحن الاثنين؛ إنها لحظتنا، إنها اللحظة التي اجتمعت فيها عينانا. روحانا اللتان تشاركناهما أكثر بكثير من مجرد ندوة لمدة يومين... ذكاؤنا ومشاعرنا ومصيرنا هي التي جعلتنا نتشارك بهذا.

قال صوت لم أدرك أنني أفتقده حتى سمعته عبر الفناء: "مانوليا".

قلت وأنا ألتفتُ نحو ذلك الاتجاه: "جدي!"، ثم ركضت بسرعة وعانقت رقبة الرجل العجوز. لقد افتقدته مثل جدي، وكنت سعيدةً برؤيته، كما غمرني شعور "المنزل" الرائع.

دعاني للدخول؛ وفي ذلك الصالون المألوف، على تلك الطاولة الخشبية الجميلة، كانت وجبة طعام لذيذة تنتظرني، ومع أنه لم يكن هناك الكثير، سوى بعض الأطعمة خفيفة، إلا أنها كانت مألوفة إلى حد ما.

جلست إلى الطاولة لأول مرة منذ فترة طويلة، فأكلت البطاطس التي فاتتني بسرورٍ كبير وشربت القهوة.

لم تجرِ بيني وبين ماثيو ولا حتى محادثة قصيرة، وكأنّ شيئًا لم يحدث. تمنيت لو أن شيئًا لم يحدث فعلًا، ولكنه لم يكن كذلك.

كان ماثيو قد وصف ما رأيناه، وكان من الواضح أن الجد لم يصدقه؛ ربما اعتقد أن حفيده ضرب رأسه بشيءٍ ما أو أمرًا من هذا القبيل، لذا استمع إلى كل شيء مني.

بينما كنا نأكل، أخذنا نشرح ما مررنا به، كما لو كان شيئًا طبيعيًا جدًّا، فكان الجد يُدهش أكثر في كل مرة، وكانت ردود أفعاله تجعل ماثيو يضحك. والواقع أن قدرتنا على الضحك كانت شيئًا جميلًا، ولولا ذلك كنت سأفقد عقلي المُكَدَّر.

أحضر الجد الشوكولا التي صنعها بنفسه، وفجأة أصبح العالم مكانًا أفضل، فقلت وأنا غير مصدقة: "لا يعقل! هل تصنع الشوكولا؟".

كانت هناك بعض الأوقات التي اشتهيتها فيها على متن السفينة، ولكن كيف تصف الشوكولا لأشخاص لم يتناولوها من قبل؟

ابتسم بفخر قائلًا: "بالطبع، لقد تعلمتُها من والدي".

التفتَت عيناي نحوَ ماثيو... هل كان هذا أيضًا تقليدًا عائليًا؟

قال وهو يمد إحدى القطع المستطيلة والسميكة أكثر من المعتاد والتي بدأت لتوها في الذوبان: "هذه بالفراولة، لقد صنعتها الأسبوع الماضي".

حتى لو لم أعد إلى زمني، فإنني عدت بالتأكيد إلى تلك اللحظة. وبينما ذاب مزيج الفراولة اللذيذة والشوكولا في فمي، ملأت رائحة الفراولة الحادة أنفي، الأمر الذي ما ذكّرني لسببٍ ما بحديقة صفيّة.

أخبرني أن الفراولة مفيدة لآلام العظام، وأظن أن المرض الذي لم يستطع تسميته هو الروماتيزم.

قال لي ماثيو: "لقد أصبحتِ هادئة".

التفتُّ إليهِ عندما شعرتُ بالقلق الذي في عينيه تجاهي، وكانت فرحة الجد بتقديم الشوكولا قد ولّت أيضًا.

قلتُ بتوتّر: "أعتقد أننا لن نكون قادرين على الاستمرار في حياتنا بهذه السهولة".

فجأة، ذكّرتني الغرفة التي كنا فيها بالأمسيات التي أمضيتها مع صفيّة في منزل زوجها، والفناء الذي مررت عبره والليلة الأولى التي جئت فيها.

هزّ رأسهُ قائلًا: "هناك أيضًا أشياء يتعيّن علينا التعامل معها".

ثم أخرج الإسطرلاب ووضعه على المنضدة، فحدقنا إلى هذا المعدن الثقيل الضخم بصمت لفترة من الوقت.

قلت بصوتٍ خافت: "أخبرَنا الأستاذ موسى بعض الأمور".

كانت علياء قد أعطتنا الإسطرلاب عندما صعدنا إلى السفينة، ولكن قبل مغادرة المدرسة، أخبرنا الأستاذ موسى مدى خطورة الإسطرلاب إذا وقع في الأيدي الخطأ.

قال ماثيو بتمعن: "لم نتمكن من تغيير مسار الزمن، وبقينا عناصر غير فعالة".

لم يذكر اسم يوسف تحديدًا، حتى لا ينزعج الجد، إذ كان من الواضح مدى تأثره بما حدث، خاصةً وأنَّ لديه علاقةً خاصةً مع يوسف.

تدخلتُ على الفور قائلةً: "ولكن بطريقةٍ ما، لدينا الآن أفكار وذكريات ومعلومات أخرى في أذهاننا".

عدتُ إلى الإسطرلاب وقلت: "يجب علينا أن نخبئه، إنه خطير للغاية".

قررنا العودة إلى الكهف، ولأن الوقت كان وقت الظهيرة لم تستغرق رحلتنا مدةً طويلةً. كان الجو حارًا بشكل لا يُصدق، ولكن معرفتنا بالطريق جعلت وصولنا أسرع. كنا نُرطب أنفسنا برش وجوهنا بالماء البارد الذي نحمله معنا من حين لآخر. أما عند دخولنا الكهف المألوف ببحيراته الأربع الصغيرة فقد منحَنا الهواء الرطب بالإضافة إلى الهواء البارد القادم من الخارج راحةً في النفس.

حين وقفنا داخل الكهف، وأخرجنا الإسطرلاب، قال ماثيو: "ولكن! هذا الصندوق ليس مثل الصندوق الذي حصلنا عليه".

اختفت نعومة الرخام الأبيض الأملس حين أداره للخلف وأظهر الطرف المنقوش؛ كانت هناك فجوتان صغيرتان في المكان المحدد حيث استقر غطاء الصندوق في مكانه.

قال الجد بقلق: "يجب أن نضع الإسطرلاب في الصندوق ونخفيه".

نعم، إن كنا سنضعه حيث أخذناه، فيجبُ وضعه في الصندوق، لأن تلك الحفرة مخصصة لذلك. لم أكن أعتقد أن يوسف سيفتح عينيه مرة أخرى، ولكن كان يجب علينا إنهاء المهمة التي بدأناها بإعادة كل شيء كما كان.

"أين سنجد اللوح الرخامي؟".

بحثت عن ثقوب صغيرة، وعندما أدرت النتوء الذي يشبه الأزرار ثلاث عشرة مرة، انفتحت الفتحتان بطريقة لن تعودا معها إلى وضعهما السابق مهما فعلنا بالزر.

تجمّد الجد، وقال لنفسه شيئًا باللغة الإسبانية. ثم مد يده إلى جيبه وأخرج من جيب محفظته قطعتين من الرخام، أصغر من قطعة نقود معدنية، ملفوفتَين في قطعة مخمل يوجد في طرفها شكل صغير يشبه النجمة، أدركتُ فيما بعد أنَّه شكل تمثال يدوي محفور فوق الأبواب في جميع أنحاء الحمراء كتعويذة لحماية المكان.

أمسك الجد الصندوق بتركيزٍ تام، ووضع القطعتَين داخل الإسطرلاب وأغلق الغطاء، ثم وضع الألواح الرخامية الصغيرة في

مكانها، فأصبحَت كاملة. وهكذا تم إغلاق الصندوق على ألا يتم فتحه مرة أخرى.

سألتُ وأنا غير مصدقة: "ماذا تفعل هذه الأشياء معك؟".

رد ماثيو لأن الجد لا يزال مصدومًا: "أعطاه إياها جده أيضًا".

التفتنا إلى الجد، ثم سأله ماثيو بعد دقيقتين من الانتظار بصبر: "هل ستقدم لنا شرحًا؟".

قال لنفسه: "أنا لم أفكر قط أنه ممكن... لكن هذا يعني أنه صحيح!".

ثم التفت إلينا وقد بدا لي فجأة متعبًا جدًّا وقال وهو ينظر إلى الصندوق: "أيها الولدان، هذه القصة طويلة جدًّا. اتركوه مكانه ودعونا نذهب إلى المنزل".

بعد ذلك مشى باتجاه الخارج وجلس عند مدخل الكهف، فتبادلتُ النظرات مع ماثيو؛ كنا قلقين بشأنه ولم نستطع فهم ما حدث.

حفر بسرعة في الماء، ووضع الصندوق في البركة. وكنتُ مستعدةً هذه المرة، فناولته المنشفة بينما كان يحزم أمتعته ثم ذهبت إلى الجد الذي كان ينظرُ بعيدًا... كانت رؤية رجل كثير الكلام وحيوي مثله أمرًا أثار التساؤلات في داخلي.

ظلَّ صامتًا وهو في طريقه إلى المنزل، بينما نظرنا أنا وماثيو إليه نظرات استفهام، محاولين جعله يتحدث من حين لآخر، لكنه كان يمشي بأسرع ما يمكن، ويريد العودة إلى المنزل في أقرب وقت. وبالفعل، وصلنا إلى هناك بوقت أقصر، حيث كان الطريق منحدرًا.

عندما انتهى كل شيء، لم تكن الشمس قد غابت بعد.

شَرب الماء البارد من المطبخ، ثم شرب عصير البرتقال بعده، وعندما تأكد من أنه عادَ إلى رشدهِ، أعدَّ القهوة. في حين كنا جالسَين إلى الطاولة ننتظره بصمت، ونحن نتساءل أكثر وأكثر عما سيقوله بعد ذلك.

بعد أن جلس أخيرًا إلى الطاولة مع فنجانه، بدا أكبر بكثير من عمره. ربما لأن الطريق كان متعِبًا، وربما بسبب ما عَلِمه... الآن سنكتشف ماذا حدث.

قال الجد: "كان جدي يقول إن أصلنا يعود إلى المسلمين الأندلسيين، وإن عائلتنا كانت تعيش في القصر".

لم يكد ماثيو يأخذ رشفةً حتى ابتلع القهوة المغلية بسرعة وكشَّر قائلًا: "هل لهذا السبب لدينا تقاليد عائلية مثل تعلم اللغة العربية وركوب الخيل؟".

هزّ الجد رأسهُ: "لم أصدقه، فالمسلمون الأندلسيون إما هربوا من اضطهاد الكاثوليك أو تم إعدامهم".

آه، يا لها من معاناة... محاكم الرهبانية المسيحية، ومحاولة المسلمين الباقين الصلاة في الخفاء... ولكن بعد سقوط آخر معقل لغرناطة عام 1492م، لم يبقَ هناك أمل.

"لم أصدق ذلك؛ كانوا قادرين على مواصلة حياتهم في الخفاء، بطريقة ما..."، أكملت في داخلي الكلمات التي لم يستطع أن يكملها: بتغيير الهوية، والدين، واللقب.

"تبرع جدي بمعظم مكتبتنا للمتحف، وكانت قديمة جدًّا... كما كانت تلك الألواح الرخامية الصغيرة المنقوشة قديمة جدًّا، فطلب مني الاعتناء بها بنفسي. وكان يقول دائمًا إنه أتى بها من المدرسة، لكنني لم أصدق ذلك".

في تلك اللحظة، رأيت الجد من جديد؛ عالِم، حكيم، متمرس، مُوجِّه، صبور، كريم... ذكرني بشخص ما!

قلت وأنا غير مصدقة: "الأستاذ موسى... جدك هو الأستاذ موسى".

نفس الأنف، نفس الحركات، نفس الكلام.

انضم إليَّ ماثيو بحماس وأضاف: "يجب أن يكون الأستاذ موسى قد أعطى هذه الألواح الرخامية الصغيرة المنقوشة لابنته، ومنها انتقلت من جيل إلى جيل حتى وصلت إليكم".

ابتسمت قائلةً: "أنتم إذن لم تغادروا الأندلس أبدًا، لقد احتفظتم بهذا السر، سواء بالمدينة أو بالسلالة"، ثم ضحكتُ وتابعتُ: "وأما صفيّة وعلية فقد أنجبتا الأطفال، آمل ذلك لكلتيهما!".

على الرغم من أن جزءًا مني افتقدهم، إلا أنني كنت أشعر بسلام الآن أكثر مما كنت عليه في أي وقت مضى.

نظر الجد إلى حفيده وقال وكأنه يلفظ اسمه للمرة الأولى: "ماثيو... هبة الله، هذا هو معنى اسمك".

ربما كان لها معنى خاص عند عائلاتهم.

فكرت فيهم وأنا متكئة على ظهري وأرتشف قهوتي. أُسرهم، سبب وجودهم، الرحلة التي قطعناها، حِفظِنا ليوسف والإسطرلاب.

كانَ من المحزن أنني سأرحل غدًا. أتمنى أن أتمكن من البقاء أكثر، فأنا أرغب أن أتعلم أكثر وأمضي المزيد من الوقت هنا.

نَظرتُ إلى الجد؛ المعرفة والخبرة والدفء. شَعرتُ بالراحة والأمان وكأنني أعرفهم منذ فترة طويلة، تمامًا مثل أخويَّ صفيّة وعلي. كنت سأتركُ جزءًا من عائلتي هنا.

وماثيو... لم أكن مستعدة لتركه، بعد أن عشنا ومررنا بالكثير. ومع ذلك، فقد مرت ثلاثةُ أيامٍ منذُ أن جعلني أتصبب عرقًا نتيجة أسئلة الموت تلك في الأماكن العامة وأنا أجلس على الكرسي في وسط حشدِ الناس، حيث كنا للتو نناقش حيوية التاريخ ووجوده ومقدار ما يمكننا نقله. الآن كُنتُ أَبحثُ وأُفكر، لقد أصبحنا بالفعل نحنُ التاريخ.

الفصل الحادي والعشرون

يوم الأحد 29 تموز/ يوليو من عام 2018م

لم يكن ينتظرني بلهفة.

تفاجأ في البداية، ثم وضع الصحف جانبًا وقال: "أهلا وسهلا بكِ يا مانوليا".

كان يبدو بمظهره الباهت المعتاد، بلا ابتسامة، ولا دفء، لكنني كنتُ أعرفه الآن، فهو لن يُظهر عواطفه أبدًا.

أنزَلَ نظارته التي سقطت على طرف أنفهِ وتركها تتدلى معلقةً بحبلها فوق بطنهِ.

قلت للرجل الذي فعل أكثر من إرسالي إلى غرناطة: "أهلًا بكَ يا أستاذ". تبادلنا النظرات لبرهة؛ كانت نظراتهُ متزنة وهو يتفحصني، فبقيتُ أنظر إليه لمعرفة ما إذا كان سيتكلّم، وسرعان ما كسر النظرة التي بيننا، وأشار إلى المقعد المجاور لسريره.

كانوا قد اضطروا إلى إعادته إلى المستشفى بعد أن غادرت، لأنه تعرّض لأزمة أخرى، وعلى الرغم من أنه استراح في المنزل بعد مرضه الأول في شهر أيار/ مايو، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا.

قبل دخول الغرفة، أبلغتني عائلته أن حالته حرجة، فدخلت خائفة.

كان يبدو بمظهره المعتاد، شاحبًا بعض الشيء، متعبًا بعض الشيء، لكنَّه متحمس ونظراتهُ نفسها.

سألني: "كيف سار الأمر؟".

"كما ذَكرتُ، لم يطرح أحدٌ أسئلة غير تلك التي أردت أن تُطرح، فكانت عروضنا مثل التي في التمارين".

قطع حديثي برفع يده قليلًا: "أنا لا أسأل عن الندوة"، ثم نظر في عيني وضغط على كل كلمة وهو يقولها: "هل كانت غرناطة بمستوى توقعاتك؟".

أجبتُه بنفس واحد: "إذا أخبرتك أن مومياء أمير عمرها ثلاث سنوات من سلالة آل الأحمر ساعدتنا في العثور على إسطرلاب، وأخذتنا إلى عام 1368م، وأخبرتك أنه مات هناك وأننا سافرنا عائدين عبر البحر الأبيض المتوسط للوصول إلى مدرسة جاجا بيك، أعتقد أن مسيرتي الأكاديمية كانت ستنتهي قبل أن تبدأ".

حبس أنفاسه في البداية، إذ لم يكن يتوقع مني أن أقول ذلكَ فجأة، أضف إلى ذلك أن طولُ الجمل التي استخدمتها وقدرتي على تلخيصها في ثوانٍ جعلت الحدثُ مذهلًا. لقد تمكّنت من القيام بذلك في لحظة من الإثارة، أما الآن فلا أستطيع أن أصدق نفسي، ولا أن أتنفس بما يكفي لأنطق هذه العبارة الطويلة مرة أخرى.

شعرت بعرقٍ بارد أثناء انتظار رد فعله، وبدت لي فجأة غرفة المستشفى الكبيرة والمريحة وكأنها صندوق صغير بدون تهوية. لكنه أخذ يضحك بشكل غير متوقع، لدرجة أن كتفيه ارتفعتا من الضحك،

واهتز بطنه للأعلى وللأسفل مع كل ضحكة، فبدا لأول مرة مبتهجًا ومرتاحًا مثل الجد.

بعد صدمة رؤيته هكذا لأول مرة، بدأت أضحك أنا أيضًا، فقد شعرت بالارتياح، وانحسر التوتر الذي امتد عبر ظهري عندما دخلت الغرفة.

سأل من خلال ضحكه: "تسلق الجد الجبال إذًا؟".

"هل تعرف الجد؟".

حصلت على الإجابة من النظرة التي رمقني بها، ولم أجرؤ على طلب أي شيء آخر. فعندما تبخرَت آخر آثار ضحكته، عاد إلى طبيعته القديمة.

"هل كان الإسطرلاب هناك طوال هذا الوقت؟".

لم أستطع كبحَ نفسي فسألتُه: "هل تعرف الإسطرلاب؟".

كنت أخشى أن يرمقني بنظرة أخرى، ولكنه بدلًا من ذلك أراح رأسه على إحدى الوسائد الموضوعة خلف ظهره لإبقائه في وضع مستقيم، ثم حدَّق إلى السقف. أعتقد فعلًا أنه كان في مكانٍ بعيدٍ جدًّا.

"لقد كرست حياتي كلها لإيجاد الإسطرلاب".

هذا هو إذن سبب تعمّقه في الدراسات الأندلسية والكتب والمخطوطات بأنواعها، فهنا شغفه الحقيقي.

تجذَّر في داخلي احترامي العميق له.

"كان الجد أحد أولئك الذين يعرفون عن هوسي".

رأيت عينيه تمتلئان بالدموع وهو يدير رأسه نحوي متابعًا كلامه: "كنتُ قريبا جدًّا، ولكن لم تعد لدي القوة لإيجاد المفتاح من أجل تشغيل الإسطرلاب أو القيام بهذه الرحلة".

لهذا السبب أعطاني ثلاث كتابات كأدلة على عمل الإسطرلاب، وهي أفضل ما لديه. لا بدّ أنه كان من الصعب عليه قبول الفكرة.

"هل كنت تعرفُ عن يوسف؟".

ضغط شفتيه معًا بعناية وقال: "لقد اكتشفت من النص المشفّر أن مفتاح الإسطرلاب مخفي تحت قصر الحمراء، لكنني لم أكن أعرف شيئًا عن يوسف".

أومأتُ قائلة: "كان إخفاء يوسف وحمايته وراء كل هذه التكنولوجيا".

"عندما كنت طالبًا، تلقيت رسالة مكتوبة باللغة الأندلسية العربية لم تتم قراءتها من قبل، وكانت نصًا مشفّرًا، فاستغرق الأمر مني سنوات لحلها. وقد كُتِبَ فيها أنهم كانوا يعملون على السفر عبر الزمن من خلال الإسطرلاب"، توقف وابتسم ثم قال: "كان لديَّ سؤالٌ واحد فقط في ذهني لسنوات يا مانوليا، هل نجحوا؟ لقد فكرتُ بالأمر لسنوات، ولكنني لم أكن وحدي بل كان لدي بعض الشركاء أيضًا، والجد هو واحدٌ فقط من أولئك الذين يعرفون تلك المسألة، فهناك العلماء والمهندسون الميكانيكيون والأثرياء الذين مولوا هذا الفضول. لقد كان شغفًا عميقًا كرَّسَ الكثيرون حياتهم من أجله".

أدركتُ حينها أن لا شيء كان مصادفة، وأننا استطعنا القيام بذلك بفضل سنوات من البحث والشغف. كل واحد منهم، بمعرفة جديدة، قام بطريقة ما بوضع قرميدة في هذا الجدار وساهم في بنائه بالفعل، وكل ما كان علينا القيام به هو وضع الحجر العلوي لإتمام البناء.

سألته بصوت منخفض: "هل طلبتَ من ماثيو أن يريني الأنفاق؟".

هزّ رأسه قليلًا: "فكَّرتُ أنَّه سوف يلفت انتباهك من خلال طرح الأسئلة".

أصبحتُ مشوشة فسألته: "لكنك لا تعرف عن يوسف وغرفة الدفن؟".

أجاب بصبر: "عزيزتي مانوليا، لقد كنتِ أنتِ وماثيو، بفضولكما اللامتناهي وشجاعتكما، مثاليين لمشروعنا. وبما أن ماثيو عمل في القصر، فإنه كان يتمتع أيضًا بسلطة أكثر منا جميعًا. كنا نأمل فقط أن تتعمقا في تلك الأنفاق وتجدا ما كنا نبحثُ عنه".

كانت مخاطرة وفرصة؛ فقد رموا صنارة الصيد وانتظروا وصول السمكة الكبيرة!

قلت وأنا غير مصدقة: "الإسطرلاب! لغز أندلسي... تقنية ممزوجة بمدارس الأناضول".

ثم تابعتُ وأنا أتذكر أصوات الآلات القادمة من تحت مياه البحيرات: "لقد كانت أعجوبة هندسية".

"هل فهمتِ الآن سبب فضولنا الشديد بشأن التكنولوجيا الغامضة للقرن الثالث عشر، والتي لا نعرف عنها سوى القليل؟".

من يدري ما الذي كان يتم العمل عليه أيضًا خلف الأبواب المغلقة؛ ما الذي كان يوجد في تلك المكتبات والمخطوطات المحروقة؟

"هناك حقائق وراء اهتمام الكاثوليك حينها بالأندلس إلى درجة الهوس، حيث أسقطوا كل المدن واستولوا على قصر الحمراء دون أن يصيبوه بأذى، واضطهدوا المسلمين من أجل الحصول على التكنولوجيا ثم قاموا بحرقهم... تذكري ما قلتهُ لكِ عن التاريخ يامانوليا".

حتى لو كنا أفضل المؤرخين في العالم، فإننا لا نستطيع ولن نعرف كل ما حدث في التاريخ.

قلت بحماس: "ولكننا لم نذهب حقًّا إلى ذلك العام جسديًّا، أقصد أننا ذهبنا واستغرق الأمر ثواني، ومع ذلك أمضينا أسابيع هناك...".

قُطِعَت تساؤلاتي وتوقفت عن الكلام عندما دخلت الممرضة قائلة: "دعونا لا نتعب السيد ألتاي بعد الآن، حان وقت الدواء".

ثم طلبت مني المغادرة بأدب، فهززت رأسي ووقفت، وأنا أشعر أن كل حدث مررت به كان مشوشًا أكثر مما ينبغي. وعندما توجهتُ إلى الباب لأغادر مرددةً تمنياتي الطيبة ناداني باسمي يستوقفني.

ظهرت نظرة غريبة في عينيه، وقال: "ربما يكون كل هذا مجرد لعبة في عقولنا".

أربك كلامه تفكيري أكثر، بينما تابع قائلًا: "ما زلتِ.." ولكن عبارته انقطعَت بسبب السعال.

اهتز جسده كله، وبعد أن استعادت أنفاسه انتظامها تلاقت عينانا، فأحسستُ أن الطلب فيه الكثير من التفسيرات، والكثير من الأسئلة، ولكن الأهم من ذلك كله، أنه مليء بالتفاؤل.

"لا تنسي"...

لم أكن أعرف ما رآه في عيني، لكنه ابتسم بسعادة. فوعدت نفسي وأنا أنظر إلى ماثيو، الذي كان ينتظرني عند الباب، أنه حتى لو فُتحت الأبواب لعوالم جديدة، أو تشوّش ذهني، أو نُقلت من عاطفة إلى عاطفة، فسوف أواصل.

النسيان يخص التاريخ ولا يخصّنا نحن.

مكتبة الطفل

t.me/book4kid

إحدى قنوات

مكتبة

مانوليا طالبة في السنة الأخيرة في قسم التاريخ، تعمل في الدراسات الأندلسية مع أستاذها الذي كرس حياته للمخطوطات القديمة. وخلال إجازتها الصيفية، تجد نفسها بشكل غير متوقع في قصر الحمراء، لؤلؤة غرناطة، حيث تلتقي ماثيو الذي يعمل في القصر. وأثناء جولتهما في أرجاء القصر تفاجئهما الأنفاق، التي أضاعا طريقهما عبرها، ببرودتها أولاً ثم بتقنيتها العظيمة! كما يصادفان السر الذي جعل السلطان محمد، باني قصر الحمراء، يقوم بتسليم جميع المدن الأندلسية، بما فيها العاصمة قرطبة، مقابل الحفاظ على القصر؛ فيقودهما ذلك السر إلى أندلس القرن الرابع عشر، ليعيشا رحلة غير متوقعة.

رانا ديميريز

ولدت رانا ديميريز عام 1995 في اسطنبول، وأكملت معظم تعليمها هناك. ثم تخرجت من قسم تاريخ الفن والآثار بجامعة كوتش. تُعتبر رانا ديمريز أول شخص في العالم يكتب أربع روايات قبل سن السابعة عشرة، وقد أطلقت عليها الرابطة الدولية للمناظرات الشبابية لقب «التركية العبقرية». تقدم رانا ديمريز ندوات حول الكتابة الإبداعية، وتشارك في نشاطات تشجيع القراءة في المدارس التركية في العديد من المحافظات والمناطق منذ العام 2010م. تشمل كتبها العناوين التالية: أضواء الظلال، ليلة في آيا صوفيا، أسبوع في الأندلس، عام في القصر. صدرَت الترجمة العربية لروايتها «أسبوع في الأندلس» عن دار ثقافة للنشر والتوزيع عام 2021

ISBN: 978-9948-04-039-2
9 789948 040392
تيدا
برنامج دعم الترجمة والنشر في تركيا
THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com